كان التاريخية

www.historicalkan.co.nr

دورية إلكترونية - محكمة - ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

تأسست غرة جمادى الثاني ١٤٢٩ هجرية

السنة الثانية - العدد الرابع يونيو ٢٠٠٩م/ ربيع أول ١٤٣٠هـ

الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

Kan historique périodique

ملف العدد

شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم

شخصية العدد

الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض

الكاتب أحمد عادل

عـــاوزين المصـــل

متاحة للقراءة والتحميل عبر



الراعي الرسمي

http://commons.wikimedia.org

INTERNET ARCHIVE

www.archive.org

ناشري

www.nashiri.net



يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال نقلاً صحيحًا، بحيث يكون نبراسًا وهاديًا لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيى بوجوده وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس دورية علمية إلكترونية تاريخية عربية أكاديمية موجهة لأساتذة وطلبة الجامعات العرب و الباحثين و أصحاب الدراسات العليا في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد
المشرف العام على دورية كان التاريخية
مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية



العدد الرابع



دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.

- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والطلاب ، والباحثين ، والكتاب ، والمتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.

- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

www.historicalkan.co.nr
ISSN: 2090 – 0449 Online



دورية كان التاريخية
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net



الراعي الرسمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقيدة الإسلامية، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:

نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- أن يعرض الكاتب ملخصا وافيا لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطروحات الجامعية

- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزا على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.

هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال"إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com

Historical Kan Periodical

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research “Word format “
- Memoir About the author is required include : Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com





الافتتاحية

الرواية الشفهيَةَ في التاريخ

إن الرواية الشفهية في كتابة التاريخ تظل رواية وليست وثيقة يعتد بها ، كما تظل رواية يرويها صاحبها وتخضع لمنهج نقد النص ، أي تفكيك النص وإعادته لحالته الأولى ، وبالتالي لابد من دراسة الظروف التي كانت قائمة لتؤثر على هذه الرواية حتى يمكن فهم طبيعتها.

ولعل أبرز ملامح "الرواية الشفهية" أن صاحبها لا يتحدث دائماً عن نفسه ، وإنما يحاول النيل من الآخرين من دون أن يقيم ذاته ، فالرواية الشفهية التي يذكرها صاحبها دائماً هي جزء من مذكراته الشخصية عيبها الرئيسي أن صاحبها لا يتحدث عن نفسه لكنه يتحدث عن الآخرين ، ومن ثم يحاول النيل منهم من دون أن يقيم نفسه ولا يقول مثلاً إنه أخطأ أو تسرّع أو اندفع أو جانبه الصواب أو لم يكن مدركا لأبعاد أشياء كثيرة ، لذا فإن حديثه ينصب دائما على الآخرين ويصورهم على أنهم لا يفهمون.

وللأسف معظم المذكرات في الأصل هي روايات شفهية ، لكن بعض المذكرات قد تكتسب الصدق خاصة إذا ما كان صاحبها كتبها بغير قصد النشر ، ونموذج ذلك مذكرات سعد زغلول(١٨٦٠ - ١٩٢٧) ومحمد فريد(١٨٦٨ - ١٩١٩)، حيث كان سعد زغلول يدون مذكراته على شكل يوميات وفق حجم الحادث ، فكان يكتب كل شيء ويعترف على نفسه ، حتى إنه قال إنه كان ضد شقيقه الذي كان يوشى به عند الملك وأن داء القمار قد تمكن منه ، وأنه كان يشرب الخمر.

والرواية .أي رواية .لابد أن يتم التعامل معها على أساس منهج نقد النص وفق الظروف المحيطة بالرواية ، ومن هو كاتبها من حيث وضعه الاجتماعي وانتمائه السياسي لاستبيان مدى التأثر في كتابتها ، خاصة أن هناك روايات تنشر اعتمادا على قاعدة الولاء لدافع الأجر أو لإرضاء السلطة ، وبذلك يمكن القول إن صاحب الرواية إذا كان كذوباً لا يمكن الاعتداد به.

هناك قواعد لكتابة التاريخ أهمها جمع المعلومات من المصادر ومنها أرشيف الدولة "الوثائق" ، بالإضافة إلى التشريعات الصادرة في الفترة المراد كتابة تاريخها ، وكل ما يتعلق بنشاط الدولة في الموضوع المراد الكتابة فيه ـ بالإضافة إلى نوع آخر من المصادر مثل الأشخاص المعاصرين ، وكذلك المذكرات التي تكتب وتظهر خلال الأحداث ، قبل أن يتم تحليل كل هذه العناصر وتفسيرها ليس بهدف محاكمة الأشخاص ولكن لإجلاء الحقيقة.

عن حوار أجراه غريب الدماطي
مع أستاذ التاريخ الدكتور عاصم الدسوقي
منشور بجريدة العربي مارس ٢٠٠٩



الأولياء في مصر القديمة

Deified Humans Saints in Ancient Egypt



د.عائشة محمود عبد العال

أستاذ مساعد الحضارة والآثار القديمة

كلية البنات – جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية

nfrt111a@yahoo.com

- **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عائشة محمود عبد العال ، الأولياء في مصر القديمة.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو ٢٠٠٩. ص ٨ – ١٣. (www.historicalkan.co.nr)

يقول هرمس (تحوت) " إن مصر هي صورة السماء بل هي مقر السماء ؛ حيث تتركز فيها كل القوى ، والحقيقة أن أرضنا مصر هي معبد الكون [١] ". كما ذكر هيرودوت قبل تلك العبارة بنحو ستة قرون مقولته الشهيرة بأن المصريين أكثر شعوب الأرض تديناً [٢] ؛ و يعد هذا البحث محاولة لإلقاء بعض الضوء على فكرة التقديس التي نالها بعض العامة من الشعب خلال العصر المتأخر [٣] ، حيث برزت تلك العبادات بشكل مكثف ، مع ميل لإبراز -وصل لحد التعصب -للسمات ، والأفكار المصرية الخالصة في فترة اشتدت ظلمتها مع تـوالي النكبات السياسية ، والعسكرية و الاقتصادية على مصر ؛ فنجد في البداية إنه مع ضعف هيبة الملكية - التي حافظت ظاهرياً على مكانتها -أن حظيّ بعض الأفراد ممن تمتعوا بقوى خاصة بوصولهم إلى مرتبة قد يفضل أن نطلق عليهم "الأولياء" وهو التعبير الذي أطلقه عليهم منذ البداية " D. Wildung " [٤] إذ يعبر بدقة أكثر عن الفكر المصري ، بعكس لفظ "إله" الذي يطلقه الدارسون الأجانب دون فهم لحقيقة النفسية المصرية.

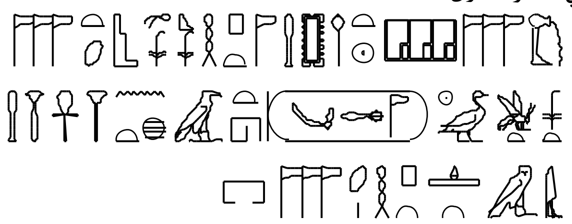
إذ أدرك المصري القديم أن هناك رباً أعلى متربعاً على عرشه بعدما خلق الكون ، و أقر الأقوات ، و ناصر الضعفاء و أقتص للمظلوم [٥] ، وربما أن المصري قد شعر بمدى قدسية المعبود ، و تساميه فأراد صورةً أكثر قرباً لخياله تكون الوسيط إلى الرب الأعلى فاختار الملك الذي سرعان ما تسامى هو الآخر ، و هنا لجأ إلى الأكثر قرباً ، والتصاقاً به وهم مجموعة من البشر جعلهم نظراً لمكانتهم الخلقية و الأدبية " أولياء " يرعون مصلحته ، و يكونون صورة حقيقية للوساطة بين الرب الأعلى و البشر ؛ و يتقرب عن طريقهم للمعبود و الملك في آن واحد ؛ ويبدوا أن هؤلاء الأولياء -القديسين -لم يصلوا إلى المرتبة الفعلية للأرباب ولكن تم تقديسهم خلال فترة زمنية معينة.

أولاً الأولياء من كبار الموظفين

أ. إيمحوتب

و هو الشخصية التي كان يذكرها الناس جميعاً ، و التي بقيت ذكراها على مر التاريخ المصري القديم ، و هو الحكيم ، و الأديب ، والمهندس المعماري الفذ ، و الفلكي ، و كبير الرائين في معبد "رع" بعين شمس ، على عهد الملك "زوسر" ، الذي يعد من أكثر الشخصيات ذات المواهب العقلية المتميزة [٦] ، و هو أول الشخصيات العامة التي تتبوأ تلك المكانة ، حيث أعتبر سيداً للمتعلمين والكُتاب منذ الدولة الحديثة ، وجاء في بردية الملوك المحفوظة في تورين أنه ابناً لبتاح من أم أرضية "بشرية" تدعى " غردو عنخ"- وفي أحيان أخرى كان ينسب لبتاح من المعبودة سخمت - ، ومن هنا أعتبر بمثابة نصف معبود ، ثم أصبح منذ الأسرة السادسة و العشرين معبوداً كاملاً له عبادة محلية في منف ، شمال سقارة بالقرب من السيرابيوم ، وله كهنته و شعائره القائمة في ذلك المكان بشكل خاص منذ العصر البطلمي حين أصبحت مقصورته تلك مزاراً صحياً يقصده المرضى للاستشفاء ، وتقدم له التماثيل النذرية المصنوعة من البرونز ، وقد توحّد مع المعبود إسكلبيوس رب الطب عند اليونان ، و شاعت مراكز عبادته ، و شعائره في جميع أنحاء مصر [٧] .

كما عبد و أقيمت له الشعائر خارج مصر ، وبصفة خاصة في روما ، حيث عثر على تمثال للكاهن أحمس ، في مدينة Puteoli ، الميناء الشهير في مقاطعة Campania ، وهو يمثل كاهناً يحمل ناووساً به تمثال لإيمحتب ، و النص المسجل على عمود الظهر منقوش في سطرين رأسيين بدايته مفقودة و كذلك جزء من الخاتمة ، و يذكر في العمود الأول :



الكاهن المطهر للأرباب في إنب حج ، كاهن بتاح ،" العرق إنسو" لإيزيس أم الأرباب ، (و كاهن) ملك الجنوب و الشمال "جسر نثرى غت" في تادهنة في عنخ تاوى (منف) ، كاهن إيمحوتب بن بتاح في بيت الأرباب.

أما النص المسجل على واجهة الناووس فيذكر :

المبجل من إيمحتب بن بتاح و كاهن بتاح ..... . [٨]

هذا و يعد التمثال و هو من العصر المتأخر ، أحد الأمثلة النادرة التي تشير إلى شعائر خاصة تقام من أجل إيمحتب الذي بدأ اعتباره معبوداً بشكل تام منذ هذا التاريخ بالفعل [٩] .

و قد عثر في موقع هذا التمثال على عدد آخر من تماثيل المعبودات المصرية الشائعة في العصر المتأخر مما رجح أن يكون هذا الموضع مقصورة أو ربما معبد لعبادة بعض المعبودات المصرية في روما [١٠] . و لقد عثر على عدد من المواقع في أوروبا بصفة عامة بها معابد أو مقاصير لعبادة الآلهة المصرية القديمة خاصة إيزيس التي استمرت عبادتها في أوروبا حتى بداية القرن الرابع الميلادى [١١] ؛ و يؤكد هذا التمثال أنه إلى جوار المعبودات المصرية التي عبدت خارج مصر كان لإيمحوتب مكانة بارزة ، حيث ربطه الإغريق برب الطب عندهم و هو إسكليبيوس [١٢] .

جدير بالذكر أن المعبود " إيمحوتب" ظل يمثل في هيئة بشرية خالصة من غير أن يضاف له تاج أو صولجان أو اللحية المميزة ، وغالباً ما كانت تقام الطقوس الخاصة به في مقابر الموتى بصفة عامة بالإضافة إلى مقصورته في سقارة. [١٣]





ب. آمون حتب بن حابو

وكان من أهم الشخصيات التي نالت القداسة ، بعد إيمحتب ، وهو وزير و صاحب درجة وظيفية عليا في بلاط الملك آمون حتب الثالث [١٤] (١٣٧٩-١٣٤٠ ق.م) من الأسرة الثامنة عشرة.

وقد شغل عدداً من الوظائف ، من أهمها رئيس الكهنة ، و الكاتب الملكى ، و المهندس المعمارى ، وظل في مدينته أثريب حتى بلغ الخمسين من عمره حينما أحضره الملك إلى طيبة ، حيث أصبح رئيساً للمهندسين ، و رئيساً للكهنة الملكين ، وكذلك الناصح الحكيم للملك ، وظل في خدمة ملكه حتى بلغ الثمانين ، وتوفي قبل ملِكه بعدة أعوام ، ودفن في مقبرة ذات طراز ملكي في طيبة ، وكان له أثناء حياته مكانة عظمى يستدل عليها من وجود تمثاله في معبد آمون رع بالكرنك كوسيط بين الناس و آمون وكذلك بينهم وبين الملك.

وهو يصور غالباً في وضع الكاتب ممسكاً بأدوات الكتابة و لفة البردي ، ومرتدياً شعراً مستعاراً و نقبة ، و قد ازدهرت عبادته في العصر الصاوي ، و إن لم يعتبر إلهاً بالمعنى الكامل وإنما ظل دائما كاهناً طيباً (ولياً) . وكان تقديسه في عصر بطليموس الثالث [١٥] (٢٤٦ - ٢٢٢ ق.م.) ، ثم حمل لقب الإله العظيم في عصر بطليموس السادس [١٦] (١٨٠-١٦٤ ق.م) ؛ و أصبح له تماثيل كمعبودٍ شافٍ ، وسيد للأطباء [١٧].



و يلاحظ أن تقديسه جاء متأخراً عن إيمحتب كما كان أكثر محلية حيث لم يعثر ــ حتى الآن ــ على مراكز لعبادته خارج منطقة الأقصر [١٨] ؛ وقد ارتبط كلاهما بالقدرة على الشفاء أثناء نوم المريض حيث تتراءى له بعض الرؤى التي يشفي بعدها و يخرج من مقر هذا الولي (المؤله) و قد تعافي [١٩].

ج .بادى سبك

يندرج تحت هذه الجزئية عدد آخر من الأولياء منهم المدعو "بادى سبك" الذي عاش حوالى عام ٩٠٠ ق.م ؛ من منطقة الفيوم حيث شاع هناك تقديس الملك أمنمحات الثالث ؛ و من ثم كان تقديس هذا الشخص مندمجاً في صورة أمنمحات الثالث ، و صور في هيئة التمساح رب الفيوم [٢٠].

د. جد حر

ثم يأتي المدعو " جد حر "كبير كهنة منف خلال الأسرة الثلاثين ، الذي ارتبط بكل من إيمحتب و آمون حتب بن حابو كما حمل لقب "با هب " أيبس " ، الطائر المقدس رمز المعبود جحوتى رب الحكمة [٢١] ، و قد شيد له بطليموس إيروجيتيس الثاني مقصورة في معبد هابو [٢٢].

هـ . بيتوزيريس

"بادى أوزير " في تونا الجبل [٢٣] ؛ الذي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد ، و هو ينحدر من عائلة كهنوتية من الأشمونين ، و شغل عدد من الوظائف الكهنوتية و الإدارية بها ، لعل أهمها كبير كهنة جحوتى بالأشمونين ؛ و قد حافظ على مدينته وثرواتها خلال الفترة العصيبة زمن الاحتلال الفارسي الثاني وحتى دخول الإسكندر مصر (٣٤٢-٣٣٢ ق.م) [٢٤] ؛ و يبدو أنه لم يصل فقط إلى مكانة تقارب مكانة كل من لإيمحتب و أمنحتب بن حابو بل ارتبط تقديسه بهما أيضاً [٢٥] و قد يكون السبب وراء رفعه إلى مصاف الأولياء إلى جانب ما تميز به من سلوك قويم بعد وفاته بنحو نصف قرن ، استطاعته المحافظة على إقليمه خلال الفترة التي وصفها بأنه لم يعد شيء في مكانه في وجود الحاكم الأجنبي ؛ و أضيف بعد اسمه لقب " با هب " كسابقه [٢٦].

يلاحظ في الأولياء (المؤلهين) السابق ذكرهم ارتباطهم بالمعبود " جحوتى " رب الحكمة ، و هو الأمر الذي يؤخذ بعين الاعتبار إذ إنه من المعروف تقديس المصري القديم للكلمة التي كانت في أحد مذاهب الخلق المصرية القديمة هي العامل المؤثر في نشأة الوجود [٢٧] ؛ وبالتالي فإن من يملك الحكمة و هو منزه عن الصغائر فيما يأتي به من أفعال و يحتفظ الناس بذكرى طيبة له بل يرفعوه مكاناً علياً قد يتراءى لغير المتفهمين لحقيقة الشخصية و اللغة المصرية القديمة كأنه رب ، و هو في واقع الأمر عالِم ، و حكيم و قد قال المولى عز و جل "يُؤتى الحكمةَ من يشاء و من يؤتَ الحكمةَ فقد أُتِيَ خيراً كثيراً و ما يَذَّكر إلا أُلوا الألباب.[٢٨]

ثانياً الأولياء من الغرقى

أعتبر المصري القديم من مات غريقاً بمثابة الشهيد و تلقب بـ" حِسِى " بمعنى المبارك ، فنالته القداسة [٢٩] ؛ كما يوجد عدد من الألقاب التي أطلقت على الغريق حيث شاع استخدام لفظ [هيروغليفية] " محو " منذ الدولة القديمة و الوسطى [٣٠] ؛ و الذي يعنى أنه امتلأ بالماء و من هنا كان ارتباط الغريق بأوزير ، كما استخدم مجموعة أخرى من الألفاظ التي تعبر عن نفس المعنى أى الامتلاء أو الانغماس في الماء مثل : [هيروغليفية] [٣١] "عجا" ؛ و [هيروغليفية] [٣٢] "هرب" ؛ من عصور مختلفة خاصة المتأخر و اليوناني الروماني .

يبدو أن الغريق و كذلك من مات محروقاً كان يعد ميتاً سيئ الحظ ، حتى تغيرت النظرة إلى الغريق خلال نهاية الدولة الحديثة فاعتبر هذا النوع من الموت هو قدر أوزيريس بل قدر رب الشمس ذاته الذي يغرق في النيل يومياً ثم يعود للحياة مع الصباح [٣٣] ؛ و قد أخذت شعائر الغرقى تتضح مع العصر المتأخر حتى أن هيرودوت يذكر أن جسد المتوفى كان مقدساً بحيث لا يسمح إلا لكهنة " النيل" فقط أن يلمسوه ، و يقومون بتحنيطه على أعلى مستوى إذ على ما يعتقد أنه قد قارب في نظرهم رب الخصوبة (أوزير) نفسه [٣٤].

و منذ الأسرة الثلاثين بدأت بعض الآثار من لوحات مقابر و بعض النقوش على توابيت تذكر من مات غريقاً بنوع من الإجلال و لعل أشهر من وصلت إلينا آثارهم حتى الآن تابوت لنس مين من الأسرة الثلاثين ؛ و قد عثر عليه في قفط ؛ و قد حمل عليه اللقب :



"الولى" أوزير المبارك المفيد في الجبانة[٣٥].

و كذلك تابوت "توتو توا" الذي يؤرخ بالأسرة الثلاثين ، و الذي عثر عليه في قفط ؛ و قد حمل عليه نفس اللقب السابق .[٣٦] كما حمل نفس اللقب المدعو حور ؛ الذي عثرعلى جزء من تابوته المؤرخ بعصر الإمبراطور أغسطس[٣٧] ؛ و هناك تصوير لشخص مجهول الاسم[٣٨] ، يظهر ذلك المتوفي الغريق و قد حلى جبينه حية الكوبرا ؛ ممسكاً في يده اليمنى بصولجان " الواس" و مجموعة من براعم اللوتس ، و في اليد الأخرى علامة العنخ ، و قد وضع في نقبته ذيل الثور و حلى الجزء العلوى من اللوحة بقرص الشمس المجنح أي أضفي على نفسه الصفة الملكية المقدسة في ذات الوقت ؛ كما ظهر ذات التصوير السابق على لوحة شخص آخر مجهول الاسم أيضاً ، غير أنه يمسك بصولجان على هيئة زهرة اللوتس ، و يرتدى الرداء يوناني (هيماتيون)[٣٩] ؛ كما صور بنفس الهيئة السابقة شخص آخر غير معروف الاسم عثر على لوحته في النوبة تعود للعصر اليوناني الروماني[٤٠] ؛ أما المدعو " با آمون " فقد سجل على لوحته نفس اللقب الذي سبقت الإشارة إليه" حسى عا إم غرت نثر " ؛ و قد ظهر على اللوحة و له لحية صغيرة و يمسك بصولجان ينتهي برأس الصقر ، و في يده اليمنى علامة " العنخ = الحياة " ، و بالقرب منه تصوير لإبن آوى يخرج من قدميه صولجان " سخم = القوة " ، و فوق ظهره " المذبة"[٤١] .

أما الأشهر خلال العصر الروماني فهما الأخوان بادى إيسه و با حور الذين شيد لهما الإمبراطور أغسطس (٢٧ق.م : ١٤م) معبد دندور ، وصور الإمبراطور يقدم القرابين أمامهما.[٤٢] وقد ظهر بادى إيسة في المعبد بتاج الآتف فوق الباروكة القصيرة وحية الكوبرا ، و قد لون بلون أزرق ، أما بادى حور فلون بلون أخضر[٤٣] ؛ و قد حمل كل منهما لقب " حسى " إلى جانب لقب " با شاى " الذي أخذ مخصص ثعبان و هو اسم أحد المعبودات التي شاعت في العصر المتأخر[٤٤] .

أما " أنطونيو" فتى الإمبراطور هادريان[٤٥] (١١٧ -١٣٨ م.) فقد تم تقديسه بنفس الكيفية المصرية على الرغم مما يقال من أنه قد قتل نفسه فداءً لإمبراطوره ؛ و قد حمل هو الآخر لقب " با شاى إن كمت " ، و هو الذي ترجم إلى اليونانية "بأجاثو ديمون"[٤٦] ؛ ولم يقتصر ظهور أولئك الأولياء من الغرقى على الذكور فقط حيث ظهرت بعض النساء وقد تحققت لها تلك المكانة بعد أن غرقت هي الأخرى و منهم:

السيدة " تا شيرت التي عثر على لوحتها في النوبة ؛ وهي من الحجر الرملي ، تمثلها واقفة ممسكة بالصولجان " عنخ " في يدها اليمنى ، أما اليد اليسرى فتمسك بها باقة من زهور اللوتس مع علامة العنخ أيضاً ؛ و تؤرخ بالعصر اليوناني روماني[٤٧] ؛ ثم السيدة إيزادورا التي عاشت في القرن الثاني الميلادي ، و مقبرتها في الأشمونين على مقربة من الموضع الذي غرق به الفتى أنطونيو[٤٨] ؛ و الفتاة أسكليبياس التي غرقت إبان العصر اليوناني الروماني ؛ و قد عثر على لوحة لها في سيرابيوم سقارة و معروضة حالياً باللوفر ؛ و قد ذكرها نص اللوحة بلقب " حسيت " ، و أن عمرها كان خمسة أعوام.[٤٩]

وكذلك السيدة " حور سجم" التي عاشت في الأشمونين خلال العصر البطلمي ؛ و توفيت في بداية العام السابع و العشرين من عمرها ؛ و قد عثر على لوحة لها تتعبد أمام طائر أيبس رمز المعبود تحوت رب الأشمونين ، و حملت على هذه اللوحة لقب " حسيت ".[٥٠]

يلاحظ أن هذه اللوحات مصنوعة من الحجر الرملي الأحمر ؛ كما يلاحظ أن ألقاب هؤلاء الغرقى (الأولياء) قد ربطتهم بكل من أوزير ، و رع[٥١] بل بالمعبود سبك رع ؛ و من الطريف أن أحد الألقاب الكهنوتية التي تخص سوبك في العصر المتأخر كان لقب : " محى سم إن سوبك " (كاهن سم الغريق الخاص بسوبك)[٥٢] ؛ و من المحتمل أن هذا الكاهن كان يؤدى بعض الشعائر تحت الماء ؟.

و لا شك أن ارتباط الغريق بسوبك هو أمر منطقى ؛ كما كان ارتباط الغرقى بالمعبود أوزير أمراً معتاداً إذ أنه يعتبر بصفة عامة رب العالم الآخر ، ويسعد المتوفى-المبرأ -بصحبته في العالم الآخر ، بالإضافة إلى أن أوزير قد قطعت أعضائه وألقيت في النيل كما تروى الأسطورة ، وبعد ذلك استطاع الحياة مرة أخرى ، وفضل بقاءه في العالم الآخر[٥٣] ؛ ومن هنا أعتقد أنه كان لابد للغريق أن يكون على يقين من أنه عائد لا محالة للحياة كما عاد أوزير.

أما عن ارتباط الغريق برع ، فقد كان المصري القديم يرى الشمس عند الغروب وكأنها "تغرق" في ماء النيل ، ثم هي تعاود الحياة و الإشراق مرة ثانية ، وبذلك استشعر المصري أن ذلك الغريق سيحيا لا محالة ، كما تحيا الشمس يومياً ؛ وفي يقينه أن كل من "أوزير ، و رع " ، معبودان لهما أكبر الأثر في العقيدة المصرية ، مما جعل ذلك الارتباط بهما يضفي القدسية على "الغريق" ؛ والأهم من ذلك كله أن الماء ذاته مادة مقدسة و هو المصدر الدائم للحياة ، ومنه انبثقت الحياة للمرة الأولى حينما خرج الرب الخالق لأول مرة من المحيط المائي "نون" ليبدأ عملية الخلق من تلك الهيولى ، وعليه فان الغريق الذي امتلأ جسده بالماء -كتعبير المصري القديم- ، أو بمعنى آخر "غرق" ، وانغمس كليةً في النيل لابد أنه سيخرج من هذا " النون" ، طاهراً نقياً كما خرج منه الرب الخالق أول مرة[٥٤] .

ثالثاً الأولياء من الأسلاف

بدأت تباشير تلك العبادة ربما منذ عصر الأسرة الأولى على أقل تقدير متمثلاً في بعض المظاهر منها ظهور معبود يدعى " آختى" ؛ يعتقد بأنه جد أعلى تم رفعه إلى مصاف الأرباب في تلك الفترة ، و ربما أنه المقصود بالنقش على كتف تمثال الكاهن " حتب دى إف" بالمتحف المصري الذي يؤرخ بنهاية الأسرة الثالثة[٥٥] ؛ كما تعد أرواح به و نخن أرواح لأسلاف تم تقديسهم فيما بعد ؛ بل ذهب البعض إلى أن المعبود أوزير ذاته هو سلف أو جد أعلى تم تقديسه و عبادته بعد ذلك ، و توجد العديد من المؤشرات و القرائن التي تثبت تلك الآراء خلال فترة العصر العتيق[٥٦] ؛ غير أنه من المحتمل أن أشكال عبادة أو تقديس الأسلاف أخذت تضح منذ نهاية الدولة الوسطى[٥٧] ، ثم وصلت الذروة في دير المدينة بعد العمارنة[٥٨] ، و استمرت فيما بعد .

و من الجدير بالذكر أن تأثير تلك العبادة في الحياة الروحية و ما يرتبط بها من عقائد عند المصري القديم غير واضحة ، و من ناحية أخرى فعبادة الأسلاف كوسيط بين الإطار البشرى الدنيوى ، بين الإطار الإلهي غير مطلقة[٥٩] ، و هو ما قد ترى الباحثة أنه لا يدخل في حيز العبادات المطلقة في مصر القديمة بقدر كونه دلالةً إما على الارتباط الروحي ، و صلات المحبة مع الأسلاف ، أو كنوع من اتقاء لشرٍ قد يصيب الشخص الحي من ذلك القريب المتوفى كما توضح لنا مجموعة نصوص خطابات الموتى[٦٠] .



ثم تطورت تلك العبادة في العصر البطلمي على يد بطليموس الأول حيث ألـه الإسكندر الأكبر ، ثم أقام بطليموس الثاني شعائر تقديس لوالديه في جوار مقبرة الإسكندر ؛ ثم أصدر لها بطليموس الثالث فرماناً ملكياً نحت في مداخل المعابد المصرية معلناً عبادة الأسرة البطلمية من جهة و تأليه زوجته من جهة أخرى و أمر بوضع تماثيل ذهبية لها باعتبارها ربة [٦١] ؛ و هو بذلك خرج بها من إجلال وتقدير الأسلاف إلى تقديس بل تأليه كامل للملك الحي وزوجته.

الخاتمة و نتائج الدراسة [٦٢]

- رفع إلى مصاف الأولياء من تمتعوا بالحكمة و العلم مع حسن السيرة فربط الناس بينهم و بين جحوتي رب الحكمة.
- كما رفع لذات الرتبة من مات غريقاً فكأنه ارتبط بقدر أوزيريس و رع في وقت واحد ، و وجدت أمثلة لأولياء من الغرفي رجال ونساء.
- النموذج الثالث من الأولياء هم " الأجداد القدامى " للإنسان وهو ما يعرف بتقديس الأسلاف و قد حوله البطالمة إلى إلوهية فعلية بدأت بعبادة الإسكندر الأكبر بعد موته ثم عبادة الملك البطلمي الحي وزوجته .

المراجع العربية والأجنبية

1 J. Brashler ; [et al.], Nag Hammadi codices, VI, ed., Douglas M. Parrott. Leiden : Brill, 1979, 70,5-10.

هرمس: هو المسمى الذي أطلقه اليونان على المعبود جحوتى رب الأشمونين ، منعوتاً بمثلث العظمة كناية عن فائق علمه و عظيم مكانته ، و قد كانت له تعاليم دينية صوفية تعد الأساس الذى أتخذه كل من الفلاسفة المعروفين " أفلاطون و فيثاغورس" :

H-J.Thissen, Herms(Trismegistos), in: LÄ II,1977, 1133-35.

وقد أعترف بفضل تحوت المعلم المصري عدد كبير من مفكري عصر النهضة الأوروبي. ومنذ العثور على المخطوطات الهرمسية في الفيوم ١٩٣٠ وفى نجع حمادي ، والتيكتب معظمها باليونانية و القليل منها بالقبطية ، و إنها قد حوت تعاليم موغلة في القدم. و قد تمت العديد من الدراسات و الترجمات لعل من أهمها الترجمة المذكورة أعلاه ؛ و قد سبقها بعامين اللغوي الفرنسي لويس مينار بدراسة هامة عن تاريخ الهرمسيات أتبعها بترجمة جانب من تلك المتون ، و قد ظهر حديثاً ترجمة عربية لهذا الكتاب هي:

لويس مينار ، هرمس المثلث العظمة أو النبي إدريس ، ترجمة عبد الهادي عباس ، دمشق ١٩٩٨؛ و أنظر أيضاً : تيموثي فريك و بيتر غاندى : متون هرمس حكمة الفراعنة المفقودة ، ترجمة عمر الفاروق عمر ، المجلس الأعلى للثقافة العدد ٣٥٧، القاهرة ٢٠٠٢.

2T.E. Page, Herodotus II, translated by A.D.Godley, Cambridge 1952,319, § 37.

٣ يوجد إرهاصات لتأليه بعض البشر على الأقل منذ الأسرة السادسة حيث قدس كل من كاجمنى ، و إيسي ، و حقا إيب ؛ و من الملاحظ أن ذلك التقديس لم يدم كثيراً ربما حتى عصر الدولة الوسطى ، راجع :

M.Alliot, in: BIFAO 37, 1937-38, 145ff; L.Habachi, in: AV 33, 1985, 161ff; A.Sadek, in: HÄB 27, 1987, 276.

٤D. Wildung, Egyptian Saint , Deification in Pharaonic Egypt, New York 1977,31ff.

وقد أكد الباحث المصري لؤي محمود تلك الفكرة التي تتبعها من بداية ظهورها وحتى نهاية الدولة الحديثة ، و يؤكد على أنه لم يكن تأليهاً بالمعنى المفهوم بل هو معاملة هؤلاء المتميزين باعتبارهم أولياء بالفعل و ذلك في رسالته للماجستير :

لؤى محمود سعيد ، الفكر الشسعبى الديني في مصر القديمة" دراسة تحليلية"رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ١٩٩٩.

٥ عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، جا ، مصر والعراق ، القاهرة١٩٨٢ ، ص٢٢٩-٣٣١.

6 D. Wildung, Imhotep, in: LÄ III 1980, 145-8.

7 D.Wildung, in: MÄS 36, 1977, 298ff; in: LÄ III, 1980, 145 - 148.

٨ التمثال من الشست الرمادى عثر عليه ١٩٩٤، ومحفوظ في المتحف القومي بنابولى ، مفقودة رأسه و كفاه ، و ساقاه ، و يحمل ناووساً منحوتاً بداخله تمثال لإيمحوتب كإله في هيئة آدمية واقفاً ، و يداه مفرودتان وممسكتان ببردية مفتوحة تغطى معظم مساحة الفخذين ، و قدماه مضمومتان (والملفت للنظر أن القدم اليسرى لا تتقدم كالمعتاد) ؛ يلاحظ أن كلاً من تمثال الكاهن ، و تمثال الإله في الناووس لهما نفس الخصائص الفنية و نفس الجودة في التنفيذ ، والتمثال يؤرخ بنهاية العصر الصاوي ، وبداية العصر الفارسي أنظر :

C. Cozzolino, in: Egyptological Studies for C. Barocas, Napoli 1999,25-36,Fig.2.

9 D.Wildung, in: MÄS 36, 1977, 298-302.

10 C. Cozzolino, op-cit., 33-34.

11 M.Malaise, in: Homo Religiosus, 5 1980, 117.

١٢B.Ockinga, Piety, in: Ancient Egypt, III, 2001, 44.

١٣ أدولف ارمن, ديانة مصر القديمة, القاهرة ١٩٩٧ ، ص٣٦٥

14 B.Ockinga, Op- Cit., 44.

15D.Wildung, in: MÄS 36, 1977, 295.

16B.Ockinga, Op- Cit., 44.

17A.I.Sadek, in: HÄB 27, 1987,276 - 280.

18 Ibid. 280.

19D.Wildung, in: LÄ II 1977, 1101-1102.

20 A.Rowe, in: ASAE 40, 1940,33.

21D.Kuurth, Thot, in: LÄ VI, 1986,497-523.

22 A.Rowe, in: ASAE 40, 1940,34.

23 G.Lefebvre, Le Tombeau de Petosiris, Paris 1924; S.Nakaten Petosiris,, in: LÄ.IV, 1982, 995-998.

24 D.Redford, Petosiris, in: Ancient Egypt, III,38-39.

25 E.Teeter, Ancient Egypt, Op-Cit., 344.

26 A.Rowe, in: ASAE 40, 1940,34.

٢٧ عبد العزيز صالح : فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة . المجلة العدد٢٦ فبراير ١٩٥٩.

٢٨ سورة البقرة ٢٦٩.

29 M.El Amir, A family archive from Thebes, Cairo 1959, 126-



30 WB.II, 123.

31 WB.I, 235.

32 WB.II, 500.

33 Ch.Strunβ, Ertrinken/ Ertränken in: LÄ II 1977, 17-19.

34 M.A.Murray, in: ZÄS 51, 1914, 135.

35 A.Rowe, Op-Cit., 11-13 (JE.36434.)

36 (JE.36435) Ibid. 13-16.

37 Ibid.,16.

هذا التابوت مباع للمتحف المصري من أحد تجار الآثار و هو من الحجر الرملي و قد عثر عليه في النوبة ، و محفوظ تحت رقم JE.52809

38 Ibid. 19, Pl. III.

عثر على لوحة من النوبة و هي تعود للعصر اليوناني الروماني

39 A.Rowe, Op-Cit., 20,Pl. IV.

وقد عثر على لوحته في النوبة و تعود للعصر اليوناني الروماني ، محفوظة بالمتحف المصري تحت رقم T.5/6/15/5.

40 Ibid., 20, Pl. V.

بالمتحف المصري تحت رقم T.20/9/19/7

41 Ibid., 21-22

اللوحة معروضة في متحف تورين ، وهي من الحجر الرملي

42 E.Teeter, Pouplar worship in ancient Egypt, in: KMT 4.2, 1993, 28-37.; in: Ancient Egypt,. I, 2001, 344.

43 A.Rowe, Op-Cit., 22-25.

44 M.A.Murray, in: ZÄS 51, 1914, 135.

عن هذا المعبود بصفة عامة أنظر:

I.G.Shirun, Schai, in: LÄ V,1984,524-6.

45 A.Rowe, Op-Cit., 25-26.

46 M.A.Murray, in: ZÄS 51, 1914, 135.

و الأجاثو ديمون روح ناصرة ، تصور على هيئة ثعبان ، و هي من ربات القدر عند اليونان (مما يفسر ترجمة اليونان للاسم المصري " شاي" بها) ؛ ويبدو أنها مشتقة من المعبودة المصرية إيزيس التي كانت تصور في هيئة الثعبان ربما منذ القرن الرابع قبل الميلاد ؛ راجع عنها :

Ph. Derchain, in: LÄ I, 19775,94; Bakhoum, Dieux Égyptiens à Alexandrie sous les Antonins, Paris 1999,137-145.

47 A.Kamal, CGC.22232; A.Rowe, in: ASAE 40, 1940, Pl. V .

48 A.Rowe, Op-Cit., 26.

49 Ibid.,27,Fig.8-9.

50 Ibid.,27-28,Pl.VII.

51 Ibid.,3-11.

52 WB.II, 123 [1]

53 A.Rowe, in: ASAE 40, 1940,1-50

و هناك تصوير نادر في أحد مقابر دير المدينة (مقبرة ٢٨٦) حيث صور المتوفى على هيئة مومياء سمكة يعالجها المعبود أنوبيس كما هو شائع ، مما أدى إلى افتراض أن يكون المتوفى مات غريقاً و أصبحت السمكة بالفعل التابوت الذي يحوى الجثمان ؛ لذلك صوره في المقبرة بتلك الهيئة و ليلعب دور أوزير من جهة أخرى:

M.Saleh, Das Totenbuch in den Thebanichen Becantengraber des Neuen Reiches, in AV 46, 198, 11,Abb.6.

٥٤ عن الماء بصفة عامة ، أنظر:

P.Kaplony, Wasser, in: LÄ VII, 1992,16-44.

55 CGC.1; A.M.Saied, Götterglaube und Gottheiten in der Vorgeschichte und Frühzeit Ägyptens, Kairo 1997,380-1.

56 Ibid., 379-385.

٥٧ عثر على مجموعة من التماثيل النصفية تنسب إلى الأسلاف في مواقع مختلفة ترجع لنهاية الدولة الوسطى ، محفوظة حالياً بالمتحف المصري بالقاهرة تحت رقم:

T.6.2.3.1, JE.87846, 64911, 35885, positions R.22 N.W.

راجع عنها تفصيلاً:

Bruyère, in: FIFAO X, 1933, 85; XVI 1939, 171; W. Kaiser, in: MDAIK 46, 1990, 269-85, Taf.62-63 ; Friedman, in: JEA 71, 1985, 82-97; I. Sadek, in: HÄB 27, 1987, 76 ff; Fitzenreiter, in: GM143, 1994, 51-71.

58 S.L. Olson, in: Ancient Egypt, Vol. 2, 2001, 216-7.

59 E. Endesfelder, in: HÄB 37, 1994, 49.

٦٠ خطابات الموتى : كان المصري القديم يعتبر الموتى جزءً من السكان ربما يستطيعون مد يد العون له ، أو ربما يسببون بعض الصعاب ؛ و من هنا كان الاهتمام بإرسال خطابات غالباً ما كتبت على شقف الفخار و تتضمن عبارات تطلب من المتوفى أن يبعد عنه بعض ما يقاسيه من متاعب يعتقد أن ذلك المتوفى هو المتسبب فيها.

R.Grieshammer, Brief an Tote, in: LÄ I, 1975, 864-70.

61 G.Hölbl , A History of the Ptolemaic Empire ,Trans. by T.Saavedra, London 2001.162-6.

٦٢ نشر هذا البحث لأول مرة في المؤتمر العام لإتحاد الآثاريين العرب أكتوبر ٢٠٠٣ م.



من الإنتاج العلمي للدكتورة عائشة عبد العال:

- " أثر قدم الرسول و مقارنتها بلوحات الأقدام بالإسكندرية وغيرها من المدن المصرية "مؤتمر الإسكندرية مدينة الحضارات ٢٠٠٣ م .
- "لوحة إيرى سوبك بالمتحف المصري " مجلة المؤتمر الدولي لتكريم أ.د. عبد الحليم نور الدين إبريل ٢٠٠٧ م.
- The Egyptian Museum Stela of Hnwt, in: Bulletin of the Egyptian Museum 2, 2005,17-20.
- The statue of Nesptah son of Mentumhat, in: Supplement aux ASAE , Cahier N34,Vol.I , Le Caire 2005,19-24.
- A distinct offering table in the Egyptian Museum, Cairo, in: MDAIK 62, 2006, 1-9.

كليوباترا البطلمية في الثقافة العالمية





محمود محمد كحيلة
مدرس بكلية التربية النوعية
جامعة الزقازيق – جمهورية مصر العربية
m_kahala284@yahoo.com

▪ الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمود محمد كحيلة، كليوباترا البطلمية في الثقافة العالمية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع؛ يونيو ٢٠٠٩. ص ١٤ – ١٨. (www.historicalkan.co.nr)

مُنحت " كليوباترا " من الجمال والفتنة ما لم تفلح عشرات القرون من الزمان أن تمحيه من ذاكرة الإنسانية مهما عرفت من جميلات ، إذ نجحت تلك السيدة الفاتنة بشجاعتها وبسالتها في إبقاء موقعها المتميز على خارطة الثقافة الشعبية على مر التاريخ الإنساني وحتى اليوم في هيئة السلع التجارية الرائجة التي تحمل اسمها والمحال والكيانات الكبيرة التي تنتسب إليها رغم مرور مئات القرون على رحيلها و لم تفلح محاولات أعدائها لمحو ذكراها بإخفاء وتحطيم كل إنجازاتها الثقافية والفنية فلم يعثر لها على أثر يذكر حتى الآن ورغم ذلك تحفظ لها الثقافة الشعبية حقها لأنها تحتفظ بسيرة الموتى الشجعان وتنسى الأحياء الجبناء .

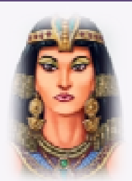
كليوباترا المقصودة بالبحث هي (كليوباترا السابعة) حفيدة بطليموس المقدوني الذي ورث حكم مصر من الإسكندر الأكبر الذي مات عام (٣٢٣) قبل الميلاد . وهي الملكة الأكثر شهرة بين ملكات وملوك البطالمة والعالم ، بسبب ما أحاط بسيرتها العاطفية ومسيرتها التاريخية من سحر وغموض ولدورها التاريخي المتفرد كآخر من حكم مصر من نسل البطالمة المقدونيين وما أعقبه من سيطرة رومانية انتهت بالفتح الإسلامي عام (٢١) هجرية الموافق (٦٤٢) ميلادية أثناء حكم الخليفة عمر بن الخطاب وقيادة عمر بن العاص عقب انتهائه من فتح فلسطين .

ودليل ما حظيت به من مكانة في الثقافة الشعبية العالمية ما كتب عنها من كتابات ومعالجات درامية مسرحية وإذاعية وسينمائية أغلبها غير عربية ولا مصرية اهتم كتابها وصانعيها بتقديم معالجات درامية لسيرة هذه السيدة الأسطورية وهذه المعالجات هي انعكاس لرسوخ هذه الشخصية في الثقافة الشعبية العالمية وفي هذا البحث سنعرض هذا الأثر فقط في المعالجات المسرحية لكتاب من أمكنة وأزمنة مختلفة.

ارتكزت أغلب المعالجات المسرحية على كتابات المؤرخ الإغريقي الشهير " بلوتارخوس " كأول من اهتم من البشر بتدوين التاريخ الإنساني عام ١٢٠م . و كتب عن كليوباترا قائلا [هي أفتن امرأة بين الملكات جميعاً في الشرق والغرب وقد كان هذا أدعى لأن تجتذب حُب اثنين من أشهر رجال العالم العظماء وهما : " يوليوس قيصر " و" مارك أنطونيوس "].

و عن تاريخ مولدها ومختصر سيرتها قال [ولدت كليوباترا سنة ٦٩ ق . م ، وكانت على أن تبنى بأخيها الأصغر وتتولى العرش معه ، فنوزعت في هذه الشركة ففرت إلى سوريا لتعبئ جيش هناك لتستعيد به التاج ، وهناك قابلت " يوليوس قيصر " فوقعت في نفسه فمكنها من العرش شركة مع أصغر أخويها فما لبست أن قتلته مسموماً ، وتبعت قيصر إلى روما فاحتفي بها حفاوة أثارت سخط الرومان وقتل قيصر فترددت فيمن تتبع حتى آل النصر إلى أنطونيوس وأتباعه ، فقدمت له فروض الطاعة فما لبث أن أحبها وفتن بها وضحى في سبيلها بمكانه وكبريائه وأخيراً بملكه ومطامعه وحياته وقضيا الشتاء التالي في الإسكندرية في غرام نسيا فيه كل شيء] .

ويلاحظ أن " بلوتارخوس " في الحديث عن كليوباترا يستخدم قاموساً مختلفاً تماما عن ذلك الذي يستخدمه في كلامه عن روما ، ومثال ذلك قوله [أرادت كليوباترا أن تعيد الكرة مع القيصر الظافر وأن تفعل ما تفعل بأنطونيوس بعد أن أرسلت من يخبر أنطونيوس بانتحارها ، فما كان منه إلا أن انتحر وأرسل من يؤكد لها أن أكتافيوس



سيمعن في إذلالها إذا تمكن منها فانتحرت] . وهذه الكلمات غير البريئة من التحيز كانت هي المصدر الرئيسي لكافة الكتابات والإبداعات المسرحية عن كليوباترا ، التي أراد عدوها القوى المسيطر على العالم آن ذاك أكتافيوس قيصر طمس آثارها آملاً محو ذكرها لكن خاب سعيه وكتب عنها من المسرحيين فقط كتاب فرنسيين وإنجليز ومصريين نصوصاً هي (كليوباترا) للكاتب الفرنسي (إيتين جوديل) مأساة درامية كتبها عام (١٥٥٢)م ، و كتب الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي الشهير " وليم شكسبير " نصان مسرحيان من وحى حكاية كليوباترا وهذان النصان هما [يوليوس قيصر] و [أنطونيوس وكليوباترا] و كتب المسرحي الفرنسي " جان ميريد " مسرحية [مارك أنطوان أو كليوباترا ١٦٣٥] م وكتب بعدها مسرحية [مقتل قيصر ١٦٣٥] م ، وفي إنجلترا كتب عن كليوباترا الشاعر والناقد الأكثر شهرة [جون درا يدن] عام ١٦٧٧م مسرحية تعالج قصة حب أنطونيوس وكليوباترا بعنوان [كل شئ يهون في سبيل الحب أو الدنيا فداء للحب] وكتب المسرحي الإنجليزي " فاليرى " نصاً مسرحياً بعنوان [كليوباترا] عام ١٧٧٥ م ، وكتب الإنجليزي الأيرلندي الأصل " جورج برنارد شو " نصاً مسرحياً عن الملكة الشهيرة وعلاقتها بيوليوس قيصر بعنوان " قيصر وكليوباترا " وعام (١٩٢٩) م كتب أمير الشعراء أحمد شوقي مسرحية عن موت كليوباترا بعنوان (مصرع كليوباترا) وكتب عنها رائد المسرح العربي (توفيق الحكيم) مأساة مسرحية بعنوان (لعبة الموت) ، وكتب عنها أستاذ الأدب اليوناني المصري الجنسية أحمد عتمان نصاً بعنوان (كليوباترا تعشق السلام) ، وكتب المسرحي المصري (سعيد حجاج) مسرحية بعنوان (كليوباترا) ، وأخيراً قدم على مسرح الهناجر بالقاهرة عرضاً حديثاً من عروض التأليف الجماعي في إطار كوميدي بعنوان (كيلوبطة و أنطوريو) وفي إطار التواجد الإلكتروني أنشأ عدد من الأحفاد من جنسيات مختلفة موقع يختص بسيرة كليوباترا السابعة ومسيرتها على الإنترنت بعنوان (امرأة تعنى مصر) ومن محتويات الموقع نصاً مسرحياً وثائقياً يحمل العنوان ذاته (امرأة تعنى مصر).

وأكثر ما يميز هذه الإبداعات المسرحية الكثيرة والمتناثرة هو تباينها لاختلاف الآراء بشأنها فكل يراها برؤيته ويعبر عن اهتمامه بها بطريقته ، وهى عند شكسبير المنحاز لكلام بلوتارخوس مع أنطونيوس تقيم بالإسكندرية العاصمة في حالة إسراف في الحب يعلق عليها الفارس الروماني أنطونيوس لتبرير انسحابه من معركته الأولي ضد مواطنه أكتافيوس بقوله : [ضاع الأمل .. هذه المصرية السوداء قد خانتني .. أسطولي استسلم إلى العدو .. وها هم بحارتي هناك يقذفون قبعاتهم غيظاً في الهواء .. لقد حطمتني خيانة المصرية السوداء الجسم والنفس .. تباً للفاتنة المشئومة التي كانت نظراتها ترسلني إلى الحرب أو تستقبلني في البيت تلك كانت صدرها ملاذي ومنتهى أملي يالها من غجرية خداعة .. جرتني بحيلها ومكائدها إلى العار والدمار] .

كلمات تتنافي مع المنطق ومع ما حدث في الجزء الثاني من المعركة التي كاد أنطونيوس أن ينتصر فيها لولا خيانة بعض قواد جيشه وجنوده من الرومان وانضمامهم إلى مواطنيهم من جيوش أكتافيوس وهى الخيانة التي لم يستطع أنطونيوس تصديقها فمنى بالهزيمة وجاءه خبر انتحار كليوباترا فانتحر حزناً عليها طالباً من أتباعه أن ينقلوه إلى حيث يرقد جثمانها فلما ذهب ووجدها على قيد الحياة حذرها من أكتافيوس الذي جاء لينتقم ومات أنطونيوس وانتحرت كليوباترا عملاً بنصيحته ، وماتت ممددة على فراشها محتفظة بكامل جمالها وروعتها ، ولما وصل أكتافيوس أمر بما يلي: [أكتافيوس: سنتولى دفنها إلى جانب صاحبها أنطونيوس .. لأن ليس في الدنيا من قبر ضم زوجين هكذا لامعين ..أن أحداث هامة كهذه تقضى عادة على صانعيها ، فتحيا قصتهم طويلاً كما المجد الذي حال من نهايتها مأساة أليمة مؤسفة سيرافق جيشنا موكب الجنازة الرسمي حتى روما] .

بعد كل العناء الذي لقية أكتافيوس حتى انتصر في المعركة وببساطة وعلى الرغم مما يحمل من بغض وضغينة لكليوباترا وما يحمله من حقد لأنطونيوس يتعاطف معهما في النهاية وهو الذي قطع كل هذه الأميال للقضاء عليهما ثم يتمادى في الكرم فيأمر بدفنهما معاً لتخليد قصة حبهما ، ولماذا يخلدها إذن إذا كان حقاً يعتبرها وصمة عار في التاريخ الروماني وهى في الوقت نفسه أماً للقيصر ون الذي يعتبر الوريث الشرعي الوحيد لحكم روما والذي كان أهم ما يشغل أكتافيوس هو كيفية التخلص منه ، و أغفل شكسبير عن قصد العلاقة الشهيرة بين كليوباترا ويوليوس قيصر والتي أدت إلى إنجاب " القيصرون " متجنباً التفاصيل التي تحتاج بدورها إلى مبررات ، وفي مسرحية " يوليوس قيصر " تظهر كليوباترا تلميحاً أو تصريحاً برغم أهمية دورها في الفترة الأخيرة من حياة يوليوس قيصر ، وهذا ما تم تداركه في مسرحية يوليوس قيصر وكليوباترا للكاتب الإنجليزي الساخر " جورج برنارد شو " (١٨٥٦-١٩٥٠) والتي تجرى أحداثها في معبد الإله آمون في طيبة ، ويستهل شو نصه الساخر بمشهد خيالي طريف للإله رع يخاطب المشاهدين :

رع: صمتاً .. صمتاً .. اسمعوا وعوا أيتها الأقزام الغريبة .. أعيروني أذناً صاغية ، واعلموا أنى رع (لحظة) أعرف أنكم لا تستطيعون الركوع أو السجود لأنكم محشورون في صفوف تقيد حركتكم وأنا لا أطلب منكم أن تعبدوني .. ولكني آمركم بالسكوت فقد جئت لأعود بكم إلى أكثر من ألفي سنة إلى الوراء ، أيام كان الناس يعبدونني كانت هناك روما القديمة ، كانت فقيرة وصغيرة .. فنهبوا ضعفاء البلاد الأخرى وضموها إليهم حتى تكونت روما الكبيرة .. مترامية الأطراف ، والآن هل تريدون المزيد أم تفضلون النوم بينما يتكلم إله مثلي.

ويحكى شو عن القتال بين "يوليوس قيصر" وغريمه الروماني الذي كان صديقه " بومبيوس " ويعلق الكاتب على صراعهما قائلاً : " كلب يطارد كلب " و ينتهي المشهد الافتتاحي بهذا التصرف المرح الطريف :

رع: .. ثم . ما بقى من القصة يجب أن تشاهدوه بأنفسكم الوداع وإياكم أن تصفقوا لي .. إياكم .. فأنا لا أحب التصفيق.





وكليوباترا في هذه المسرحية فتاة صغيرة السن تختبئ خوفاً خلف أبي الهول تحتمي به من بطش العجوز الشرير الأصلع " يوليوس قيصر " .كانت كليوباترا صغيرة وجميلة وخفيفة الظل فأثارت إعجاب القيصر فأحبها و علمها أصول الحكم فكانت تطبق ما تتعلمه على خادمتها " فاتتيا " التي كانت في السابق تخشاها ، ويحدثها يوليوس قيصر كثيراً عن أنطونيوس الشاب الماجن مما دفعها إلى الإعجاب به لأن القيصر الذي كان أقرب ما يكون عندها إلى إله ، وعندما استعد القيصر لمغادرة الشرق إذا بحراس كليوباترا يتقدمون نحو الميناء ويحملون سجادة مصرية بديعة الصنع والمنظر ملفوفة بحزم وحذق ومهارة ، هدية من ملكة مصر إلى القائد الروماني العظيم ، و يفردها ليشاهدها فإذا بها كليوباترا الملكة الصغيرة المرحة .. جاءت تودع القيصر محبة وشاكرة ، ويودعها بدوره مؤكداً بأنه لابد أن يرسل لها أنطونيوس الذي يراه أجدر الناس بها ، وأهم ما يميز معالجة برناردشو السخرية اللاذعة والمرحة والمعارضة لرؤية مواطنه وليم شكسبير بالإضافة إلى التجديد وإعادة صناعة الشخصيات برؤية حديثة ومحايدة ومتفتحة .

أمير الشعراء أحمد شوقي (١٨٨٦-١٩٣٢)م كتب النص "مصرع كليوباترا " عام ١٩٢٩م بنية المبادرة إلى الإسهام في إنشاء مسرح شعري عربي وكذلك الدفاع عن كليوباترا كمظهر من مظاهر الوطنية التي كان معارضوه يقولون أنه غير عابئ بها ، و ذلك باعتبارها رمزاً قومياً ، و بدأ أحداث النص المسرحي بافتتاحية تجمع بين "أوروس" العبد المطيع والخادم المخلص لأنطونيوس يتحدث مع "أوليمبوس " الطبيب الروماني ويشكو كل منهما للآخر حزنه البالغ بسبب سوء أحوال سيدهما " أنطونيوس " وعدم اكتراثه للإستدعاءات المتلاحقة التي تأتي من روما التي تكاد بإهماله لها أن تضيع ، وفي المشهد التالي تستعرض كليوباترا المكتبة وتقابل" أنوبيس "كبير الكهان و يخبرها باكتشاف رائع لسموم إحدى الحيات التي تميت من يتناولها ميتة سريعة مباغتة وبلا ألم .

وفي باقي مشاهد النص يعرض شوقي إعلان " قيصرون " الوريث الشرعي للقيصر الراحل ، ملكاً للبلاد وهو ما دفع " أكتافيوس " إلى إعلان الحرب ضد مصر ، ويستقبل أنطونيوس ذلك باستخفاف ، فهو أمير المعارك والعالم كله يشهد بذلك . وتبدأ المعركة وتدور دائرة (أكتيوم البحرية) وتنسحب كليوباترا وتعلل ذلك بجنوحها إلى إنقاذ ما تحمله في سفينتها من ذهب وأموال وثروات آثرت الحفاظ عليها للكّرة التالية ، ويقتنع أنطونيوس وتأتي المعركة الفاصلة و تنتهي بهزيمة أنطونيوس وفراره مع تابعه أوروس في الصحراء في مشهد لن يكتب كما أبدعه أحمد شوقي ..

أنطونيوس:

أوروس إني جُهدت مشياً ... ومسني الضر والكلال
فهل بنا نستريح قليلاً ... من قبل أن يدهم

الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكاً فتأخذه الذكرى]

أوروس ماذا دهاني ... حتى نسيت مكاني
أتيت ما هد مجدي ... وحط رفعة شاني
جللت نفسي بعار ... يبقى بقاء الزمان
لما حملت جوادي ... على الفرار ازدراني

وضج منى سيفي ... وضج منى سناني
وودت الأرض تحتي ... لو طهرت من عياني
أنا الذي كان أمضى ... من الحديد جناني
الشرق يدرى نزالي ... والغرب يدرى طعاني
كان الملوك عبيدي ... فصرت عبد الحسان

وبعد نهاية حديثه يواسيه تابعه المخلص قائلاً:

أوروس :

وقارك قيصر لا تجزعن ... وخل المقادير تجر المدى
تلق الهزيمة ثبت الجنان ... كما كنت تلقى الفتوح العلى
فما أنت أول نجم أضاء ... ولا أنت آخر نجم خبا
وقد تنزل شمس بعد الصعود ... وتسقم بعد اعتلال الضحى
رأيتك والحرب تبلو الكماه ... فأشهد كُنت إلـه الوغى

ثم يطلب أنطونيوس من أوروس والذي سبق وأقسم ألا يعصى لسيده حتى آخر العمر أمراً أن يقتله ويحتال أوروس كي لا يعصى سيده فيقتل نفسه فيعلق أنطونيوس على ذلك فيقول:

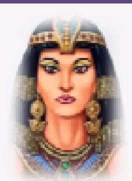
رأيت منى كيف يجبن قيصر ... ورأيت منك العبد كيف يموت

ترك أمير الشعراء الحوادث تجرى كما تواترت دون أن يتدخل فيضع لها ما يبررها دراميا ، وتأثر كثيراً في معالجته " لمصرع كليوباترا " بمسرحية شكسبير سابقة الذكر " أنطونيوس وكليوباترا " مع التركيز على أحداث مصرعها .

ولما كانت "لعبة الموت" هي النقطة التي انطلق منها توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧) م في كتابته المسرحية عن كليوباترا والتي عالجها بشكل مغاير ومكان وزمان مختلفان حيث جرت أحداثها في جناح فاخر بفندق من الفنادق والبطل أو الشخصية الأولى والمحورية مؤرخ في الخمسين عمره يجلس في الجناح المذكور وأمامه جهاز يسجل عليه بيانات هامة كقرائن وأدلة على الجريمة التي ستدبر لقتله كالتالي ..

الرجل: (لجهاز التسجيل) لا داعي لذكر اسمي .. في أوراقي كل ما يثبت شخصيتي .. لن أسجل هنا غير الحوادث التي ستجرى أمامكم خلال الأشهر الثلاثة أو الأربعة التي بقيت لي في الحياة وهذا أمر مقطوع به بالطبع .. في أوراقي أيضاً كل تقارير الأطباء . وهى لا تقبل الشك .. الإشعاع الذرى أصابني إصابة قاتلة .. الاختلاف هو على تاريخ الوفاة .





الموت المنتظر حلقة واحدة في سلسلة المعاناة النفسية لهذا الرجل التي بدأت بفقد ابنه الوحيد في الحرب ثم وفاة زوجه حزناً علي الابن وبالمرض قرر أن يتخلص من الحياة في أسرع وقت ، مستثمراً أطماع البشر التي دفعتهم لاختراع الأسلحة النووية والذرية ، ولأنه كمؤرخ كان شديد الاهتمام بشخصية كليوباترا التي قدم عنها أبحاث ونال عن دراستها درجات عظيمة وربح أموالاً وفيرة . لفتت انتباهه فتاة جميلة رقيقة تدعى كليوباترا ، تقدم رقصة باسمها في أحد الملاهي الليلية المتواضعة ، ألقى قنبلة في حياتها عندما أسلمها وصية موثقة تؤول بمقتضاها كل ممتلكاته إليها بشرط وفاته.

يرتسم الذهول والدهشة على وجه الفتاة التي يعجز عقلها البسيط عن استيعاب أي شيء يتعلق بحقيقة ما حدث وهى التي كانت تعتقد أن الرجل استدعاها للفندق الفخم لرغبة أو نزوة عابرة لا وصية يتنازل بها عن ثروته بلا سبب معقول أو مقابل شرعي أو غير شرعي ، ويحاول إقناعها بما يلي:

المؤرخ : السبب هو اسمك .

كليوباترا: أسمي ؟؟.

المؤرخ : اسم "كليوباترا" إنه عاش معي طوال حياتي لقد أرقني الليل تحت مصابيح الدرس وشردني في بلاد العالم بحثاً عن الوثائق ، وكلل هامتي بالنصر يوم أذعت معلوماتي ، ودر عليا ربحاً كون لي الثروة بعد أن نشرت كتابي ، إن المال الذي جاءني من كليوباترا يجب أن أتركه بعد موتى لكليوباترا .. ألا تجدين هذا سبباً كافياً.

وتنصرف الفتاة وفي حقيبتها الوصية فيجلس الرجل إلى جهازه ويسجل ما معناه أنها وأهلها سيدبرون الآن مؤامرة للتخلص منه بالقتل ليحصلوا على الوصية ، وبعد ذلك يختفي المؤرخ عامداً من حياة كليوباترا فتأتي لزيارته بحجة إطلاعه على الإضافات التي إضافتها لرقصتها الفرعونية لاسيما الجزء الخاص بالثعبان وبريبة وشك يتعامل الرجل مع كل ما يصدر من الفتاة ويسجل انطباعاته في الوقت الذي ينفرد فيه بنفسه ويسجل بعد انصرافها باقي ملاحظاته وهى أنها جاءت لوضع الثعبان السام في حجرته لقتله بتلك الطريقة البسيطة المقتبسة ونلمح أنه على الرغم من رغبته في الموت يدفعه الخوف إلى فتح شباك الحجرة للهرب خوفاً من الثعبان.

وتطرق الفتاة باب الحجرة فيظنها جاءت للتأكد من موته فيتضح أنها جاءت لدعوته لحضور عيد ميلادها وتتمنى وجوده فيفترض أنها تستدرجه ليقتله فتاها لاعب السيرك بسيوفه وخناجره التي سيودعها في صدره بطريق الخطأ ليخلصه من الآلام التي تزداد بمرور الوقت.



المؤرخ: إني جاد .. موضوع عملنا واحد .. هي تلك المرأة وما قمت به أنا وغيري من المؤرخين من عرض تاريخها مشكوك في صحته .. أما ما تقومين به أنت وغيرك من الراقصات من عرض جسدها .. فمن الذي يستطيع له تكذيباً.

ويمرض فتسهر على تمريضه ، ويسألها عن سبب اهتمامها به فتلمح له عن مشاعر حب فيواجهها بأنه لا يرى أي علاقة لما يحدث بالحب وأن الحب شعور سامي ونقى وبرئ وإنها ليست مضطرة إلى إضافة جريمة الكذب إلى جرائمها معه ، ويواجهها بعلاقتها بفتى السيرك " أنطونيوس" فتقول:

كليوباترا: نعم يوليوس قيصر .. هو الرجل الذي كان آخر من كان يجب أن يحتل قلب كليوباترا .

المؤرخ: ولكنه جاء في الأول .. الاعتبارات هنا زمنية .

كليوباترا: القلوب لا تدق مع الساعات .. كان يجب أن يقف قلبها بعده عن الحب.

المؤرخ : ويقف التاريخ.

كليوباترا: لا شأن لي بالتاريخ .. إني أتكلم عن قلب امرأة .. القلب الذي فتح من قبل لقيصر .. ما كان يجوز أن يفتح بعد ذلك لأنطونيوس.

المؤرخ: قلب كليوباترا .. مفتوح دائماً للفاتحين .

كليوباترا: (بغضب مفاجئ) أي كليوباترا تقصد .

المؤرخ: كليوباترا القديمة . ألسنا الآن في جلسة نقد للتاريخ.

وأخيراً يعترف للفتاة بما كان من سوء ظنه بها ويرجوها أن تقبل اعتذاره فتفعل وتقرر أن تسانده مؤكدة له أن هناك حقيقة هامة لا يجب أن ينساها وهى أن أعمار البشر لا يحددها الأطباء وأنه يجب أن يبحث عن علاج للمرض في أي مكان فوق سطح الأرض .. خصوصاً أنه يملك مع المال والحب الذي يمنح الإنسان مزيداً من الأمل في الحياة والرغبة في التشبث بها.

استطاع الحكيم بمعالجته الفريدة أن يفسح المجال للخيال وأن ينبه إلى ضرورة تأمل المعلومات التاريخية والتحري عن المصدر لأن كل ما صنعه بشر قابل للتعديل والتبديل والتغيير وهذا ما اقره عملياً أحد أهم علماء التاريخ اليوناني وهو. "د. أحمد عتمان" الذي كتب عن كليوباترا مسرحية تاريخية في قالب عصري بعنوان (كليوباترا تعشق السلام) وتجرى أحداثها في منزل مؤلف يستضيف مخرج في جلسة عمل الغرض منها إعداد نص مسرحي عن كليوباترا و يقترح المخرج استدعاء الممثلة التي ستشخص دور الملكة ليعرض عليها مسبقاً ، و يقرر ثلاثتهم أن النقطة المثلي للانطلاق في العمل هي هزيمة أكتيوم البحرية عندما انسحبت كليوباترا فحزن أنطونيوس وعزل نفسه في قصر بالإسكندرية كانت الملكة قد أعدته خصيصاً من أجله ، ويرفض مقابلة أي شخص حتى الملكة التي تستسلم للهزيمة وتذهب سراً لمفاوضة "مالك " صاحب دولة العرب المجاورة و " هيرود " ملك اليهود ويرفض كلٌ منهما معاونتها ويعلم أنطونيوس بذلك من رسالة سرية تصله من " هيرود " فيتوعد " كليوباترا " ويزداد حنقاً عندما يأتيه من يخطره بأنها أعطت قصراً هدية لملك اليهود وأنها تقيم معه فيه وأن حامل هذا الخبر اللعين موجود بالخارج مصر على لقاءه فيأمر به على الفور فتدخل كليوباترا و تصالحه ويقضيا معاً أوقاتاً جميلة ، يعقبها

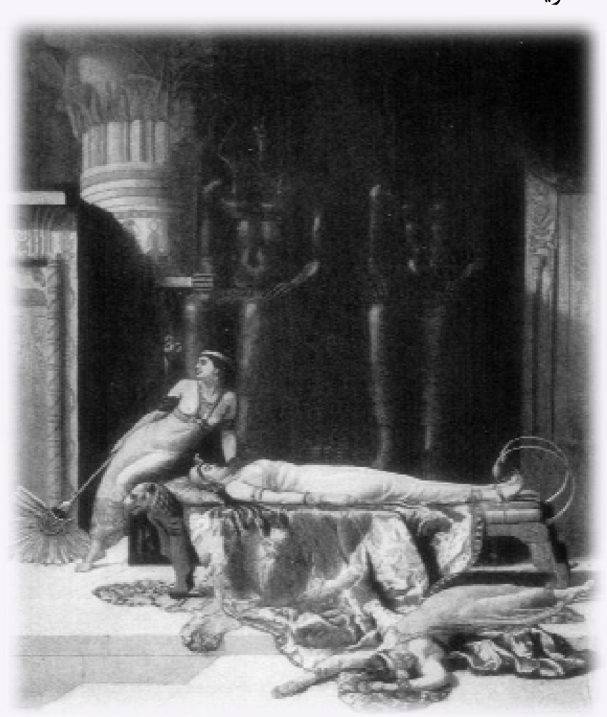


قرارهما الخطير بخوض المعركة الكبرى ضد روما ، وتبدأ المعركة ويهزما فينتحرا بعد أن تعطى كليوباترا أولادها لملك العرب وبعد أن تواجه خيانة من " بوثينوس " الخازن المخلص كما كانت تظن وأقرب الرجال إليها الذي صاح أمام أكتافيوس قائلاً : الملكة تكذب .. أنها تخفي النفائس في قبرها.

ولا تملك الملكة أمام تلك الخيانة الرهيبة إلا أن تعتذر لأكتافيوس الذي جعلها د.عتمان على عكس ما طرح من قبل تقابله مؤكدةً أن ما حدث من قبيل العادات والتقاليد الراسخة أن تحتفظ ببعض الأموال في قبرها لكي ترتكن إليها في حياتها الأخرى عند البعث . وينتهي النص الذي طوع الكاتب أحداثه للتعبير عن محن ومعارك عصرية حتى انتهى بالحقيقة التاريخية الوحيدة المؤكدة من وجهة نظره كعالم في التاريخ وهى موت الملكة كليوباترا التي لا زال ذكرها يؤرق المتأملين لا سيما اليوم حيث تشابهت ظروفنا السياسية من حيث انفراد قوة واحدة رئيسية بسيادة العالم بعد اعتبار اختلاف معيار القوة من عضلية حربية إلى اقتصادية تكنولوجية.

يجب التنويه في هذا المقام إلى وجود كتابات أخرى بعنوان كليوباترا من حيث الاسم لا المضمون مثل (كليوباترا) المسرحي المصري سعيد حجاج التي يتحدث فيها عن كليوباترا السجائر التي تؤدى لتدمير صحة المواطنين وفي هذه الهزلية المسرحية تستدعى كليوباترا وتستدعى نفرتيتي ويتم التحاور عن التدخين بأنواعه وأقسامه وأشكاله و كيفية الإقلاع عنه ونلتقط من ذلك مظهر جديد من مظاهر تمكن هذه الشخصية من الثقافة المصرية الشعبية بثبات أسمها على عدد من عبوات السجائر الأكثر بيعاً وأ في حين يختفي نظائرها ولو كان يحمل أسماء فرعونية مثل نفرتيتي وغيرها.

التجربة الجديدة والعصرية شكلاً ومضموناً هي كيلوبطة وأنطوريو وهى من أعمال التأليف الجماعي التي يتحمل عبء صياغتها مسرحياً جميع المشاركين فيها . وكانت عبارة عن معالجة خيالية كوميدية لتلك الأحداث التاريخية مع توظيف الملابس والديكور والإكسسوار وجميع عناصر العرض لتوصيل هذه الرؤية التاريخية العصرية.



هذه الجولة السريعة في رحاب التاريخ الفرعوني القديم عند واحة كليوباترا العظيمة كما أطلق عليها " سليم حسن " في موسوعة مصر القديمة و انعكاس ذلك على إبداع المفكرين المسرحيين من أنحاء العالم ومعالجاتهم الدرامية لهذه المفارقة التاريخية ذات الحضور في الثقافة الشعبية يدفعنا إلى استخلاص سيرة أقرب إلى المنطقية منها إلى الآراء المتباينة وغير المنطقية التي أحاطت بهذه المرأة صاحبة الشخصية الأسطورية "كليوباترا" التي لا زالت في ثقافتنا الشعبية نموذج للحب الإنساني الذي يدفع صاحبه إلى التضحية في سبيله بالسلطة والجاه والمجد والحياة.

المراجع

- أحمد شوقي بك ، مصرع كليوباترا (مسرحية)،مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٢٩م.
- أحمد عتمان (دكتور)، كليوباترا تعشق السلام (مسرحية).
- أحمد عتمان(دكتور)، كليوباترا بين بلوتارخس و شكسبير و أحمد شوقي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠.
- الارديانس نيكول ، المسرحية العالمية " الجزء الثاني ".
- توفيق الحكيم ،لعبة الموت (مسرحية).
- جمال الدين سالم ، قصص الملوك الفراعنة.
- دلاس بروكرى ، عندما دخلوا التاريخ.
- سعيد حجاج ، كليوباترا (مسرحية).
- سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، الجزء السابع عشر ، هيئة الكتاب- مصر.
- مجلة تياترو٩٢ ، العدد الثاني ، أغسطس ١٩٩٢.
- محمد إبراهيم بكر (دكتور)، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة ، هيئة الكتاب- مصر.
- محمود كحيلة ، مسرحية كليوباترا الأخرى.
- وليم شكسبير ، أنطونيوس وكيلوباترا (مسرحية).
- وليم شكسبير ، يوليوس قيصر (مسرحية).



من مقالات الأستاذ محمود كحيلة:

- الفرعون الأخير" رجل القلعة"
- الرملي والبكوات وموسم الحصاد المسرحي
- الجامعة تشتبك مع الأدب
- كليوباترا في عيون المسرحيين
- تمثيلية الأزهر وقضية حمادة باشا



المجاعـــات والأوبئـــة بتلمـــــسان

في العهد الزياني

(٦٩٨-٨٤٥هـ/١٢٩٩-١٤٤٢م)

د.خالد بلعربي
قسم التاريخ
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس – الجزائر
belarbi.tlemcen@yahoo.fr

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
خالـد بلعربـي ، المجاعـات والأوبئـة بتلمسـان فـي العهـد الزيـاني.- دوريـة كـان التاريخيـة.- العـدد الرابـع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص ١٩ – ٢٩. (www.historicalkan.co.nr).

Famines and Epidemics in Tlemcen During The Zayani Era



يحفل التاريخ الزياني الاجتماعي بمجموعة من التغيرات والانعطافات الحاسمة التي ظلت بقعة من بقع التاريخ المنسي ، فعلى الرغم من تصاعد الدراسات الكثيرة حول هذا التاريخ خلال هذين العقدين الأخيرين ، لا تزال بعض القضايا الخاصة بهذا التاريخ بعيدة عن مناطق الضوء ، و من هذا القبيل ظاهرتي المجاعات والأوبئة اللتان كانتا بمثابة لعنة عانى منها المجتمع التلمساني* خلال حكم بني زيان لبلاد المغرب الأوسط ، ولئن تمكنت أوروبا من قطع أشواط بعيدة في دراسة هاتين الظاهرتين نظرا لما توفر لديها من وثائق محفوظة ، فإن دراستها في الجزائر لم تحظ بالتفاتة علمية تذكر في الدراسات التاريخية الحديثة ، باستثناء بعض الإشارات الخفيفة عنهما أثناء الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية بصفة عامة.

ينهض دليلا على ذلك ما كتبه الدكتور عبد العزيز فيلالي حول "تلمسان في العهد الزياني"[1] ، و ما كتبه الدكتور الحساني مختار حول "الأوضاع الإقتصادية و الإجتماعية في الدولة الزيانية"[2] قد يفسر هذا الإقصاء من دائرة اهتمامات المؤرخين الجزائريين بشح المادة التاريخية في المقام الأول ذلك أن المصادر التاريخية الزيانية ضربت صفحا عن ذكر الأخبار المتعلقة بالأوبئة و المجاعات باستثناء إشارات شاحبة وردت بكيفية عفوية في بعض هذه المصادر ، كما أن معظم الروايات والشواهد التاريخية طواها الزمن أو تم إتلافها في خضم الصراعات الدموية التي اندلعت بين مختلف القوى السياسية ، أو تعرضت للضياع نتيجة خطة إدارية تسعى إلى حفظ الوثائق وصيانتها ، وقد يكون إغفال المؤرخين لهذا الأمر ، راجع إلى كون الناس كما يقول بعض الباحثين "تدفن في ذكرتها الأكثر ظلاما هذه المآسي اليومية ، وأولئك الذين ساهموا فيها ، ألا يسردوا على أولادهم و لا على أنفسهم ، إلى ما هو جدير بأن يكون"[3] .

تأسيسا لهذه الملاحظات المصدرية سنحاول تناول ظاهرتي المجاعات والأوبئة بتلمسان خلال العهد الزياني في الفترة الممتدة من (٦٩٨-٨٤٥هـ/١٢٩٩-١٤٤٢م) محاولين تعقب الأسئلة التالية :

- ما هل كانت المجاعات والأوبئة كوارث من صنع الطبيعة أم الإنسان ؟
- ما هي المجاعات و الأوبئة التي اعترضت تلمسان الزيانية خلال هذه الفترة ؟
- ما هي النتائج التي تمخضت عن هذه الكوارث ؟

للإشارة ، فإن قصدي من دراسة المجاعات والأوبئة ، ليس دراسة العلاقة السببية بين الكارثتين ، إنما إلقاء الضوء على أخطر الكوارث التي هددت المجتمع التلمساني في عهد بني زيان بالبقاء ، و إن كانت هناك علاقة سببية بين الظاهرتين ، فهي ليست حتمية ، إذ كثيرا ما أشارت بعض المصادر إلى حدوث مجاعات دون أن تعقبها أوبئة ، كما أشارت إلى أوبئة دون أن تسبقها مجاعات.

ولا بد لنا قبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع ،من تحديد مفهوم مصطلحي المجاعات والأوبئة التي سيتردد ذكرهما كثيرا في هذه الدراسة .

جاء في لسان العرب "الجوع اسم للمخمصة ، و هو نقيض الشبع والفعل جاع يجوع جوعا (...) والمجاعة : عام الجوع"[4] ، و في جمهرة اللغة "الجوع ضد الشبع و يقال رجل جائع و جوعان"[5] و في المحيط "المجاعة سنة الجذب التي يذكر فيها الجوع"[6].

ويظهر من هذه التعريفات أن المجاعة تعني الفرد و تعني المجموعة ، إلا أن موضوع بحثنا يهتم بالمجاعة التي تنهار فيها كلية مقدرة الجماعة على الوصول إلى الغذاء ، و تحدث الموت الجماعي ، وقد جاء ذكرها في المصادر بأسماء متعددة منها : الجدب[7] ، المحل[8] ، المسغبة[9] ، القحط[10]. أما الوباء[11] (جمع أوبئة) ، فهو كل مرض عام ، يحدث بصورة سريعة ، و يصيب أعدادا هائلة من جميع الأعمار والأجناس.

١- دور الطبيعة و الإنسان في حدوث المجاعات والأوبئة:

شكلت المجاعات و الأوبئة خطرا حقيقيا على حياة سكان تلمسان خلال العهد الزياني ، حيث ظلت تهددهم بالفناء ، لذلك لم يستطع الإخباريون إسقاط هاتين الكارثتين من ذاكرة التاريخ ، ذلك أن النتائج التي تمخضت عنها ساهمت في تكوين جزء كبير من مصير الأحداث التي اعتنوا برصدها ، و بالبحث عن أسباب حدوث المجاعات والأوبئة ، نكشف عن وجود نوعين من الأسباب ، طبيعية و بشرية تتفاعل كل واحدة مع الأخرى بدرجات متفاوتة في حدوث هاتين الكارثتين ، فمن بين الأسباب الطبيعية نذكر الجفاف الذي كان من الظواهر المألوفة في بلاد المغرب الأوسط ، إذ كان ينجم عن عدم تساقط الأمطار خلال موعدها المحدد إلا أن سنة واحدة من الجفاف ، نادرا ما كانت تنجم عنها المجاعة ، لأن الناس تعودوا مواجهة الجفاف بما يدّخرونه من أقوات ، أما إذا توالت سنتان من الجفاف ، فإن ذلك كان يؤدي إلى وقع إلى المجاعة كما حدث عام (٣٠٣-٣٠٥هـ) و عام (٧٧٦-٧٧٨هـ) ، و إذا استمر الجفاف ثلاث سنوات فتلك لا محالة هي الكارثة ، إذ كانت تنفذ المؤن و المدخرات ، وترتفع الأسعار ، و قد تنبه ابن خلدون إلى هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله "فطبيعة العالم في كثرة الأمطار و قلتها مختلفة ، و المطر يقوئ و يضعف و يقل و يكثر و الزرع و الثمار و الضرع على نسبته ، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع..."[12] .

كما كانت العواصف البردية القوية التي كانت تحدث في آخر كل خريف خلال فصل الشتاء تتسبب في إتلاف المحاصيل الزراعية وقتل البهائم والبشر ، كما حدث عام (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، حيث "كانت الريح الشرقية بالمغرب دامت ستة أشهر فاعقبها الوباء العظيم والأمراض الكثيرة"[13] ، و كانت بلاد المغرب الأوسط تتعرض كذلك إلى الفيضانات الناجمة عن الأمطار الغزيرة ، فكانت تؤدي إلى منع الحرث و البذر ، و إتلاف المحاصيل الزراعية و من هذه المطار تلك هطلت على أبي القاسم الفاطمي وفرضت عليه إقامة شهرا متواصلا في سوق إبراهيم عام (٣١٥هـ/٩٩٧م)[14] ، و تزخر كتب النوازل الفقهية بإشارات حول تضرر الفلاحين من هذه التساقطات الزائدة عن الحاجة فمثلا "سئل القاضي أبو عبد الله بن علاف عن رجل اكترى من رجل موضعا ، فأتى السيل و دخل عليسه و حمل منه نحو الثلث وتعطل من غلته كذلك"[15] ، ولم تقتصر خطورة عدم انتظام التساقطات هذه في ما تحدثه من سيول بل في تهيئتها الأرضية لتفشي الأوبئة ذلك أن سقوط المطار بعد فترة من الجفاف ، أو في غير موعدها يؤدي إلى ظهور بعض الأوبئة ، وفي هذا الشأن يذكر حسن الوزان "أنهت فقي بعض السنين ينزل المطر في شهر يوليو ، فيفسد الجو كثيرا ، و تنشأ عنه حمى حادة تشتد على أكثر الناس و لا ينجو منها إلا القليل"[16] ، وقد

كانت العواصف القوية المصحوبة بالبرد والثلوج و الجلود تؤثر على الزرع و تفسد غلاته ، وتعيق نمو الخضر و الفواكه ، و تؤدي إلى إتلافها ، فقد ذكر ابن مرزوق أن تلمسان كانت أشد بلاد المغرب الأوسط برداو تجلدا[17] ،و كانت الرياح القوية خاصة تلك القادمة من الجنوب تؤدي إلى إحراق المحاصيل الزراعية و حدوث المجاعة كما حدث عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م حيث أن المجاعة حدثت نتيجة إعصار عظيم ألم بسكان تلمسان[18] .

هذا وقد كانت الآفات الحشرية تتسبب هي الأخرى في حدوث مجاعات ، و منها الجراد الذي ظل يكتسح بلاد المغرب الأقصى بشكل مستمر ، و الذي كان لا يترك وراءه إلا الأغصان اليابسة ، وقد ذكر علماء الزراعة و الأغذية أن أخطر أنواع الجراد ، الجراد الصحراوي ، الذي ينتشر أفقيا من الهند إلى المغرب ، و عموديا من سواحل البحر المتوسط إلى خط الاستواء ، و غالبا ما ينتشر في شمال إفريقيا خلال فصل الربيع[19] . و في إحدى رسائل الأمير علي بن يوسف (٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٦-١١٤٣م) يصف الدمار و الخراب الذي يخلفه الجراد ، بما يلي "إن الجراد داء عضال ، و إن كان كما يقول - من البحر نشره فإنما هو جمرة تحرق البلاد ، و تجيع العباد و شأنها الفساد (...) ينزل بالوادي ، قد امتلأ عشبا ، و طلعت أزهاره شهبا (...)" فيتركه جمرة سوداء ، لا يجد فيها الضب عرادا و لا النبت أراكا و لا قتادا..."[20]

وقد داهم الجراد بلاد المغرب سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٨م فأتى على المحاصيل بجميع أنواعها ، فارتفع القمح ومختلف المواد الغذائية[21] ، وتكرر قدومه سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م فعمت المجاعة بسببه بلاد المغرب الإسلامي ، فانعدمت فيه الأقوات ، و نقصت الغلات ، و قلت مردودية الأرض ، و ذهب معظم الإنتاج ، فتضرر الإنسان والحيوان معا ، وقد وصف ابن الخطيب هذه الكارثة بقوله "عظم الجفاف ، و عصفت الريح الرجف ، تنقل الهضب قبل ارتداء الطرف ، و تبدا أعيان الأرض ، وتعاجل حلاق لمم النبت ، فصيرت وجه الأرض كمطارح خبث الحديد أما مضارب البيد ، ييسا و قحلا ، و عقرا للأرجل وعصيانا على السنابك ، و أحرقت ما كان قد نجم من باكر البذر و نشط النبات ودامت ، فاستأصلت الأوراق من الشجر الدهين ، الذي لا يسقط ونشفت البشرات و أثنيت الجلود"[22].

أما الأسباب البشرية المسببة لحدوث المجاعات والأوبئة فمنها الحروب و الفتن التي شكلت سمة أساسية من سمات العصر الوسيط ، إذ لا تكاد الحروب تنتهي حتى تتصاعد من جديد مخلفة وراءها الخراب و الدمار والجوع. يذكر ابن هيدور "أن الغلا لحدوثه سببان إما احتباس المطر في البلاد المحتاجة إليه ، و إنما لظهور الفتن و الحروب بسبب الخروج على الملوك ، فإذا دامت الفتنة وقع الفساد في الحواضر والبوادي ، وفسدت حبوبها المختزنة ، و انقطعت الطرق و عدمت المرافق لأجل ذلك"[23] ، إن الاضطرابات بصفة عامة ، تؤثر سلبا على المنظومة الإنتاجية في شموليتها ، وذلك بتهديدها للوجود الإنسان ، و ما يتبع ذلك من خراب المعامل ، و تقلص المساحة المزروعة ، و تدمير حياة الاستقرار ، ناهيك عن استنزافها لجزء مهم من المؤن و الأقوات ، إلا أن الجانب الأخطر لهذه الحروب والفتن ، هو زعزعتها للنشاط الفلاحي يذكر أحد الباحثين "عندما لا تصبح الحقول طوال سنوات متعددة سوى مسرح للمعارك ، أو مجرد ممر لعبور وحدات المحاربين ، التي تعيش من المنطقة وتمارس فيها سياسة الأرض المحروقة ، فإن الأمر ينتهي بالفلاحين إلى الانصراف عن الاهتمام بمزروعاتهم أو إلى عدم الاهتمام إلا بالحد الأدنى الذي يكفيهم للغذاء"[24] . و هناك عدة أمثلة عن الدمار التي كانت تخلفه الاضطرابات ، من ذلك يصف ابن أبي زرع الفاسي حملة التي قام بها السلطان المريني أبي يعقوب على تلمسان سنة ٦٧٠هـ ، و قيام قبائل بني توجين التي كانت مناوئة للسلطة الزيانية باستغلال الفرصة ، حيث راحت تعمل التخريب بجهات تلمسان "... فقطعوا الثمار ، ونسفوا الآبار ، و خربوا الربوع ، و أفسدوا الزروع ، ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة و الدوم..."[25] .

و في إحدى حملات السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب (٧١٠-٧٣١هـ) و التي جاءت على إثر سوء العلاقة بينه و بين السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨هـ) ، فحين استعصت تلمسان على أبي سعيد سير الحملات إلى نواحيها" ... و غلب أبو سعيد على معاقلها و رعاياها ، و سائر ضواحيها إلى تخزين ما لديهم من أقوات و الامتناع عن عرضها في الأسواق ، الشيء الذي كان يصعد من موجة الغلاء يقول ابن خلدون "أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع"[27] ، كما كانت الضرائب غير الشرعية ، إحدى العوامل التي ساهمت في إفقار قطاع واسع من المجتمع التلمساني ذلك أن الدولة الزيانية كانت تفرض ضرائب ثقيلة و متنوعة لحاجتها المتزايدة إلى الأموال تهيئة للجيوش واستعدادا للحروب[28] .

كانت الزراعة أكثر القطاعات تضررا من السياسة الجبائية ، لأنها قوام الحياة بالمغرب الأوسط ، و قد عكست النوازل الفقهية الدور الخطير الذي لعبته هذه السياسة في توجيه الزراعة ، لقد كانت السياسة الجبائية التي فرضها بعض سلاطين بني زيان كارثة على الفلاحين حيث أرغموهم على دفع الضرائب لتعزيز شركة الدولة ، وقد أفقد هذا الوضع المزارعين كل حافز للعمل والإنتاج ، حيث اضطروا إلى هجر أراضيهم ، كما عمد بعضهم إلى تقليص مساحة الإنتاج التي يملكها بتقطيع أشجارها ، ونتف زروعها[29] ، و يمكننا أن نستنتج ثقل هذه الضرائب من خلال المغارم التي ألغاها السلطان المريني أبو الحسن على بن عثمان (٧٣١-٧٥٢هـ) عقب حملته الناجحة على تلمسان ، و تمكنه من احتلالها سنة ٧٣٧هـ "ورفع فيها (أي تلمسان) من المغارم ما كان شائعا خسيسا ، و يجتمع فيه أموال المغرم على الحطب و الدجاج و البيض و التبن و سائر المرافق التي يفتقر إليها القوي و الضعيف... و رفع فيها أيضا تضعيف المخازن في الاختفاء... و مما رفع رضي الله عنه وظيفة مغرم الماء ، و كان سقي الجنات يضطر فيه المغرم للبراءة ولصاحب الحوز و الحراس و يجري من المصائب والخسارات و الغبن ما لا يدخل تحت حصر ... و أسقط عن أحواز تلمسان و ما اشتمل عليه المغرب الأوسط من الحوادث و الظلمات ما يضاعف به الله الحسنات ويرفع له الدرجات"[30] ، كما جاء في مدح السلطان الزياني أبي تشفين بن أبي حمو أنه "...رفع عن العامة مبتدع الوظائف"[31] ، يتضح أن السياسة الضريبية لم تكن تراعي الضرورات الاقتصادية و الإنتاجية و مستوى الحياة الاجتماعية ، و في ظل اقتصاد معيشي مهدد بالكوارث الطبيعية كان أدنى تراجع في الإنتاج ، يدفع المجتمع إلى وهدة المجاعة ، لذلك رأى ابن خلدون أن المجاعات ترتبط "... بقبض الناس أيديهم على الفلح على الأكثر بسبب ما يقع في أواخر الدولة من العدوان على الأموال والجبايات"[32].

وبالتالي يمكن القول أن دور الطبيعة و الإنسان كان حاسما في حدوث المجاعات والأوبئة بتلمسان خلال العهد الزياني ، فإذا كان بإمكانه الاحتياط من الكوارث الطبيعية بفعل تعوده عليها عبر وسائل متعددة ، فإنه ظل عاجزا عن مواجهة الاضطرابات ، مما كان يحطم كل شروط الاستقرار و يهيئ بالتالي الأرضية لظهور المجاعات.

٢- المجاعات والأوبئة وتأثيرها على المجتمع :

أ- المجاعات:

مجاعة ٦٩٨-٧٠٦هـ/١٢٩٩-١٣٠٦م

كانت تلمسان معرضة كثيرا لمخاطر الجوع بفعل الحصار الذي فرضها عليها المرينيون في كثير من الأوقات ، و الذي كان من أنجح الوسائل الحربية و تزخر المصادر التاريخية بأمثلة لهذه المجاعات التي تعود أسبابها لهذا النوع من الخطط الحربية. و في نهاية القرن السابع الهجري عرفت تلمسان مجاعة شديدة بسبب الحصار الطويل الذي فرضه السلطان أبو يعقوب يوسف المريني عليها ، بدأ تنفيذ هذا الحصار يوم ٢شعبان ٦٩٨هـ/١٢٩٩م وانتهى في ذي القعدة سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م ، أي أنه استغرق مدة ثماني سنوات وثلاثة أشهر ، كان لهذا الحصار وقع شديد على سكان مدينة تلمسان بحيث أحاط العسكر بها من جميع جهاتها ، وفقدت فيه الدولة الزيانية معظم مدنها بالمغرب الأوسط ، و نتيجة لذلك نال سكان تلمسان الجوع ما لم ينل أمة من الأمم. "فاضطروا إلى أكل الجيف و القطط و الفئران ، حتى زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي" على حد تعبير ابن خلدون[٣٣]. أما ابن الأحمر فاضطر إلى التعبير عما عاناه سكان تلمسان من جراء هذه المجاعة بقوله: "...حتى أكلوا الجيف و الحشرات و جميع الحيوانات من الفئران و العقارب و الحيات والضفادع و غير ذلك ، حتى أكل بعضهم بعضا ، و كانوا يفرطون و يجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه و يأكلونه ، وهو في ذلك يشدد عليه م الحصر ويقول لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعا..."[٣٤].

ومهما يكن ، فقد كانت المجاعة قاسية نظرا لطول المدة التي استغرقتها ، إذ ارتفعت أسعار المواد الغذائية والحبوب و الخضر والفواكه و سائر المرافق غلاء تجاوز حد المألوف ، فاستهلك الناس أموالهم ومدخراتهم ، و ضاقت أحوالهم ، فكان الهالك بالجوع أكثر من الهالك بالقتل[٣٥] ، و أطلق المرينيون على المنازل "نهبا و اكتساحا"[٣٦] وأصدروا بقتل كل من يدخل بضاعة أو مواد غذائية إلى تلمسان ، فتضرر السكان من داخلها لانعدام الأقوات باستنفاذ المخازن فلم يطق السكان تحمل هذه المجاعة[٣٧] ، فمات منهم خلق كثير إذ تشير المصادر التاريخية أن هذه المجاعة خلفت كثيرا من الضحايا ، إذ هناك من المؤرخين من يشير إلى أن مدينة تلمسان أصبحت خالية من سكانها الذين كان عددهم يفوق مائة و خمسة وعشرون ألف نسمة على أقل تقدير[٣٨] ، فلم ينج من هذه المجاعة إلا بضعة آلاف من الناس.

وإذا كان بعض المؤرخين عزوا ارتفاع عدد ضحايا هذه المجاعة إلى عجز و تقصير السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول (٦٩٧هـ/٧١٨م) عن اتخاذ إجراءات من شأنها التخفيف من وطأتها[٣٩] ، إلا أننا نرى ذلك ظلم وتجنّي عليه ذلك أن هذه الكارثة الطبيعية الناجمة عن الحصار المريني كانت تفوق طاقة السلطان أبو حمو موسى الأول ، و أكبر من إمكانياته ، فقد وصف فلم يكن بذلك السلطان ضعيفا و مقصرا ، فقد وصفه التنسي بما يلي "فولي بعده أخوه الملك الأمجد ، ذو الغرة الميمونة و الجبين الأسعد ، الذي فرج الله بيمن طلعته الشدة ، و آل الأمر من بعض الضيق إلى السعة في أقرب مدة ، و غمر أهل مملكته اليمين و الأمان ، أمير المسلمين أبو حمو موسى بن عثمان ، فأقام عمود الملك بعدما أشرف على الهلاك ، و قارع الثوار ، و اقتحم الأنجاد والأغوار"[٤٠]. ويصف يحيى بن خلدون بأنه كان "فضا غليظا حازما يقظا"[٤١].

مجاعة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م

حدثت هذه المجاعة في عهد حكم السلطان أبو حمو موسى الثني (٧٦٠-٧٩١هـ/١٣٥٩-١٣٨٩م) وصفتها المصادر التاريخية بالمجاعة الكبرى[٤٢] ، و المجاعة العظيمة[٤٣] ، ومما يثير الانتباه أن هذه الكارثة لم تقتصر على تلمسان الزيانية ، بل امتدت لتشمل مناطق أخرى من العالم ، و في هذا الصدد يذكر ابن القاضي أنه في عام ٧٧٤هـ/١٣٧٣م "بدأ الجوع و الغلاء والموت بمصر و العراق و الشام"[٤٤] و يصف المقريزي الوضع بمصر عام ٧٧٦هـ/١٧٤م فيقول "كثر موت الفقراء والمساكين بالجوع ، فكنت أسمع الفقير يصرخ بأعلى صوته لبابة قدر شحمة أدنى أشمها وخدوها فلا يزال كذلك حتى يموت"[٤٥] كما نكبت سائر أقطار المغرب كذلك بها حيث وصفها ابن قنفذ بقوله "وفي هذه السنة (٧٧٦هـ) كانت المجاعة العظيمة بالمغرب وعم الخراب به"[٤٦] وفي أوروبا سمي عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م في مايوركا بعام الجوع[٤٧] ، و لم ينج من هذه المجاعة إلا بلدان أوروبا الشمالية.

إن تزامن المجاعة في هذه المناطق ، لا يمكن أن يكون صدفة ، بل يدل على أن آليات المجاعة لم تنحصر في أسباب محلية أو إقليمية ، وإنما تندرج في إطار التقلبات المناخية العالمية ، وقد أكدت الدراسات الأوروبية أن مجاعة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م تعود بالأساس إلى انحراف في أحوال الطقس[٤٨]. تأسيسا لذلك يمكن إرجاع أسباب هذه المجاعة التي اجتاحت تلمسان خلال هذه الفترة إلى الإعصار الشديد الذي اجتاح بلاد المغرب الأوسط ، و يؤكد ذلك يحيى بن خلدون الذي عاصر هذه المجاعة بقوله "إنها نتجت عن إعصار عظيم ، أهلك زرع صائفة تلمسان و حيوانها ، فأكل الناس بعضهم بعضا ، وافتقروا إلى ما لدى السلطان فتصدق عليهم بنصف جبايته كل يوم على ضعفائها ، ويجتمعون في الرحاب الفسيحة المعينة فيقسم حفظه اللك الأرزاق عدلا بينهم"[٤٩] ، و في محاول للتخفيف من معاناة الناس أصدر السلطان أبو حمو موسى الثاني قرار بالتكفل بالضعفاء والمساكين والفقراء ، و بضمهم إلى بيمارستانات المدينة ، و تقديم الطعام لهم في الصبح و المساء طوال فصلي الشتاء والربيع ، كما فتح للرعية أهراء الزرع و مخازنه و أباح للناس بيعه ، و خفض لهم سعره بحسب ما اقتضته ظروف المجاعة و أحكامها ، و كان أبو حمو موسى الثاني ، كغيره من سلاطين بني زيان حريصا على تخزين المال و المؤن تحسبا لمثل هذه الظروف و لغيرها ، و كان يحث الناس على الاقتصاد وتخزين المؤن كل سنة[٥٠]. وقد اشتكى أحد السراة الميسورين وهو أبو العباس أحمد الشهير بابن قنفذ القسنطيني من ارتفاع سعر المواد الغذائية في مدينة تلمسان جراء هذه المجاعة ، إذ لم يستطع تحمل النفقة الباهضة التي كانت تكلفه يوميا أربع دنانير ذهبا دون المزية العظمة و اليد الكبرى التي تبيع له الطعام[٥١]. و يبدو أن التقلبات المناخية لا يمكنها أن تفسر لوحدها هذه المجاعة التي تسببت في خراب المغرب ، حسب تعبير ابن قنفذ ، فالحروب التي خاضها أبو حمو

موسى الثاني خلال فترة حكمه ، و ما رافقها من فتن داخلية كان لها دور كبير في تضرر الفلاحة ، و بالتالي حدوث هذه المجاعة ، لذلك لم يجانب ابن خلدون الصواب عندما ذكر أنا المجاعات تحدث نتيجة "القبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة... من الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا و كثرة الخوارج لهرم الدولة".[٥٢]

ب- الأوبئة:

وباء الطاعون

يعد وباء الطاعون من أشد الجوائح الطبيعية و أكثرها فناء وأشدها فتكا للبشرية ، وقد عرفت تلمسان هذا الوباء الجارف عدة مرات خلال العهد الزياني ، فكان ينتشر على رأس كل عشر سنوات ، أو خمس عشرة سنة ، أو عشرين سنة تقريبا ، يؤدي إلى هلاك الكثير من الناس[٥٣] ، و تشير الدراسات الحديثة[٥٤] أن أول طاعون اكتسح العالم كان طاعون جوستنيان ، في القرن السادس الميلادي الحوض المتوسطي[٥٥] ، وبعد عودته الدورية لمدة قرنين ، اختفى فجأة في القرن الثامن الميلادي ، ليعود إلى الظهور من جديد في القرن الرابع عشر الميلادي ، انطلاقا من آسيا الوسطى حيث ظهر ببلاد الصين سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٦م و اكتسح أوروبا ، ووصل إلى شمال إفريقيا سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م[٥٦] ، و قد عرف بتسميات مختلفة منها الطاعون الأكبر[٥٧]، و الطاعون الأسود[٥٨] ، و الموت الأسود[٥٩] ، و الشر الأسود[٦٠] والفصل الكبير وسنة الفناء[٦١] .

تفشى هذا الوباء في بلاد المغرب مخلفا الكثير من الضحايا ، وقد عاصره ابن خلدون فوصفه وصفا دقيقا بقوله "نزال بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة ، من الطاعون الجارف ، الذي تحيق الأمم ، و ذهب بأهل الجيل و طوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها جاء للدول على حين هرمها ، وبلوغ الغاية من مداها ، فقلص من ظلالها ، وقل من حدها وأوهن من سلطانها و تواعدت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها ، و انتفض عمران الأرض انتفاض البشر ، فخرجت الأمصار و المصانع ، و درست السبل و المعالم و حلت الديار و المنازل ، وضعفت الدول و القبائل ، و تبدل الساكن و كأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب ، ولكن على نسبته و مقدار عمرانه"[٦٢].

لا شك أن سكان المغرب الأوسط قد تأثروا بهذا الوباء مثل غيرهم من سكان البلاد المغربية والمسيحية ، و من بين مرض الطاعون الذي اجتاح مدن المغرب الأوسط نذكر:

الطاعون الأسود (٧٥٠-٧٥١هـ/١٣٤٩-١٣٥٠م)

تفشى في عهده السلطان الزياني أبو سعيد عثمان الثاني (ت٧٥٣هـ/١٣٥٣م) ، وقد عرف المغرب الأقصى انتشار هذا الوباء سنة قبل هذا التاريخ في عهد السلطان المريني أبو الحسن (ت٧٣٢هـ/١٣٥٢م)[٦٣] ، اعتبر هذا المرض من أشد الطواعين فتكا ، إذ لم يسلم منهم أي كائن حي ، فقضى على خلق كثير من الناس في المغرب الأوسط ، وكانت عاصمة الدولة الزيانية أشد تضررا منه ، حيث فتك بعائلات بأكملها فيها ، مثل ما حدث لأسرة حفيد العالم التفريسي التلمساني التي انقرضت كلها ، من جراء هذا الوباء القاتل ، وقد عاصره أيضا أبو عبد الله الخطيب بن مرزوق فقال عنه "كان للحاج يوسف بن يحيى حفيد العالم التفريسي ، أولاد انقرضوا ، في هذا الوباء[٦٤] ، كذلك توفي به الفقيه ، أبو عبد الله محمد بن يحيى النجار من خيرة علماء عصره في العلوم العقلية[٦٥] ، كما توفي به عالم تلمسان المعروف بابن الإمام أبو موسى عيسى بمسقط رأسه و غيره من العلماء و الأهالي"[٦٦] ، و إذا كانت المصادر لا تحدد نوع هذا الطاعون الذي تفشى في بلاد بالمغرب الأوسط ، فإنه بإمكاننا الاعتماد على الأوصاف التي قدمتها بعض المصادر الأندلسية و المشرقية ، باعتباره كان وباء عالميا ، نصف ابن خاتمة أعراضه بما يلي" إنه حمى خبيثة دائمة من سوء مزاج قلبي (...) مهلكة في الغالب يتبعها كرب و عرق غير عام لا يعقب راحة ترتفع عقبة حرارة (...) وقد يتبعها تشنج وبرد في الأطراف ، و قيئ مراري سمج و عطش"[٦٧] ، و يذكر المقريزي "أن الموت بالطاعون يبصق الإنسان دما ثم يصيح و يموت"[٦٨] كان يخرج خلف أذن الإنسان بترة فيخر صريعا ثم صار يخرج للإنسان كبة فيموت أيضا سريعا"[٦٩] .

إن الطاعون الأسود الذي ضرب منطقة المغرب الأوسط عامة ومدينة تلمسان على وجه الخصوص سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٨م[٧٠] ، كان قد تفشى في المغرب الأقصى حسب إحدى الدراسات الحديثة سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م قادما إليها من المشرق انطلاقاً من الموانئ الساحلية إلى داخل البلاد ، فأثاب تازة ، فاس ، سبتة ، سلا و هي مدن احتلت فيها التجارة مركز الصدارة ، فمن غير المستبعد تسرب هذا الوباء إلى بلاد المغرب الأوسط عبر تنقلات تجار هذه المدن المغربية إلى بلاد المغرب الأوسط الذي كانت تربطه ببعض مدنه علاقات تجارية خاصة فاس ، ولا شك أن الجيش للمريني الذي قام حملة عسكرية على المغرب الأوسط بقيادة أبو الحسن المريني في رجب ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ، ساهم هو الآخر في نشر الوباء على طول المحاور التي سلكها.

عودة الطاعون ٧٦٤-٧٦٥هـ/١٣٦٣-١٣٦٤م

بعد مرور أربع سنوات من حكم السلطان أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ/١٣٥٩-١٣٨٩م) عاود الطاعون فتكه بالبلاد مخلف المزيد من الضحايا ، و يرتبط هذا الهجوم الجديد بموجته العالمية الثانية[٧١] التي انطلقت من أوروبا الغربية عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ، و عاود فرنسا و انجلترا ما بين عام (٧٧٠هـ/١٣٦٩م) و عام (٧٧٧هـ/١٣٧٦م)[٧٢] ، كما ظهر بالشام و مصر عام ٧٦٤هـ/١٣٦٣م[٧٣] ، أهلكهم سنة تسع ة أربعين قبلها[٧٤] ، و نعته ابن هيدور بالوباء الثاني[٧٥] ، إشارة إلى الطاعون الأسود الذي اعتبرته بعض المصادر الوباء الأول العام في الأرض[٧٦] ، و إذا كانت المصادر التاريخية قد أجمعت على أن هذا الوباء هو طاعون حقيقي ، فإنها في المقابل أغفلت تحديد نوعه ، نفس الملاحظة تنطبق على الكتابات الأوروبية ، إلا أن بعض المصادر المشرقية أشارت إلى بعض أغراضه ، فابن حجلة يذكر أنه "كان يتبع أهل الدار فمن بصق أحد منهم دما تحققوا كلهم عدما".[٧٧]

يرجع ابن الخطيب أصل هذا الوباء ، إلى المجاعة التي تفشت ببعض المناطق "لكونها لم تستأثر بلالة رحمة مما قسم الله لغيرها ، إلى ما أصابها من معرة الفتنة إلى هذا العهد واستهدف من بها إلى هلكة المجاع و فشو الموتات"[٧٨] ، و يرى ابن هيدور أن هذا الموت لا يكون "إلا بأثر الغلاء فهو لازم من لوازمه وإذا كان الغلاء وطال اشتدت أسبابه لزم عنه الوباء ، و هذا علم صحيح و قانون مطرد لا يحتاج فيه إلى تقليل و لا إلى نظف النجوم"[٧٩] ، لذا فقد كان للمجاعة دور في تفشي وباء الطاعون خلال عامي ٧٦٤-٧٦٥هـ/١٣٦٣-١٣٦٤م . و لعل من أسبابها الصراعات الداخلية على السلطة بين فروع الأسرة الزيانية الحاكمة وما نتج عنها من حرب عنيفة بين أبو حمو موسى الثاني و ابن عمه أبو زيان بن سعيد في الفترة الممتدة بين ٧٦٢-٧٨٩هـ أثرت سلبا



على المنظومة الإنتاجية في شموليتها ، فقد خلفت هذه الحرب وراءها الدمار و الجوع[٨٠] ، يذكر ابن هيدور أن الغلا لحدوثه سببان إما احتباس المطر في البلاد المحتاجة إليه ، و إنما ظهور الفتن و الحروب بسبب الخروج عن الملوك ، فإذا دامت الفتنة وقع الفساد في الحواضر والبوادي وفسدت حبوبها المختزنة وانقطعت الطرق وعدمت المرافق لأجل ذلك"[٨١] ، إلا أن الجانب الأخطر في هذه الحرب هو زعزعتها للنشاط الفلاحي[٨٢] حيث أصبح المزارع المستقر في الدولة الزيانية غير آمن على نفسه و أرضه مما أدى به إلى الهجرة بحثا عن ملاذ آمن ، يذكر أحد الباحثين "عندما لا تصبح الحقول طوال سنوات متعددة سوى مسرح لمعارك أو مجرد ممر لعبور وحدات المحاربين. التي تعيش من المنطقة ، و تمارس فيها سياسة الأرض المحروقة فإن الأمر ينتهي بالفلاحين إلى الانصراف عن الاهتمام بمزروعاتهم أو إلى عدم الاهتمام إلا بالحد الأدنى الذي يكفيهم للغذاء"[٨٣].

طاعون ٨٤٥هـ/١٤٤٢م

ظهر هذا الوباء في عهد حكم العاهل الزياني أبو العباس أحمد العاقل بن أبي حمو موسى الثاني (٨٣٤-٨٦٦هـ/١٤٣١-١٤٦٢م) والذي عرفت في عهده الدولة الزيانية نوعا من الاستقرار السياسي والتطور الفكري ، و الرخاء الإقتصادي[٨٤] ، لكن رغم ذلك فقد اجتاح مرض الطاعون الكثير من مدن المغرب الأوسط التي كانت تحت حكمه ، و كانت عاصمة الدولة الزيانية تلمسان أكثر تضررا منه ، حيث أتى على الكثير من سكانها[٨٥] ، و الملاحظ أن هذا الوباء كان له نفس الوقع على المجتمع التلمساني ، فإذا كان الطاعون قد أتى بصفة خاصة على الصغار "الذين لم يبلغوا أوان الحلم " ، فإنه كان كذلك "للضعفاء و أهل الشظف أفتك" ، بل لم يمنع منه حتى العلماء ، فقد توفي به عالم تلمسان ، و مفتي بلاد المغرب ، الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني الشهير بابن زاغو[٨٦] ، وهذا دليل على أن هذا الوباء أصاب العامة و الأسياد الشيوخ بدون تمييز[٨٧] .

وإذا كانت المصادر قد أجمعت على أن هذا الوباء هو طاعون حقيقي ، فإنها في المقابل أغفلت عن تحديد مصدره ، ورغم إقرارنا بدور المجاعة في تفشي بعض الأوبئة ، إلا أنها لم تكن من العوامل المحددة لظهور هذا الوباء ، فقد سجلت بعض الدراسات حدوث بعض الأوبئة في سنوات الرخاء و هذا ما حصل خلال هذه الفترة من حكم أبي العباس أحمد العاقل ، فرغم الرخاء الاقتصادي الذي عرفته دولة بني زيان في عهده ، فإن ذلك لم يمنع من ظهور هذا الوباء ، لقد أكدت بعض الدراسات الطبية أن الطاعون لم يكن متوطنا بأرض المغرب الأوسط بل كان يأتيه من الخارج ، خاصة عن طريق الموانئ ، حيث كانت السفن الواردة عليه سواء من أوروبا أو المشرق تحمل معها جرثومة يارسين ، إما بواسطة القوارض التي تتحول من السفن إلى الرصيف ، أو من البحارة المصابين ، لذلك نرجح أن يكون الوباء قد انتقل إلى المغرب الأوسط من أوروبا التي ظهر بها قبل ظهوره بالمغرب الأوسط بفترة قصيرة.[٨٨]

٣- نتائج المجاعات والأوبئة:

كان لهذه السلسلة من الكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب الأوسط خلال العهد الزياني آثارها الوخيمة على جميع المستويات ، وسنحاول فيما يلي استخلاص بعض النتائج التي ترتبت عنها :

النتائج الإجتماعية:

لا ريب أن هذه المجاعات والأوبئة قد خلفت عددا كبيرا من الضحايا ، إلا أنه يصعب تقديم رقم عن عددهم في غياب إحصائيات دقيقة ، فالمصادر تقف عند حدود أدبيات وصفية عن الخسائر البشرية ضمن عبارات "وكم هلكت فيها من أمم"[٨٩] ، و مات منهم خلق كثير[٩٠] ،أو كان الهالك بالجوع أكثر من الهالك بالقتل[٩١] ، أو "حصد السكان بدون استثناء[٩٢] ورغم طابعها الأدبي ، فإنها تؤكد حقيقة أن هذه الكوارث كانت شديدة وأنها أودت بحياة عدد كبير من الناس ، ولا شك أن الضعفاء كانوا أكثر ضحايا هذه المجاعات والأوبئة لاختصاص السبب بهم"[٩٣] ، إلا أن الفئة الميسورة لم تكن بمنأى على الأقل من ضربات هذه الكوارث ، فقد أتى وباء الطاعون ٨٤٥هـ/١٤٤٢م على العامة والأسياد و الشيوخ وأصحاب القصور و الجاه بدون تمييز وهو ما أكده ابن خلدون بقوله "ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكبا في تحصيل العلم حريصا في اقتناء الفضائل (...) إلى أن كان الطاعون الجارف وذهب الأعيان و الصدور و جميع المشيخة"[٩٤] .

كما ساهم الطاعون و المجاعة في بروز بعض القيم الأخلاقية المتطرفة منها استفحال ظاهرة النهب والسلب التي اتخذت أبعادا حقيقية في ظل الفوضى و ضعف السلطة المركزية ، فقد اضطر ابن قنفذ أن يقيم في تلمسان مدة شهر لانعدام الأمن في المسالك والطرق بسبب مجاعة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م[٩٥] . و قد أشار ابن قنفذ إلى هذه الظاهرة بقوله "إن أمر الطريق كان في الخوف و الجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب من وصولنا سالمين ، ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا..."[٩٦].

وقد أدى حدوث هذه الكوارث في موت أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء ، فمثلا يذكر ابن مرزوق "وكما هلكت فينا من أمم (تلمسان) وكم انجلى من أهلها أعلام ، كم كابدوا من محن و انتقام و لا شك أن موت هؤلاء العلماء كان له انعكاس سلبي على الحياة العلمية يقول ابن خلدون "وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم و التعلم"[٩٨] . و جدير بالذكر أن الطاعون ساهم في ظهور مجموعة من الكتابات نعتها الدكتور محمد الأمين البزاز بأدبيات الطواعين[٩٩] ، إلا أن المغرب الأوسط (الجزائر) حسب حدود إطلاعي لم يظهر به هذا النوع من الكتابات وإن كنا نفترض أنه هو الآخر عرف بعضا منها لكن لم يتم الكشف عنها بعد بحكم أن مناطق قريبة منه لها نفس البنيات و المعتقدات و الأنماط الفكرية عرفت مثل هذه الكتابات[١٠٠] .

النتائج الاقتصادية:

كان طبيعيا أن يؤدي ارتفاع عدد الضحايا إلى تضرر الاقتصاد ، إلا أننا لا نستطيع تمثل حجم هذه الكوارث على اقتصاد المغرب الأوسط إلا من خلال مقارنتها مع ما خلفته في مناطق أخرى مثل المشرق الإسلامي حيث تتوفر على بعض المعطيات ، ففي المجال الفلاحي تؤكد إحدى الدراسات الحديثة أن عدد ضحايا الطاعون الأسود كان كبيرا بالبوادي عنه بالمدن[١٠١] ، و يبدو أن هذا الطرح ينسجم مع الصورة التي قدمتها مختلف المصادر حول الأضرار التي لحقت ببعض البوادي بالمشرق ، ففي غزة مثلا "شمل الموت أهل الضياع بها"[١٠٢] ، و في مصر "عجز أهل بليس و سائر البلاد الشرقية عن ض من الزرع لكثرة موت الفلاحين"[١٠٣] . إنطلاقا من هذه الأمثلة فإننا لا نتصور أن يكون المغرب الأوسط أحسن حالا منها إذ تزخر كتب التراجم

والنوازل بإشارات كثيرة حول فراغ بعض القرى في المغرب الأوسط ، وطبيعي أن تنعكس هذه الأوضاع سلبا على الفلاحة ، و ذلك بتعطل الإنتاج الزراعي.

ومن الآثار التي أفرزتها هذه الكوارث على المستوى التجاري ارتفاع الأسعار بوتيرة سريعة خاصة أثناء مجاعة ٦٩٨هـ/١٢٩٣م ، و طاعون ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ، هذه الحقيقة عبر عنها التنسي محمد بن عبد الله بقوله : "بلغ فيها الرطل من الملح دينارين ، و كذلك من الزيت والسمن و العسل و اللحم ، ذكر بعضهم أن الدجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهبا"[١٠٤] . و يصف لنا كذلك ابن خلدون ارتفاع الأسعار بقوله : "أن ثمن البقرة الواحدة ستون مثقالا ، و الظأن سبعة ونصف و الرطل من لحم البغال و الحمير بثمن المثقال ، و من الخيل بعشرة دراهم... و حتى الخس بعشرين درهما ، و من اللفت بخمسة عشر درهما ، والفقوس بأربعين درهما ، والخيار بثلاثة أثمان الدينار ، و البطيخ بثلاثين درهما ، و الحبة من التين و الإجاص بدرهمين."[١٠٥]

النتائج السياسية:

لم يقتصر تأثير المجاعة و الأوبئة على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية بالمغرب الأوسط ، فقد تأثرت كذلك أوضاعها السياسية ، فتقلص النشاط الاقتصادي ، اضطربت الأحوال الأمنية و زاد عدم الاستقرار السياسي داخل الدولة الزيانية الناجم عن الصراعات الداخلية على السلطة بين فروع الأسرة الحاكمة ، كان يعني في المحصلة النهائية عجز الدولة في الدفاع عن حدودها ، مما دفع بالطامعين في الحكم من جيرانها الحفصيين و المرينيين السيطرة عليها ، فمثلا أدت الحرب العنيفة بين ابو حمو موسى الثاني و ابن عمه أبي زيان بن سعيد في الفترة الممتدة ما بين سنتي ٧٦٢-٧٨٣هـ إلى انقسام الدولة الزيانية إلى شطرين ، الشطر الشرقي و يضم أراضي من شرق الجزائر الحالية إلى غاية مدينة الجزائر تقريبا ، وكانت تحت سلطة أبي زيان ، والشطر الغربي من مدينة الجزائر إلى غاية الحدود الغربية الحالية للجزائر تقريبا ، و يقع تحت سلطة ابن حمو موسى الثاني. فقد سهل هذا الأمر على السلطان المريني عبد العزيز من احتلال تلمسان سنة ٧٧٢هـ[١٠٦] ، كما تعرضت تلمسان لحصار طويل من قبل أبو يعقوب يوسف المريني سنة ٦٩٨هـ/١٢٣٩م وهو العام الذي اشتدت فيه المجاعة بالمغرب الأوسط.[١٠٧]

الخــــاتــمـة

يتضح مما سبق ، أن المجاعات و الأوبئة قد شكلت خطرا حقيقيا على حياة سكان المغرب الأوسط خلال العصر الوسط ، إذ شكلت بنية من بنيات حياتهم اليومية ، و تبين من خلال هذه الدراسة أن أسباب هاتين الكارثتين كانت متنوعة فمنها ما هو طبيعي كالجفاف ، والأعاصير ، و منها ما هو بشري كالفتن والحروب التي أدت إلى تعميق الأزمة الغذائية.

لقد تعرض المغرب الأوسط خلال العهد الزياني عدة مرات للأوبئة و المجاعات ، تطرقنا إلى تلك التي توفرنا بصددها على معلومات كافية ، وقد تراوحت المدة الزمنية التي استغرقتها هذه الكوارث ما بين سنة وثماني سنوات ، و من استأثر القرنين السابع و الثامن الهجريين (١٣-١٤م) بالنصيب الأوفر بسبب الاضطرابات العنيفة التي شهدها هذين القرنين.

وإذا كانت هذه الكوارث تنتقي ضحاياها من الفقراء و المعوزين ، فإن الوباء كان يساوي بين أفراد المجتمع كيفما كانت مستوياتهم المادية والاجتماعية ، كما فرضت الأوبئة و المجاعات خلال العهد الزياني سلوكات بدءا باستفحال ظاهرة النهب و السلب و انتهاء بأكل اللحوم البشرية كما حدث في مجاعة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ، وهو أقصى سلوك كان يصل إليه الإنسان في هذه الفترات العصيبة ، إذ كان ينسلخ من آدميته و يتحول إلى حيوان هدفه التخلص من الألم والجوع بأية وسيلة.

وأود في نهاية هذا العمل أن أشير إلى أن هذه الدراسة تبقى محاولة أولية ، أتمنى أن تكون بداية لأبحاث في حقب تاريخية أخرى ، و أن تتظافر جهود الباحثين و الدارسين في تخصصات متعددة للبحث في مثل هذه المواضيع الغنية بالقضايا و الحقائق التاريخية.

الحواشي:

* تلمسان مدينة جزائرية تبعد عن العاصمة الجزائرية بحوالي ٥٦٠كلم ، كانت في العصر الوسيط عاصمة المغرب الأوسط ، حمكها الزيانيون الذين خلفوا دولة الموحدين المنهارة في بلاد المغرب والأندلس من ٦٣٣هـ إلى ٩٦٢م.

١- عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني (جزأين)، دار موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ٢٠٠٢.

٢- الحساني مختار ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الزيانية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٩٧.

٣- ميشال سيباد و هنري غونال ، الجوع منشورات عويدات ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص٩٤.

٤- أبو الفضل ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، ج٨ ، دار صادر بيروت ، د.ت ،ص٩٤.

٥- أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ، جمهرة اللغة (ج٢)، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ص٢١.

٦- أديب اللجمي و آخرون ، المحيط ، معجم اللغة العربية (ج٣)، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٤ ، ص١٠٩٩.

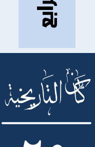
٧- الجدب ، هو انقطاع المطر و يبس الأرض من الكلأ ، اللجمي وآخرون ، المحيط ، (ج١)، ص٣٩٦.

٨- المحل ، هو انقطاع المطر ويبس الأرض ، ينظر : إسماعيل بن عباد ، كافي الكفاة (ج٣)، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٤ ، ص١١٦ ، و جاء في لسان العرب ، الشدة والمحل: الجوع الشديد و إن لم يكن جدب ، و المحل نقيض الخصب و المحول و القحوط احتباس المطر ، ابن منظور ، لسان العرب ، ج١ ، ص ص ٦١٦-٦١٧ ،وفي محيط المحيط أرض محل ، أي مجدبة ، بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص٨١٤.

٩- المسغبة: المجاعة ، أديب اللجمي و آخرون ، المحيط (ج٣)، ص١١٤٦.

١٠- القحط : احتباس المطر ، و قحوط المطر أن يحتبس ، وهو محتاج إليه ، ويقال زمان قاحط وعام قاحط وسنة قحط و أقحط الناس ، إذا لم يمطروا ، ابن منظور ، لسان العرب (ج٧)، ص٣٧٤.

١١- الوباء : الطاعون (...) و ارض موبوءة ، و بيئة (...) كثيرة الوباء ، ابن منظور ، لسان العرب (ج١)، ص١٨٩. نفس التعريف يقدمه ابن عباد ، كافي الكفاة (ج١)، ص٤٥١ ، وإسماعيل بن حماد



الجوهري ، الصحاح ، تاج اللغة و صحاح العربية (ج١)، تحقيق عبد الغفور عطار ، دار للعلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ص٧٩.

١٢- ابن خلدون عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، مطبعة مصطفى محمد ، مصر ، د-ت ، ص٣٠٢.

١٣- ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك الغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة الورقية ، الرباط ١٩٧٢ ، ص١٠٢.

١٤- جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (٩-١٠م) ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٩٢ ، ص٤٥٥.

١٥- الونشريسي أبو العباس ، المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس والمغرب (١٢جزءا)، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، الرباط ، ودار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٢٣٦.

١٦- الوزان الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي ، وصف إفريقيا (ج١)، ترجمه عن الفرنسية ، محمد حجي ، ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ ، ص٢٢٢.

١٧- ابن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس فيغيرا ، تقديم محمود بوعياد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٢٢٢.

١٨- ابن خلدون يحيى ، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (ج٢) نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفرد بل ، مطبعة غرناطة ، الجزائر ١٩٠٣-١٩١٠ ، ص١١ ، ينظر كذلك ابن مريم أبو عبد الله ، البستان في ذكر الأولياء بتلمسان ، نشره محمد بن ابي شنب وقدم له عبد الرحمن طالب ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٨٦ ، ص١٧٤.

١٩- محمد الحبيب بن الخوجة ، الجراد بين الدراسات الحديثة و بين التصورات الموروثة ، مطبوعات أكاديمية ، المملكة المغربية ، الرباط ، ١٩٨٩ ، ص٦١.

٢٠- محمود علي مكي ، وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية المجلد (٧-٨) مدريد ١٩٥٩ ، ص ص ١٨٦-١٨٨.

٢١- عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج١ ، ص٢٥٣.

٢٢- ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني ، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب ، تحقيق و تقديم السعدية فاغية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ١٩٨٩ ، ص٦١.

٢٣- علي بن عبد الله بن هيدور التادلي ، الأمراض الوبائية ، الخزانة الحسنية ، الرباط مخطوط رقم ٩٦٠٥ ، ورقة٢.

24- Mols (R), Introduction de la démographie historique des villes d'Europe du (XIV au XVIII siècle), T2, Louvain, Belgique, 1954 p460.

٢٥- ابن ابي زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ص ١٣١-١٣٢.

٢٦- ابن خلدون ، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" ، دار الكتاب اللبناني ، (المجلد السادس) ، ج٧ ، بيروت ١٩٨٣ ، ٥٠٥.

٢٧- ابن خلدون ، المقدمة ، ص٣٠٢.

٢٨- بوداود عبيد ،ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين (١٣-١٥هـ) ، دراسة في التاريخ السوسيوثقافي ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ، الجزائر ، ٢٠٠٤ ، ص١٨٥.

٢٩- المرجع نفسه ، ص١٨٧.

٣٠- ابن مرزوق ، المسند الصحيح ، ص ٢٨٥-٢٨٦.

٣١- ابن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (ج١)، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٩٨٠ ، ص٢١٥.

٣٢- ابن خلدون ، المقدمة ، ص٣٠٢.

٣٣- ابن خلدون ، كتاب العبر ، (ج٧)، ص ص ١٩٧-١٩٨.

٣٤- ابن الأحمر ، روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م ، ص٦١.

٣٥- ابن خلدون ، كتاب العبر ، (ج٧)، ص ١٩٨.

٣٦- المصدر نفسه ، ص ١٩٨.

٣٧- ابن مرزوق ، المسند ، ص ص ٤٧٦-٤٧٧.

٣٨- ابن الأعرج ، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ ، الخزانة الحسنية ، الرباط مخطوط رقم ١٧٠ ، ورقة ٤٢.

39- Brosslard (Charles), Les inscriptions arabes de Tlemcen , Revue Africaine , n° 14, 3ème année 1859, Alger, 83.

٤٠- التنسي محمد بن عبد الله ، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمد بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٥ ، ص١٣٢.

٤١- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، (ج١)، ص ٤٣

٤٢- ابن قنفذ ، أنس الفقير و عز الحقير ، نشره و صححه محمد الفاسي و أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ١٩٦٥م ، ص١٠٥.

٤٣- الونشريسي ، المعيار ، (ج٥)، ص٩٨.

٤٤- ابن القاضي ، لقط الفرائد من لفاضة حقق الفوائد ، تحقيق محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر ، سلسلة التراجم (٢)، الرباط ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص٢١٥.

٤٥- المقريزي ،كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثالث (ج٢)، صححه و وضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م ، ص٤٠.

٤٦- ابن قنفط ، أنس الفقير ، ص١٠٥.

47- Dufoucq (ch.E), Gautier (b.j) histoire économique et sociale de l'Espagne chrétienne au moyen âge, Armand colin, paris 1976, p 176.

٤٨- نجد تفسيرا معقولا لهذه الظاهرة في نتائج الأبحاث التي أجريت في إطار البرنامج الأوروبي لدراية ديناميكية المناخ ، و التي أكدت أن التقلبات المناخية التي تشهدها أوروبا ودول المغرب العربي

من حين لآخر لها ارتباط قوي و مباشر مع ديناميكية الدورة الهوائية الأطلنتية في النصف الشمالي وهو ما يسمى بذبذبة المحيط الأطلسي الشمالية ، ينظر عبد العزيز باجو ، الجفاف في المغرب و علاقته بالتقلبات المناخية المعاصرة ، مجلة الدعم ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، جويلية ١٩٩٦ ، ص٢٣. و قد حاول الباحث الفرنسي ركون (Rognon.P) اعتمادا على مؤشرات هذه الذبذبة تفسير الجفاف الذي شهدته أوربا أعوام (١٩٧٥-١٩٧٦-١٩٧٧) ، نقلا عن عبد العزيز باجو ، الجفاف ، ص٢٩.

٤٩- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد (ج٢) ، ص١١.

٥٠- المصدر نفسه ، ص٣٢٦.

٥١- ابن قنفذ ، أنس الفقير ، ص١٠٥.

٥٢- ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، ص٢٠٣.

٥٣- الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، (ج١) ، ص٦٨.

54- Biraben (J.N) et Le Goff (I), La peste dans le moyen âge - annales E.S.G n°6-8-1969, p1492.

محمد الأمين البزاز ، الطاعون الأسود بالمغرب في القرن ١٤م ، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ، العدد ١٦ ، الرباط ١٩٩١ ، ص ص ١٠٩-١١٠ ، مصطفى نشاط ، من صعوبات البحث في الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط ، الطاعون الأسود نموذجا ، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة محمد الأول ، العدد٦ ، السنة ١٩٩٦ ، وجدة المملكة المغربية ، ص٢٧.

Biraben (J.N), la peste , p p 1492-1493.

٥٦- عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج١ ، ص٢٥١.

Gerbet Marie Claude, L'Espagne au moyen âge XIII-XV siècle Armand Colin, Paris 1991, p258.

57- Roux (S), Le monde des villes au moyen âge XIII siècle Armand Colin, Paris 1991, p258.

58- Carpentier Elisabeth , " Autour de la peste noire " Famines et épidémies da,s l'histoire du XIV siècle annales E.S.G n°17 1962, p p 1062.

59- Reouard Henri , Paul Joseph , La peste noire de 1348 in population n° 03 1948, p460.

60- Fossier Robert, le moyen âge , le temps des crises 1250-1520, armand Colin , Paris 1983, p56.

٦١- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة (ج١٠) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الطباعة و النشر ، مصر ١٩٦٣ ، ص٢١٥.

٦٢- ابن خلدون ، المقدمة ، ص٥٣.

٦٣- ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ٢٠٠٢ ، ص ص ١٥٥-١٥٦.

٦٤- ابن مرزوق الخطيب ، المجموع ، ميكروفيلم ، الخزانة العامة ، رقم ٢٠ ، ورقة ١٤.

٦٥- المصدر نفسه ، ورقة ١٥.

66- Marçais Georges , les villes d'art célèbres , Tlemcen , Librairie Kenouard, Laurens éditeur, Paris, 1950, p48

٦٧- ابن خاتمة أبو جعفر أحمد بن علي ، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد ، الخزانة العامة ، الرباط ، ميكروفيلم ١٢١٢ ، ورقة ٤-٥.

٦٨- امقريزي ، كتاب السلوك ، (ج٣) ، ص٧٧٣.

٦٩- ابن ثغري ، النجوم الزاهرة ، (ج١٠) ، ص١٩٨.

70- Vovelle (M), La mort et l'occident de 1300 à nos jours , édition , Gallimard et panthéons books, 1983, p90.

٧١- أشا الوزان إلى أن الطاعون كان يعاود فتكه بالبلاد و العباد كل عشرة أو خمسة عشرة أو عشرين سنة ، وصف إفريقيا ، ج١ ، ص٦٨.

72- Chaunu (p), L'expansion européenne du 13 au 15ème siècle n P.U.F , Paris , 2ème édition, 1983, p 347.

Carpentier (E), autour de la peste , p 1083.

٧٣- المقريزي ، كتاب السلوك ، ص٨١.

٧٤- ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ، ص١٢٧.

٧٥- ابن هيدور ، الأمراض الوبائية ، الخزانة الحسنية ، الرباط ، مخطوط رقم ٩٦٠٥ ، ورقة ٢.

٧٦- ابن قنفذ ، كتاب الوفيات ، تحقيق عادل أبو نويهض ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣ ، ص٣٥٤.

٧٧- ابن ابي حجلة ، دفع النقمة بالصلاة على بني الرحمة ، ورقة ١٠٧ب ، نقلا عن أحمد السعداوي ، المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون ، الطاعون الأسود و الطواعين التي تلته ، القرنين ٨-٩هـ/١٤-١٥م ، مجلة إيبلا ، العدد ١٧٥ ، السنة ١٩٩٥ ، ص ص ١١٩-١٤١.

٧٨- ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص٦١.

٧٩- ابن هيدور ، الأمراض الوبائية ، ورقة٢.

٨٠- بوادود عبيد ، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ، ص١٦٢.

٨١- ابن هيدور ، الأمراض الوبائية ، ورقة٢.

٨٢- محمد هاشم العلوي القاسمي ، مجمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/منتصف القرن العاشر الميلادي (جزأين) ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص٢٧.

83- Mos (R), introduction de la démographie historique , p460.

٨٤- عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج١ ، ص٧٢.

٨٥- المرجع نفسه ، ج١ ، ص٢٥٣.

٨٦- ابن الأعرج ، زبدة التاريخ ، ورقة٩٩.

٨٧- ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص٢٦٧.

٨٨- ظهر الطاعون بأوروبا سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ، أما المشرق فقد ظهر فيه سنة ٧٦٤م ، و ظهر بمنطقة المغرب الإسلامي ما بين سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ، ثم عاد للظهور بها عام ٨٤٥م.

٨٩- ابن مرزوق ، المسند الصحيح ، ص٢٠٣.

٩٠- التنسي ، نظم الدر ، ص١٣٢.

٩١- ابن خلدون ، العبر (ج٧) ، ص ص ١٩٧-١٩٨.

٩٢- ابن مريم ، البستان ، ص ١٨٠.

٩٣- ابن خاتمة ، تحصيل غرض القاصد ، ورقة ١٥

٩٤- ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ، ص٣٩٨.



٩٥- ابن قنفذ ، أنس الفقير و أعز الحقير ، ص١٠٥.
٩٦- المصدر نفسه ، ص ٢٣١.
٩٧- ابن مرزوق ، المسند الصحيح ، ص٢٠٣.
٩٨- ابن خلدون ، المقدمة ، ص٤٦٣.
٩٩- محمد الأمين البزاز ، تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، سلسلة رسائل و أطروحات ، الرباط ١٩٩٢ ، ص ٣٨٧ و ما بعدها.
١٠٠- ألف في تونس مثلا ، أحد الفقهاء كتابا حول الطاعون سماه "المسنون في أحكام الطاعون" ، و ألف في الأندلس ابن خاتمة كتاب "تحصيل غرض القاصد في تحصيل المرض الوافد" ، و الف ابن الخطيب كتاب "مقنعة السائل عن المرض الهائل" ، و في مصر ألف ابن ابي حجلة كتاب : "دفع النقمة بالصلاة على بني الرحمة" و غيرها كثير لا يتسع المجال لذكرها.
101- Abel Withem , Crises agraires en Europe (XIII-XX siècles) ta. Fr , Flammarion , Paris 1973, p63.
١٠٢-ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص١٩٨.
١٠٣- المصدر نفسه ، ٢٠٣ ، المقريزي ، كتاب السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص٧٧٨.
١٠٤- التنسي ، نظم الدر و العقيان ، ص ١٣٢.
١٠٥- عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر (المجلد السادس) ، ص ص ١٩٧-١٩٨.
١٠٦- الزركشي أبو عبد الله ، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ط ٢ ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٤-٧٣.
الناصري ، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (ج ٤) ، تحقيق جعفر الناصري ، ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٥٤ ، ص٥٨.
١٠٧- عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج ١ ، ص٢٥٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

المصادر المخطوطة

١- ابن الأعرج (محمد الحسني السلماني)
- زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ ، الخزانة الحسنية ، الرباط مخطوط رقم ١٧٠.

٢- ابن خاتمة (أبو جعفر أحمد بن علي)
- تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد ، الخزانة العامة ، الرباط ، ميكروفيلم ١٢١٢.

٣-ابن هيدور (علي بن عبد الله التادلي)
- الأمراض الوبائية ، الخزانة الحسنية ، الرباط مخطوط رقم ٩٦٠٥.

٤- ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد الخطيب)
- المجموع ، ميكروفيلم ، الخزانة العامة ، الرباط ، رقم ٢٠.

المصادر المطبوعة

٥- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي الفاسي)
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك الغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة الورقية ، الرباط ١٩٧٢.

٦- ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي)
- روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٧- ابن ثغري (جمال الدين أبو المحاسن بردي)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة (ج ١٠) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الطباعة والنشر ، مصر ١٩٦٣.

٨- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد السلمان)
- نفاضة الجراب في علالة الإغتراب ، تحقيق و تقديم السعدية فاغية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ١٩٨٩.

٩- ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، ٢٠٠٢.

١٠- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن ابي بكر الحضرمي)
- مقدمة ابن خلدون ، مطبعة مصطفى محمد ، مصر ، بدون تاريخ .

١١- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون المسمى "العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" ، دار الكتاب اللبناني ، (المجلد السادس) ، ج ٧ ، بيروت ١٩٨٣.

١٢- ابن خلدون (أبو زكرياء يحيى بن ابي بكر بن محمد بن الحسن)
- كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (ج ٢) نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفرد بل ، مطبعة غرناطة ، الجزائر ١٩٠٣-١٩١٠.

١٣- ابن خلدون ، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (ج ١) ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٩٨٠.

١٤- ابن عباد إسماعيل ، كافي الكفاة ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٤.

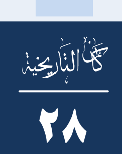
١٥- ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي)
- لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد ، تحقيق محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر ، سلسلة التراجم (٢) ، الرباط ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٦- ابن قنفذ (أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني)
- أنس الفقير و عز الحقير ، نشره و صححه محمد الفاسي و أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ١٩٦٥م.

١٧- ابن مرزوق (شمس الدين أبو عبد الله محمد التلمساني)
- المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس فيغيرا ، تقديم محمود بوعياد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٨- ابن مريم ، (أبو عبد الله محمد بن أحمد)
البستان في ذكر الأولياء بتلمسان ، نشره محمد بن ابي شنب وقدم له عبد الرحمن طالب ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٨٦.

١٩- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم)
- لسان العرب المحيط ، ج٨ ، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ.



٢٠- أبو بكر (محمد بن الحسن الأزدي)، جمهرة اللغة (ج٢)، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٥هـ.
٢١- البستاني بطرس
- محيط المحيط ، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧.
٢٢- التنسي (محمد بن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ)
- نظم الدر و العيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمد بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٥.
٢٣- الجوهري (إسماعيل بن حماد)، "تاج اللغة و صحاح العربية" ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م.
٢٤- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التونسي)
-تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٦٦.
٢٥- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)
- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الثالث (ج٢)، صححه و وضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
٢٦- المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة، و جمال الدين محمد الشيال، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢.
٢٧- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)
-الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (ج٤)، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٥٤.
٢٨- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) المعروف بليون الإفريقي
- وصف إفريقيا (ج١)، ترجمه عن الفرنسية ، محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.
٢٩- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)
- المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (١٢جزءا)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ، الرباط، ودار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ثانيا المراجع:

المراجع العربية

١- أديب اللجمي و آخرون، المحيط ، معجم اللغة العربية (ج٣)، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٤.
٢- البزاز محمد الأمين ، تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، سلسلة رسائل و أطروحات ، الرباط ١٩٩٢.
٣- البزاز محمد الأمين، الطاعون الأسود بالمغرب في القرن ١٤م، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ، العدد ١٦، الرباط ١٩٩١.
٤- بوداود عبيد ،ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين (١٣-١٥هـ) ، دراسة في التاريخ السوسيوثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ٢٠٠٤.
٥- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (٩-١٠م) ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٩٢.
٦- الحساني مختار ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الزيانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٧.
٧- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (جزأين)، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٢.
٨- عبد العزيز باجو، الجفاف بالمغرب و علاقته بالتقلبات المناخية المعاصرة، مجلة الدعم ، العدد الثاني، السنة الثانية، جويلية ١٩٩٦.
٩- العلوي القاسمي محمد هاشم، مجمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/منتصف القرن العاشر الميلادي (جزأين)، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
١٠- محمد الحبيب بن الخوجة، الجراد بين الدراسات الحديثة و بين التصورات الموروثة ، مطبوعات أكاديمية ، المملكة المغربية ، الرباط، ١٩٨٩.
١١- محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية المجلد (٧-٨) مدريد ١٩٥٩.
١٢- مصطفى نشاط، من صعوبات البحث في الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط، الطاعون الأسود نموذجا، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، العدد٦، السنة ١٩٩٦، وجدة المملكة المغربية.

المراجع الأجنبية

1- Abel Withem , Criuses agraisnes en Europe (XIII-XX siècles) ta. Fr , Flammarion , Paris 1973
2- Biraben (J.N) et Le Goff (I), La peste dans le moyen âge - annales E.S.G n°6-8-1969
3- Brosslard (Charles), Les inscriptions arabes de Tlemcen , Revue Africaine , n° 14, 3ème année 1859, Alger.
4- Carpentier Elisabeth , “ Autour de la peste noire ” Famines et épidémies dans l’histoire ddu XIV siècle annales E.S.G n°17 1962.
5- Dufoucq (ch.E), Gautier (b.j) histoire économique et sociale de l’Espagne chrétienne au moyen âge, Armand colin, paris 1976.
6- Fossier Robert, le moyen âge , le temps des crises 1250-1520, armand Colin , Paris 1983.
7- Gerbet Marie Claude, L’Espagne au moyen âge XIII-XV siècle Armand Colin, Paris 1991.
8- Marçais Georges , les villes d’art célèbres , Tlemcen ; Librairie Renouard, Laurens éditeur, Paris, 1950.
9- Mols (R), Introduction de la démographie historique des villes d’Europe du (XIV au XVIII siècle), T2, Louvain, Belgique 1954.
10- Renouard Henri , Paul Joseph , La peste noire de 1348 in population n° 03 1948.



نشأة الحركة الوطنية في المغرب



خاليد فؤاد طحطح

باحث وكاتب وأستاذ الاجتماعيات

طنجة - المملكة المغربية

Tahtah_75@hotmail.com

■ **الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

خاليد فؤاد طحطح ، نشأة الحركة الوطنية في المغرب.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو ٢٠٠٩. ص ٣٠ – ٣٢. (www.historicalkan.co.nr)

لابد من الإشارة إلى أن كتابة تاريخ الحركة الوطنية من الأمور الشديدة التعقيد لارتباط جزء كبير من الحاضر السياسي بهذه الفترة الزمنية ، كما أن تعدد الاختلافات بين الباحثين تعود أحيانا كثيرة إلى حضور الذاتية والانتماء السياسي ، كما أن الكتابات الاستعمارية تقدم أحيانا وجهات نظر مختلفة.

وإذا كان من السهل الحديث عن نشأة الحركة الوطنية بالمغرب فإنه يصعب تحديد المفهوم الحقيقي للحركة الوطنية ، فقد كان المفهوم السائد هو ربط المقاومة المسلحة بفكرة الحركة الوطنية والدفاع عن الوطن ، و دائماً كان السلاح هو الوسيلة التي اعتمدها المغاربة للدفاع عن أنفسهم خلال الفترات التاريخية التي تعرض فيها للغزو والاحتلال.(١)

لقد شكلت معاهدة الحماية التي وقعها السلطان المولى عبد الحفيظ مع السلطات الفرنسية في ٣٠ مارس ١٩١٢ نهاية لمرحلة طويلة من تاريخ المغرب المستقل ، ودخل مرحلة جديدة تمثلت في فقدان هذا الاستقلال ، مما ولد شعورا قويا بالانتماء للوطن وقد كان هذا الإحساس هو السبب الرئيسي لتصدي القبائل المغربية للاحتلال الأجنبي بواسطة مقاومة مسلحة ، ولم تستسلم إلا بعد استنفاذ جميع الوسائل المتاحة.

الإرهاصات الأولى لنشوء الحركة الوطنية

لقد بدأت الإرهاصات الأولى للحركة الوطنية سنة ١٩٢٥م مع نهاية حرب الريف ، فقد كانت ثورة عبد الكريم الخطابي وما خلفته من صدى في الخارج والداخل ، وما حققته من انتصارات على الأسبان في معركة ظهر اوبران وأنوال الأمل الوحيد للمغاربة في دحر الاحتلال العسكري بالقوة.

لكن النكسة التي خلفها استسلام عبد الكريم الخطابي بعد التعاون الاسباني الفرنسي ونفيه إلى الخارج ، خلفت تأثيرًا سلبياً في النفوس ، ورغم استمرار المقاومة العسكرية في الأطلس إلى سنة ١٩٣٣ فإنه لم يكن لها ذاك الزخم الذي كان لثورة الريف ، فكان لا بد من بديل آخر يساير المرحلة الجديدة فنشأت بوادر حركة وطنية جديدة تبنت العمل السلمي ولم تراهن على العمل العسكري.

بعد انتهاء مرحلة المقاومة المسلحة بدأت الإرهاصات الأولى للحركة الوطنية تتشكل عبر تأسيس أول تنظيم ذي طابع سياسي أطلق عليه اسم "الرابطة الوطنية" وذلك سنة ١٩٢٦م ، وقد ضم زعماء ينتمون إلى الشمال والجنوب ، مما يعني رفض الإقرار بواقع التجزئة الذي فرضته الحماية الفرنسية.

وبخلاف المقاومة المسلحة التي تركزت في البوادي ، فان المدينة ولأول مرة ستنهض للقيام بدور النضال السلمي كبديل عن النضال بالسلاح ، وقد تركزت بدايات الحركة الوطنية بالمدن الرئيسية الكبرى فاس تطوان سلا الرباط على يد طبقة تنتمي إلى البرجوازية المتوسطة التي تخرجت من المدارس العتيقة كالقرويين ، فيما البعض الأخر درس في المشرق.

وتعتبر الحركة السلفية الإصلاحية المشرقية التي تعود جذورها إلى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا كان لها تأثير كبير على الحركة الوطنية بالمغرب ، وقد ساهمت الدروس التي كان يلقيها رواد هذا التيار بالمغرب خصوصا أبو شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي في الرد على الأطروحات التي ربطت الإسلام بوضعية التخلف



مـن جهـة ، كمـا اسـتطاعت امتصـاص الصـدمة الناتجـة عـن الهزيمـة العسكرية التي لحقت بالمقاومة المسلحة من جهة أخرى.

وقد تعززت هذه الحركة بالزيارة التي قام بها شكيب أرسلان لمدينـة تطـوان سـنة ١٩٣٠م ، لقـد كانـت للتـأثيرات المشـرقية وللاتصـالات والمراسـلات التـي اسـتمرت بـين رواد الحركـة الوطنيـة وشكيب أرسلان أثرها الكبير في بلورة نضج الحركة الوطنية.

صدور الظهير البربري في ١٦ ماي (مايو) ١٩٣٠م ونشوء أول تنظيم سري مغربي

لقد كانت الصورة التي رسمتها معظم الدراسات الاستعمارية للمغـرب أنـه بلـد مقسـم إلـى كتلتـين بشـريتين متمايزتـان "العـرب" و"البربـر" والـى منطقتـين "بـلاد السـيبة" وبـلاد المخـزن" والـى نظامين"نظام عرفي" سائد في المناطق الامازيغية ، ونظام شرعي في المناطق العربية.

لقد كان الظهير البربري محاولة للتقسيم أراد بها الفرنسيون تفكيـك أسـس الوحـدة الوطنيـة والتماسـك الـديني والاجتمـاعي عبـر إخضـاع الامـازيغ إلـى قـانون المحـاكم العرفيـة والفرنسـية إن اقتضـى الحال ، والعرب للمحاكم الشرعية ، وتعود الجذور الأولى لهذا الظهير حقيقة لسنة ١٩١٤م حيث صدر آنذاك الظهير الذي اقر احترام ومراعاة النظام العرفي الجاري به العمل في القبائل التي لا توجد فيها المحاكم الشرعية.

وقـد كـان رد الفعـل المغربـي قويـا علـى هـذا الظهيـر فبـدأت الاجتماعـات فـي المسـاجد إذ لـم تكـن هنـاك مقـرات للتجمـع غيرهـا ، وتعممـت قـراءة دعـاء اللطيـف بشـكل جمـاعي ، وخـرج المصـلون فـي مظاهرات شعبية إلى الشوارع ، وكثرت الاحتجاجات والتظاهرات في جـل المـدن[٢] وعلـى إثرهـا بـدأت الاصـطدامات الأولـى مـع الاحـتلال الفرنسي ، فبدأت سلسلة اعتقالات واسعة ، و تكونت على إثرها حركة تزعمت جمع التوقيعات والعرائض المنددة ، انتهت بتكوين أول وفد مفاوض استهدف الإفراج عن المعتقلين ولقاء السلطان ، وقد تم تحقيق ذلك مقابل توقيف التظاهرات وقراءة اللطيف.

بعد هذه التطورات مباشرة تم تكوين تنظيم سري رافض للظهير البربري ومحتوياته ، وقد تكون من رجال الحركة الوطنية في المنطقة الشمالية الاسبانية والجنوبية الفرنسية في انسجام وتوافق تام.

وصول الجمهوريين إلى السلطة سنة ١٩٣١م في اسبانيا وآمال الوطنيين بالشمال

بعد الانقلاب الذي أطاح بالملك الاسباني الفونس الثالث ، تـولى الجمهوريـون السـلطة باسـبانيا ، فكانـت فرصـة مناسـبة عمـل الوطنيـون فـي المنطقـة الشـمالية علـى اسـتغلالها مـن خـلال صـياغة مطالـب إصـلاحية ، فجـاءت الرسـالة الشـهيرة لعبـد السـلام بنونـة إلـى السـلطات الاسـبانية التـي تضـمنت مطالـب كثيـرة لكنهـا لـم تخـرج عـن سياق المطالبة بالإصلاحات في ظل نظام الحماية[٣] ، فقد تم التركيز على توسيع مجال الحريات العامة والسماح بصدور المجلات والجرائد ،والدعوة إلى تكوين مجالس بلدية منتخبة ، وفتح المدارس في البوادي والثانويات في المدن ، واعتماد اللغة العربية إلى جانب اللغة الاسبانية في التدريس . وقد صدرت خلال هذه الفترة مجموعة من الصحف أهمها مجلة المغرب ، يديرها شخصيات فرنسية واسبانية متعاطفة مع القضية المغربية ويشرف عليها حقيقة احمد بلافريج ، ويكتب فيها الوطنيون أمثال عمر بن عبد الجليل ومحمد اليزيدي بأسماء مستعارة ، وفي سنة ١٩٣٣ صدرت صحيفة عمل الشعب بفاس وأشرف علي إدارة تحريرها محمد بلحسن الوزاني ، وكانت غالبية مواضيع هذه الصحافة آنذاك تدور حول الظهير البربري.

١٩٣٤ نشوء كتلة العمل الوطني وبداية العمل الحزبي العلني

بصدور قانون إلحاق المغرب سنة ١٩٣٤ بوزارة المستعمرات ، عملت النخبة المغربية على صياغة مطالب جديدة تتماشى والمرحلة لجديدة ، وفي هذا السياق برز إلى الوجود أول تنظيم حزبي علني باسم "كتلة العمل الوطني" التي عملت على صياغة برنامج الإصلاحات ، وقد تقدمت به في نفس السنة إلى الإقامة العامة والى الحكومة الفرنسية والى السلطان المغربي.

ولم يعترض برنامج الإصلاحات بتاتا على نظام الحماية بل طالب الحكومة الفرنسية أن تحترم ما جاء في منطوق معاهدة فاس ، وذلك بإلغـاء الإدارة الاسـتعمارية المباشـرة والحفـاظ علـى الوحـدة الإداريـة والقضـائية بـالمغرب[٤] . وقـد تضـمن برنـامج الإصـلاحات مجموعـة مـن المطالب التي يمكن تلخيصها في ما يلي:

- السماح بإنشاء مدارس حرة "للأهالي".
- طلب بناء مستشفيات للعلاج.
- جعـل مداخيل اسـتثمار المناجم مـن اختصـاص السـلطات المغربية.
- المسـاواة بـين الفلاحـين المغاربـة والمسـتعمرين فـي الضرائب.
- إيقاف نزع الملكية عبر التحايل أو بالقوة ولاغتصاب.

لم يؤخذ برنامج الإصلاحات الذي تقدمت به كتلة العمل الوطني بعين الاعتبـار مـن طـرف المقـيم العـام الفرنسـي بونصـو وإنمـا اكتفـى بتقـديم الوعود الكاذبة.



الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي



وصول الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا سنة ١٩٣٦م وتأسيس كتلة العمل الوطني

بوصول الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرسا تجددت آمال الوطنيين من جديد ، فقامت الكتلة بصياغة برنامج مستعجل ضم مجموعة من المطالب المستعجلة من بينها تغيير المقيم العام ، وقد نشطت الحركة الوطنية نسبيا خلال هذه الفترة خصوصا في المجال الصحفي.

وخلال تواجد كل من محمد بلحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل بفرنسا ، إذ وكل لهما أمر تقديم اللائحة المطلبية للحكومة الفرنسية ، عقد المؤتمر الوطني الأول لكتلة العمل الوطني سنة ١٩٣٦ بشكل علني وتم انتخاب علال الفاسي زعيما للحزب وعند عودة محمد بلحسن الوزاني من فرنسا لم يرضى بالتشكيلة التي أفرزتها نتائج المؤتمر أثناء غيابه ، فغادر الكتلة بشكل نهائي وأسس حزبا جديدا سماه الحركة القومية سنة ١٩٣٧م[٥] وبعد اندلاع أحداث بوفكران المؤلمة في نواحي مكناس تم اعتقاله ونفيه إلى الصحراء إلى سنة ١٩٤٦ ، وقد قام علال الفاسي بدوره تغيير اسم حزب كتلة العمل الوطني إلى الحركة الوطنية ثم إلى الحزب الوطني سنة ١٩٣٧م.

إلا أن توالي الأحداث بسرعة خصوصا في مكناس ونظرا لاندلاع التظاهرات بشكل قوي ، قامت سلطات الحماية باعتقال العديد من الزعماء الوطنيين منهم علال الفاسي بتهمة تكوين حكومة سرية مناهضة للسلطان ، وقد تم نفيه إلى الغابون ولم يعد إلا سنة ١٩٤٦م ، في حين التحق كل من احمد بلافريج وعمر بن عبد الجليل بالمنطقة الشمالية الاسبانية ، وبعد خروج محمد اليزيدي من السجن استمر نشاط الحزب الوطني في المنطقة الفرنسية بقيادته فقد عوض غياب علال الفاسي أثناء فترة غيابه[٦].

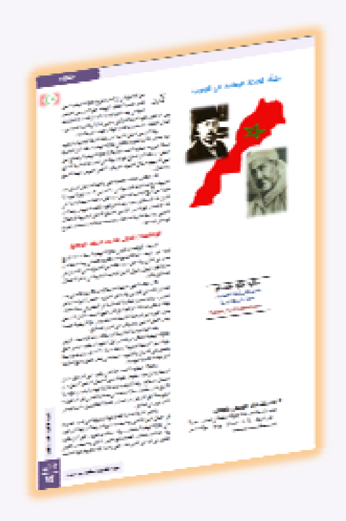
هذا فيما يخص مصير كتلة العمل الوطني أما بخصوص الحركة الوطنية في الشمال فإلى حدود سنة ١٩٣٥م كان عبد السلام بنونة الرابط الأساسي وخط التواصل الذي ارتكزت عليه العلاقات بين المنطقتين ، لكن بعد وفاته في هذه السنة ووصول فرانكو إلى السلطة في فرنسا سنة بعد ذلك(١٩٣٦م) وقع انقسام بين رؤية الحركة الوطنية في الجنوب التي عارضت نظام فرانكو[٧] في حين كان موقف أقطاب الحركة الشمالية مختلف تماما فقد ناصروا فرانكو ورأوا أن وصوله للسلطة ربما يفيد في تحقيق مكاسب جديدة ، وفعلا فقد تم تخفيف الضغط على العمل الوطني بالشمال ، فتأسس حزب الإصلاح الوطني في ١٨ دجنبر ١٩٣٦م ، وعين على رأس وزارة الأوقاف وسمح له بإصدار صحيفة الحرية.

بعد توسع نفوذ حزب الإصلاح قام المقيم العام الاسباني بيكبيدير بتشجيع المكي الناصري على تأسيس حزب الوحدة المغربية للحفاظ على نوع من التوازن ، وقد وجد في عدم ورود اسمه ضمن لائحة حزب الإصلاح مبررا لذلك ، وأصدر جريدة الوحدة المغربية[٨] لكن سياسة الانفراج والتفتح لم تدم طويلا ، فمع اندلاع الحرب العالمية الثانية تغيرت الظروف فازدادت سياسة فرانكو صرامة بتعيين اوركاز مقيما عاما جديد أعلن حظر الأحزاب والحريات العامة.

لم تستطع الحركة الوطنية المغربية منذ نشأتها تحقيق مطالبها الإصلاحية الأساسية في ظل نظام الحماية ، فانتقلت إلى المطالبة بالاستقلال بعد الحرب لعالمة الثانية ، فقد اتضح آن المدخل الحقيقي للقيام بالإصلاحات لن يتأتى إلا من خلال الحصول على الاستقلال.

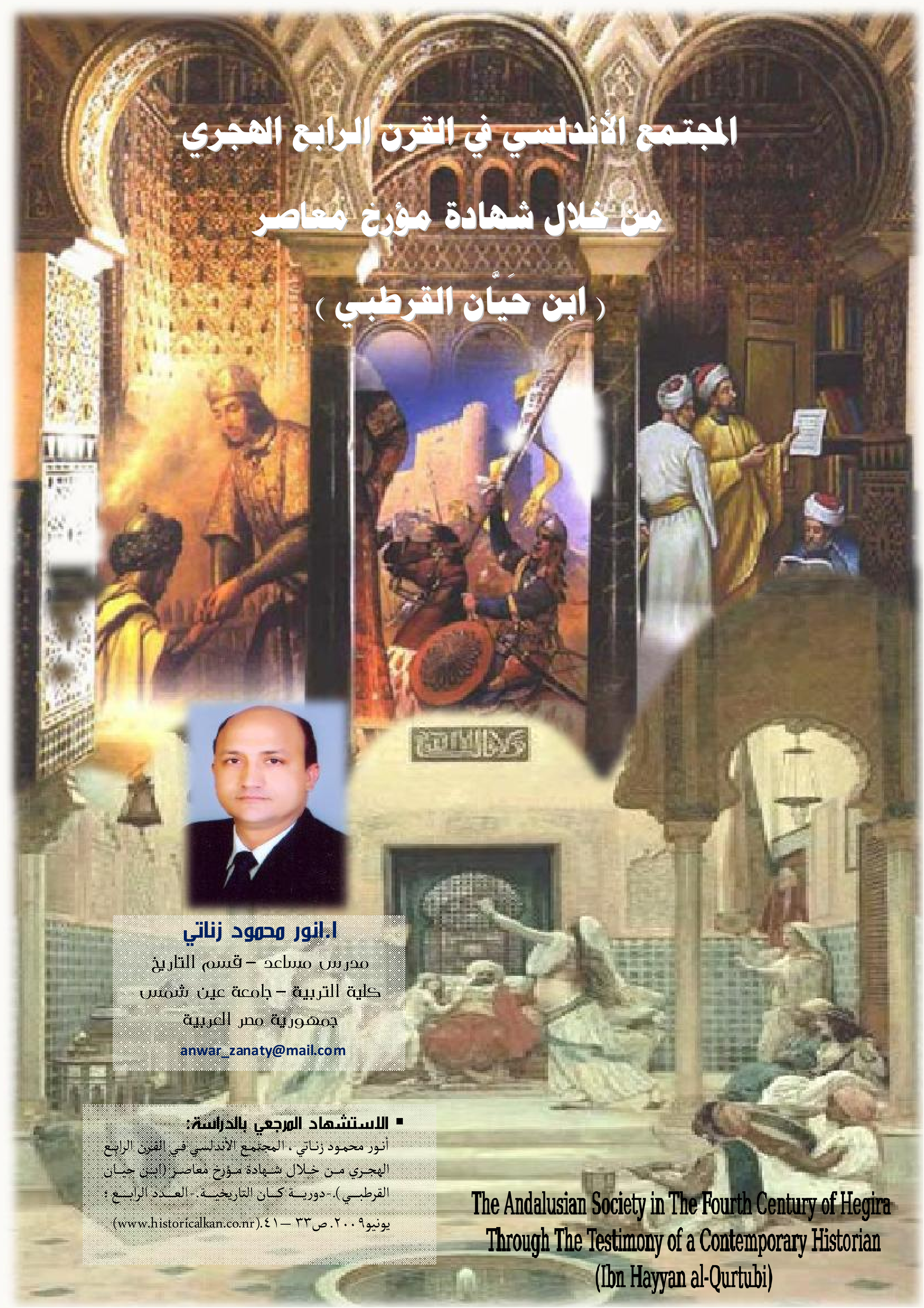
الهوامش

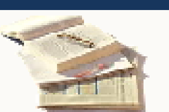
(١) أنظر: كتاب عبد الكريم غلاب (تاريخ الحركة الوطنية المغربية من نهاية حرب الريف إلى إعلان الاستقلال) ، الجزء الأول.
(٢) يراجع: مذكرات محمد بن الحسن الوزاني (حياة وجهاد التاريخ السياسي للحركة التحريرية المغربية ١٩٠٠_١٩٥٥) مؤسسة محمد حسن الوزاني.
(٣) للمزيد راجع: محمد ظريف(الأحزاب السياسية المغربية ١٩٣٤_١٩٧٥) ، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع لسياسي.
(٤) البير عياش (المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الاستعمارية) ، منشورات دار الخطابي ؛ علال الفاسي (الحركات الاستقلالية في المغرب العربي).
(٥) للمزيد حول هذا الانشقاق انظر: محمد ظريف (الأحزاب السياسية المغربية) ، مرجع سابق.
(٦) المرجع أعلاه.
(7) Robert Rezette (les partis politiques marocains), paris 1955.



من مقالات ودراسات الأستاذ خالد طحطح:

- أسطورة نهاية التاريخ من منظور فلسفة التاريخ
- الاستشراق والإسلام
- إشكالية مفهوم الزمن التاريخي في المقررات المدرسية
- منهجية ابن خلدون التاريخية
- العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث


المجتمع الأندلسي في القرن الرابع الهجري
من خلال شهادة مؤرخ معاصر
(ابن حيَّان القرطبي)
ا.انور محمود زناتي
مدرس مساعد – قسم التاريخ
كلية التربية – جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية
anwar_zanaty@mail.com
▪ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
أنور محمود زناتي ، المجتمع الأندلسي في القرن الرابع الهجري من خلال شهادة مؤرخ معاصر (ابن حيان القرطبي).-دورية كان التاريخية.-العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص٣٣ – ٤١.(www.historicalkan.co.nr)
The Andalusian Society in The Fourth Century of Hegira
Through The Testimony of a Contemporary Historian
(Ibn Hayyan al-Qurtubi)



عاش ابـن حَيَّـان[1] القرطبـي فـي الفتـرة مـا بـين (٣٧٧ – ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ – ١٠٧٦ م) ، وهـي فترة عـامرة بالأحداث السياسية حيث شـهدت سيطرة الدولة العامرية ، ثم عصر الفتنة ، وسقوط الخلافة الأُموية ، وقيام دول الطوائف ، وتفاقم الخطر النصراني ، وتعاظم دور اليهود ، واندلاع النزاعات العرقية والطائفية[2] وجميعها أحداث أثرت بلا شك في خبرته التاريخية وتركت آثاراً واضحة في ثنايا أعماله ؛ حيث رصد وبدقة مرحلة الفتن والاضطرابات المتتالية في الأندلس فصور الوضع العام بأن الرعية " عدموا الراعي العَنُوف منذ حِقَب ، فنبذوا السلاح وكلِفوا بالتّرْفيح"[3] ، ونافسوا في النَشَبِ ، وعطَّلوا الجهاد ، وقعدوا فوق الآرائك مقعد الجبابرة[4] ، وتولى الأمر " جماعة من الأغمار ، كانوا عصابةً يطير بها الفَتاءُ[5] ، ويذهب بها العُجْبُ"[6] .

وكان الوضع في الأندلس في تلك الفترة قد تغير تغيراً جذرياً ؛ فبعدما كانت الخلافة تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، جاء الحاجـب[7] المنصـور ابـن أبـي عـامر (٣٧٠-٣٩٢هـ/٩٨٠ – ١٠٠١م)[8] ، وأبناؤه من بعده[9] فانتزعوا منها السلطة الزمنية[10] ، وكانت وفاة عبد الملك (المُظَفَّر)[11] ابن المنصور العامري فاتحة لفترة مضطربة من تاريخ الأندلس[12] بدأت بعبد الرحمن (شنجول)[13] الذي " ساء تصرفه وأنفق الأموال في غير وجهها ، ونُسِب إليه أباطيل القول والفعل، واستعان بالعسكر للتحرز من نفوذ العامة[14] ، وانتهى الأمر بقتله[15] ؛ ففتح على الأندلس باباً لم يُسَد إلا بانهيار الدولة كلها ، وكان ذلك إيذاناً ببداية نهاية دولة الإسلام في الأندلس.

ويرى الدكتور محمود إسماعيل أن تلك الأزمة "جديرة بأن تشحذ العقول الذكية ، وتنتج مفكرين مخلصين يصطبغ تفكيرهم بالمرارة ويحاولون البحث عن علة ذلك الداء الذي أوتي منه بلدهم ومحاولة تكوين مشروع سياسي اقتصادي اجتماعي"[16] ، ومن هنا ظهر هذا الجيل من أبناء قُرْطُبَة من أمثال ابن حَيَّان وابن حَزْم ، وابن شُهَيْد[17] ممن حاول كل منهم في ميدان علمه تقصى الحقيقة والبحث عن علاج لمحنة بلدهم[18] ، ولذا نلمح في كتابات ابن حَيَّان التاريخية شيوع روح النقد لديه ؛ فنراه يعبر عن رأيه وبوضوح ؛ ففي أيام دولة الخليفة "سليمان المستعين "[19] ، وبداية " الفتنة البربرية " يذكر أنها كانت: "شِداداً نَكِدات صعاباً مَشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المُنْتَهَى والخاتمة ... "[20] .

ويشير ابن حَيَّان في نصوصه إلى النهب الذي حدث بقُرْطُبَة ، واجتياح التدمير بلا حساب أحياء قُرْطُبَة وهو ما كان له أبلغ الأثر في تكوين فكره السياسي ، وانعكس ذلك على كتاباته التي اتسمت بالحدة والحزن فقد كان يعتقد بأن الأندلس ينبغي أن تحتل مكان الصدارة في العالم الإسلامي ، وتشيع هذه الروح في كل كتاباته[21] .

وقد زاد من اضطراب الأوضاع في الأندلس - لاسيما قُرْطُبَة - اقتحام البربر[22] لها[23] ، ونشر الدمار بها ، ودفعت قُرْطُبَة ثمن مقاومتها أنهارا من الدماء ، وقتل الكثير من أهلها[24] ، ودخلت البلاد بعدها في سلسلة من الأحداث[25] واضطربت الأوضاع ، واستمرت النزاعات التي شارك فيها البربر والصقالبة[26] وأهل قُرْطُبَة أنفسهم ، الأمر الذي جعل ابن حَيَّان يكن للبربر كراهية شديدة تشيع على ظاهر صفحات تاريخه ، فهو يندد بقسوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية ، ورغبتهم في محق بناء الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة تهيأ لهم فيها ذلك[27] وقد تتبع ابن حيَّان تلك الأحداث وفي تفصيل دقيق.

وانتهت هذه المرحلة في سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ، حين أجمع أهل قُرْطُبَة برئاسة الوزير أبو الحَزْم بن جَهْوَر على رد الأمر إلى بني أُمَيّة[28] ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبالله بن عبد الرحمن الناصر[29] ، وتلقب بالمستظهر[30] . وبعد ذلك خرج عليه ، محمد بن عبد الملك (المُسْتَكْفي) سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، ويذكر ابن حَيَّان عن الخليفة المستكفي قوله : " ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في وِرْدٍ ولا صَدَر ، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قُرْطُبَة محنة وبلية"[31] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على متابعة ابن حَيَّان للأحداث ورصدها بصورة شبه يومية وبطريقة ناقدة.

ونتيجـة لتلـك الأحـداث تقلصـت بالضـرورة قـوة السُـلطة فـي الداخل[32] ، وهو ما انعكس أيضاً على فكر ابن حَيَّان ؛ فحاول مثل غيره من المؤرخين النابهين من أمثال ابن حَزْم أن يعمل على تحقيق وحدة الأندلس وتقوية سلطة الخلافة من جديد[33] ؛ فنراه يعتد "بالجماعة" أو وحدة الأندلس ؛ ولذا كان يستخدم كلمة الجماعة مراراً وتكراراً فيقول : " سلطان الجماعة " و" إمام الجماعة " و"أمير الجماعة"[34] .

وبينما كان البناء السياسي للأندلس يتصدع شيئاً فشيئاً أثناء فترة الصراع على الخلافة بين من ادعاها من أفراد البيت الأُموي ومن أعقبوهم من بني حَمّود[35] ، انهار البناء السياسي جملة ، وضاعت الوحدة ، وتفرق أمر الجماعة[36] ، وفي تلك الأثناء اجتمع شيوخ قُرْطُبَة والوزراء برئاسة أبي الحزم بن جَهْوَر واتفقوا على خلع المُعْتَد بالله –آخر خلفاء بني أُمَيّة - وإبطال رسم الخلافة جملة[37] ، ونودي في الأسواق والأرباض ؛ ألا يبقى بقُرْطُبَة أحد من بني أُمَيّة ، وألا يكنفهم أحد من أهل المدينة ، وانتهى بذلك أمر بني أُمَيّة في الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم[38] ، وأثرت تلك الواقعة تأثيرا بالغاً في فكر ابن حَيَّان ، وجعلته يتابع مصير دويلات الطوائف ، ويرصد العديد من الوقائع ، وركز على انفراط وحدة الأندلس وتفرق ملكها إلى دويلات طائفية[39] ، واقتسامهم ألقاب الخلافة ؛ فوصفهم ابن حَيَّان بأنهم : " أمراء الفرق الهمل[40] الذين هم ما بين فشل وَوَكَل"[41] .

أما في قُرْطُبَة فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة ، وأسندوا الأمر إلى ابن جَهْوَر ، وكان مشهوراً عندهم بجدارته وكفاءته لتقلد هذا المنصب[42] ، وابتكر لأهل قُرْطُبَة نظاماً جديداً للحكم قائماً على الشورى ، ورأى ابن حَيَّان أنه لم يستبد بالسلطة كما استبد غيره من ملوك الطوائف ، وإنما كون مجلساً للحكم من شيوخ أهل قُرْطُبَة وانتخب أميناً لهذا المجلس ، وكان لا يصرف أمراً إلا بعد الرجوع إلى جماعة الشيوخ هؤلاء[43] ، وكان من جراء ذلك أن اختار ابن حَيَّان المقام في قُرْطُبَة في ظل الجَهاوِرَة لأنهم في نظره خير بيئة يستطيع فيها أن يسجل أحداث عصره ، وفيها استطاع أن يعبر عن سلبيات المجتمع الأندلسي خاصة بعد تمزق الأندلس على هذا النحو ، وقد انتقد ملوك الطوائف في عصره خاصة في تصديهم لبعضهم البعض ، واستعانتهم بالنصارى لتنفيذ مخططاتهم.

وبصفة عامة –وكما يرى الدكتور محمود إسماعيل –أن "الانتكاسات التاريخية في حياة الشعوب ليست شراً مستطيراً على طول الخط ؛ بل قد تسفر عن ايجابيات بصدد الفكر وتطوره ، إذ غالباً ما تفضي إلى استنفار النخبة المفكرة لاستقراء أسباب وعلل تلك الانتكاسات"[44] .

وعلى الصعيد الاقتصادي وبعد انهيار وسقوط الخلافة حدثت الانتكاسة وعم الكساد الاقتصادي[٤٥] وتدهور العمران ، وحفل العصر بالأزمات إلى حد المجاعة وأفل نجم قُرْطُبَة عمرانياً وبشرياً ، وصور ابن حَيَّان الوضع قائلاً : "... وطمست أعلام قصر الزهراء[٤٦] ..... فطوى بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها ، إذ كانت جنة الأرض ، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك ، وأوهن بنية من بعوضة النمرود ، والله يسلط جنوده على من يشاء ، له العزة والجبروت"[٤٧].

وتحولت المدن التجارية المزدهرة إلى قلاع وحصون عسكرية[٤٨] الأمر الذي لقي تنديد ابن حَيَّان ، ويشيع ذلك في صفحات كتابه "المتين" ومثال على ذلك ما أشار إليه في فطنة بالغة عن سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة الوضع المتردي في بمدينة بَطَلْيَوْس[٤٩] نتيجة النزاع بين المعتضِد بن عَبَّاد والأفْطَس ؛ فقال : " بقيت بَطَلْيَوْس مدةً خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عَبَّاد هذه بفتيان أغمارٍ إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذ . فاستدللت بذلك على فشو المصيبة[٥٠] " ؛ فتوقع برؤية ثاقبة عما سيحل بعد ذلك من كوارث اقتصادية.

وانتشرت في الأندلس " الكُوَر المجندة "[٥١] نتيجة لكثرة الحروب الأهلية ، فنزل جند دمشق في كورة إلْبِيرَة[٥٢] ، وجند حَمْص في كورة إشبِيلِيّة[٥٣] وجند الأردن في كورة مالطة ، وجند قِنَّسرين في كورة باجة ،[٥٤] وبعضهم بكورة تُدْمِير[٥٥] ، فهذه منازل العرب الشَّاميين ، وبقي العرب والبربر والبلديون شركاءهم ، كما تعاظم "إقطاع التجار" نتيجة شرائهم بعض إقطاعات الخلفاء والولاة[٥٦] . وفي ظل هذا الحكم اضطرب الوضع الاقتصادي ، واشتد الغلاء وانتشرت الأوبئة ، وعمت الكوارث ، وانعدم الاستقرار والأمن[٥٧].

ولجأ الملوك من أجل إرضاء نزواتهم وتحقيق لذاتهم إلى إثقال كاهل رعاياهم بالضرائب[٥٨] ؛ فانعكس ذلك الوضع على كتابات ابن حَيَّان فوصف ذلك الوضع المتردي في مرارة واضحة بقوله " فما أقول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميعغذيتها ؟ هل هي إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ...

أمور لو تدبرها حكيم إذن لنهى وهبب ما استطاعا[٥٩]

وعلى الصعيد الاجتماعي شهد المجتمع الأندلسي في ظل الخلافة والحِجابة مرحلة المزج والانصهار بين العرقيات المتنوعة ليحدث نوع من التجانس لم تشهده الأندلس من قبل ؛ إلا أن السخائم العرقية والإقليمية عادت مرة أخرى لتؤثر سلبياً في هذا التجانس ، ولتمزق وحدة الأندلس من جديد[٦٠] بظهور النزعة العنصرية ؛ ولذا لم يغب عن ابن حَيَّان أيضاً أن يعبر عن تلك النزعة في الأندلس في تلك الفترة وذلك من خلال حديثه عن اجتماع خازني بيت المال في عهد الأمير محمد ، وهما " عبد الله بن عثمان بن بسيل ، ومحمد بن وليد بن غانم " واستدعى الأمر أن يكتب ابن غانم كتاباً قدم نفسه فيه ، فما كان من ابن بسيل إلا أن قام له : " والله لا أطبع كتاباً تتقدمني أنت فيه ، وأنا شامي وأنت بلدي "[٦١].

ويشير أيضاً إلى الفتنة بين اليمية والمضرية فقال : " وكان ابتداء فتنة أهل الجزيرة وانبعاثها بالمعصية بين اليمانية والمضرية أن أطلق بعضهم على بعض الغارات واستحلوا الحرمات وتخلقوا بأخلاق الجاهلية ، واتخذوا الحصون والمعاقل المنيعة فارتقوا اليها وأذلوا البسائط "[٦٢].

وقد كانت هناك طبقة الأُمراء والحكام وذوو الثراء وأصحاب الوظائف الكبرى ، وكانوا يمتلكون ثروات طائلة تمثلت في الضياع الواسعة ، والقصور الخاصة ، وتفننوا في صنوف من البذخ[٦٣] ، والناظر إلى روايات ابن حَيَّان يجد أن الغالب عليها تصويره مثالب الطبقة الحاكمة ، ولم يغب عنه تصرفات الحكام وشغفهم بالبناء إلى حد الإسراف والبذخ ويتضح هذا .فيما نقله عن معاوية بن هشام .عند ذكره لقيام الأمير محمد بتحسين قصر الخلافة فيقول : أنه بلغ من تحْسِينه إياه مبلغاً " تَوَفَّتْ به الكمال ، واكتسبت الجمال ، فشفيت به أدواء النفوس ، وضرب بحسنها المثل "[٦٤].

كما رصد ابن حَيَّان انحراف الحُجاب والوزراء ، واستطاع أن يلقي الضوء حول طبيعة حياة الأمراء من خلال المعايشة ، وقد أشار إلى ما أصاب أهل الأندلس من نفاق وقلة وفاء وميل مع من يبقى في المنصب ، كما لم يغب عنه أن يصور بعض تجاوزات الولاة وظلمهم كما صور دور الجواري في بلاط حكام الأندلس ، وانتقد ما كان يقمن به من دسائس وهذه الرؤية النقدية ما كانت لتحدث لولا ظروف عصره التي دفعته إلى ذكر ما وصل إليه حال الأندلس من انقسام وتفكك[٦٥].

ونراه لا يغفل الإشارة إلى حال " مشيخة الشورى " أواخر عهد الخلافة الأُموية بالأندلس ، ويتضح هذا عند حديثه عن الخليفة هشام المُعْتَد الذي يقول عنه : " وزاد في رزق مشيخة الشورى من مال العين ، ففرض لكل واحد خمسة عشر ديناراً مشاهرة ، فقبلوا ذلك على خبث أصله ، وتساهلوا في أكل ما لم يستطبه فقيه قبلهم "[٦٦].

وكانت هناك طبقة أخرى تعاني ألوان العسف والتنكيل ، ويطلق عليهم لقب العوام وهم الفئة المهمشة في التاريخ[٦٧] ولا يأتي ذكرهم في الغالب الا عند التأريخ للكوارث كالمجاعات والأوبئة ، أو من خلال ذكر حركات المعارضة التي جري تهميشها بالمثل ودمغها بأبشع التهم والنعوت[٦٨]. وتتكون هذه الطبقة من الفلاحين في الريف والحرفيين والعمال في المدن[٦٩] وأغلبها من البربر أو المولدين[٧٠] ، أو الموالي[٧١] ، وكان على هذه الطبقة أن تتحمل أعباء ضرائب باهظة كانت تُفرَض عليها وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة[٧٢]. وكان لهذا التدني أثره على ابن حَيَّان في معارضته لهذه المظاهر في كتبه وتنديده بفاعليها[٧٣] ، ويقول واصفاً أحد هؤلاء المغالين في جمع الضرائب : " ونعي إلينا فلان ، وكان فظاً قاسياً ظنيناً جشعاً جباراً مستكبراً قليل الرحمة نزر الإسعاف زاهداً في اصطناع المعروف ، أحد الجبابرة القاسطين على الرعية ، المجترين على رد أحكام الشريعة وكان مهلكه –زعموا– من طاعونة طلعت عليه ببعض أطرافه ، فتجاسر على قطعها بفرط جهالته ، فمات معذباً في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد"[٧٤].

تعددت مجالات المعرفة الاجتماعية والثقافية التي طرقها ابن حَيَّان عكست لنا ألواناً من الحياة الأندلسية الاجتماعية والثقافية ، ويعتبر تاريخه الكبير أدق وثيقة مفصلة للحياة الثقافية والفكرية للأندلس ؛ فنراه يرصد العديد من الظواهر الاجتماعية عندما يصور شرائح المجتمع بما فيها من صور الوشاية ، والذم ، والمكائد ، وفساد القضاة " وقد انطبقت أرض الأندلس نفاقاً واستعرت خلافاً ذلك باغفال من كان قبله لحسم من كان ينجم من قرن النفاق حتى تفاقم الأمر بعد



تطاوله ، وتفاوت الشيء بعد قرب تداركه واستعجل شر عمر بن حفصون جرثومة النفاق وانتزى أكثر بلاد الأندلس اقترانه.

ومن الأقوال التي ذكرها ابن حيان ، والدالة على وجود شهادات الزور في الأندلس ، حديثه عن " محمد بن غالب " من أهل إستجة ، كان قد طلب من الأمير عبد الله بناء حصن بقرية ، شنت طرس " ، وهدفه من ذلك حماية الطريق ، ومنع المفسدين وقطاع الطرق من إلحاق الأذى بالمسلمين ، وعندما تم بناء الحصن حسده ، بنو خلدون وبنو الحجاج " وقامت الحرب بينهما ، وادعى بنو حجاج على إثر هذه الحرب أن محمد بن غالب أغتال رجلاً من قرابتهم ..... واستدعوا عليه الشهادات المزورة.

كما عكس الصراع الذي كان يدور بين الفقهاء والخليفة وكيف أن الخليفة كان يكره أن يكون القاضي قوياً ، وهو ما صوره تحت عنوان"نوادر من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن ". ومن هذه النوادر أيضاً نستشف النفوذ القوي الذي كان يتمتع به الفقهاء في الدولة ، والدليل على ذلك أن الأمير عبد الرحمن قلما يولي قاضياً إلا عن مشورة يَحْيىً بن يَحْيىً اللَّيثِي وفي ذلك يقول ابن حَيَّان : " وغلب يَحْيىً بن يَحْيىً جميعهم على رأي الأمير عبد الرحمن ، وألوى بإيثاره ، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزم الوالد لأبيه ، فلا يستقضي قاضيا ، ولا يعقد عقدا ، ولا يمضي في الديانة أمرا ، إلا عن رأيه وبعد مشورته".

كما صور لنا بخل الأمير عبد الله بن محمد ، وشيوع حوادث الرشوة بالغصب في عهده ، كما صور بعض معايب عبد الرحمن الناصر وتبرز استهتاره باللذات وتغلظ العقوبات ، وتهوين الدماء ، والعبث في الرعية. ونرى ذلك أيضاً عندما يتحدث عن النساء وشغف الأمير عبد الرحمن بهن فيقول : "كان الأمير عبد الرحمن مُستهتراً بالنساء ، شديد الميل إليهن ، والإعجاب بهن ، والبذل لهن ، والاستكثار منهن ، والهوى فيهن ".

كما سجل مظاهر الاحتفال بالأعياد والمناسبات وكيف كان الشعراء والخطباء في هذه الاحتفالات " تتناغى فيما ترتجل من خطبها وتنشد من أشعارها فتكثر وتجيد" ، أما الاحتفال الرسمي من قِبَل الخلفاء بالأعياد فقد أطنب في وصفها ابن حيان.

ولم يغب عنه أن يعبر عن مظاهر البذخ التي كانت تتسم بها حفلات استقبال الحكام الأندلسيين لمن يفد عليهم ، ولذلك يقول عن يوم استقبال الخليفة الحكم المستنصر لجعفر بن على ومن معه إنه : "أحد الأيام العقم بقُرْطُبَة في اكتمال حسنة وجلالة قدره ، خلد حديثه زمناً في أهلها ، قاضياً من عجب الجلالة ، وكل شيئاً فإلى انقضاء إلا إله الأرض والسماء تعالى جده.

ومن الصور الاجتماعية التي اهتم ابن حيان بتسجيلها في تاريخه حفلات المجون والتبذير للأمراء والخلفاء والوزراء ؛ منها على سبيل المثال حادثة احتفال المأمون بن ذى النون بإعذار حفيده يحيى ، تلك الحادثة التى احتلت عدداً غير قليل من الصفحات ، يقول في الإعداد لها:

" وأمر .المأمون .بالاستكثار من الطهاة والاتقاء للقدور ، والإتراع للجفان ، والصلة لأيام الطعام ، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام ، والإغراب في صنعة ألوانها ، مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية ، والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد ، وحلو وحامض ،والمماثلة بين رائق أشخاصها ، وبين ما توعد فيها من نفائس صحافها .... " .

وكان المدعوون إلى هذه الاحتفالات التي استمرت أياما أشتاتا من الناس من صفوة وعامة ، وقد لقي الجميع من الاحتفاء بهم والتكريم لذواتهم ما يمكن أن يشابه ترتيب إدارات المراسم والتشريفات بالقصور الملكية ووصف ابن حيان طائفة القضاة على المائدة في غرفة أسرف وفي وصفها ، فإذا انتهوا من الطعام يكمل الجانب التالي من رحلة الدعوة على هذا النحو :

" ولما فرغت تلك الطائفة جئ بهم إ لى المجلس المرسوم لوضوئهم وقدم ايضا بوطاء الوشى الرقوم بالذهب ، وعلقت فيه ستور مثقلة مماثلة ...... ثم نقلوا إلى مجلس التطييب ، أفخم تلك المجالس ، وهو المجلس المطل على النهر ، العالى البناء ، السامى السناء ، فشرع في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة بفلق العود الهندى ، المشوبة بقطع العنبر الفستقى ، بعد أن نديت أعراض ثيابهم بشابيب الماء الورد الجورى ، يصب فوق رؤوسهم من أوانى الزجاج المجدود ، وفياشات البلور المحفورة".

والذي يعنينا من هذا النص أمور كثيرة ، من أهمها الإسراف ، والذى يتابع القصة بأكملها حسبما رواها بتفصيلاتها ومجالس القصف فيها وإنشاد الشعر في مناسبتها وما قد خلعه الأمير عليهم برغم تدنى أشعارهم ، كل ذلك كان هدفا من أهداف أبى حيان في تعرية ملوك الطوائف الذين يقتلون المال والبشر ، ويقاتل بعضهم بعضاً والعدو متربص بهم ، متحفز على أبوابهم.

وكشف ابن حيان عن دور العنصر النسائي في بلاد الأندلس ، مثلما صور ما كانت تقوم به جارية الخليفة الناصر " مرجان " ، من حيل ضد السيدة فاطمة القرشية بنت أخى جده المنذر بن محمد الأمير ، وكان الناصر يقول لجاريته مرجان هذه : " فاقتادينى إلى قصرك فإني طوع يمينك وحبيس هواك ، وكان ذلك على إثر الحيلة التى دبرتها لصرفه عن ابنة عمه فاطمة القرشية ، ويقول ابن حيان عن هذه الجارية معتمداً في ذلك على ما قاله القبشى : فتقدمت لديه جميع نسوانه حتى كانت كرائمه وحظاياه لا يصلن إلى مطالبهن ورغباتهن من الناصر لدين الله إلا بشفاعة مرجان لهن ، وتوسلهن بها لديه للطف منزلتها وغلبتها على قلبه ....

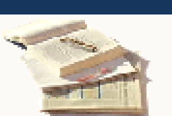
وصور لنا مكانة الجواري في المجتمع الأندلسي فيورد لنا قصة الجارية مرجان التي كانت من أحب الجواري إلى قلب الخليفة الناصر وأنجبت له ابنه الحكم ، فكانت أثيرة الخليفة لا يسلو بدون رؤيتها ولا يكتم علها سراً ، وإذا مرض حُمِل إلى بيتها.

وقد أمدنا ابن حيان بسيل من النصوص ، على جانب كبير من الأهمية وتكشف النقاب عن الوضعية الاجتماعية لعدد كبير من فئات المجتمع الأندلسي ومنهم على سبيل المثال: الفقهاء حيث أماط اللثام عن النفوذ الاجتماعي –والسياسي بالطبع –للفقهاء ، وكيف كان الأمراء والخلفاء يخشون تقلب الفقهاء عليهم مثلما أورد في ما نقله من كتاب الاحتفال ما يشير إلى أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم كان يكره تألب الفقهاء عليه ...... ويقلق منهم ويسميهم سلسلة السوء ".

وابن حيان لا يغفل أيضاً ذكر الآثار المترتبة على النواحي السياسية من إصابة المؤدبين وكساد الناحية التعليمية للصبيان والمؤدبين ، هذا فضلاً عما تكشف عنه روايته من قتل المغنيين والطنبوريين ، وهذا يشير إلى ألوان البذخ واللهو في الأندلس في " فترة الفتنة ".

واستطاعت روايات ابن حيان التاريخية أن تكشف عن إزدواجية الشخصية الأندلسية ، وذلك عند حديثه عن " عبدالله بن عاصم"





صاحب الشرطة بقرطبة ، على عهد الأمير محمد ، الذي مر به ، يوما فتى حسن الشارة يترنح سكراً ، فأمر بأخذه ، فوجدت به رائحة الشرب ، فأمر بجلده ، فلما جُرد للجلد أقبل على ابن عاصم ، فقال له : ناشدتك الله ، من الذي يقول:

إذا عاب شرب الخمر في الدهر عائب فلا ذاقها من كان يوما يعيبها

فقال له ابن عاصم : أنا ، وأستغفر الله منه ، فقال له الفتى : فلا تستحيه عن وجهه حين تغرى بالشرب وتحض عليه ، ثم تكشف عنه وتعاقب فيه ؟ فأفحمه ودرأ الحد عنه.

وما أكثر ما ترد في ثنايا تاريخ ابن حيان ملاحظات وتعليقات نفذ بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة في المجتمع الأندلسي ، هذه العيوب التى أدت شيئا فشيئاً إلى تحللها وتصدعها ، وكأنه السرطان الخفي يستشرى في باطن جسد ظاهره الصحة والقوة . وهي عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر ، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية . غير أن الأمجاد العسكرية والقوة الظاهرية كانت تلقى عليها حجابا كثيفا سترها عن الأنظار . لقد كانت الفتنة تحثم تحت هذه القشرة الظاهرة من القوة والعظمة ، فلما تصدعت واجهة الدولة بعد وفاة المظفر بن المنصور بن أبى عامر إذا بهذا البنيان الشامخ ينهار في لحظات ، وإذا ينير أن الفتنة المبيرة تندلع معلنة بداية نهاية الإسلام في الأندلس.

كما رصد سوء الأحوال الاقتصادية المترتبة على المنازعات والحروب خاصة بين ملوك الطوائف ؛ فنراه يصف ما حدث بمدينة بَطَلْيَوْس نتيجة النزاع بين المعتضِد العَبّادي والأَفْطَس بأنها " مصيبة" ، حيث " خلت الدكاكين والأسواق ". ويصف القسوة التي استخدمت في جمع الضرائب غير الشرعية بمدينة شاطبة بكل أنواع العنف حتى تساقطت الرعية ولم تصمد في وجه هذا الظلم" . ومن هنا يتضح مدى اهتمام ابن حَيَّان برصد الجوانب الاقتصادية دون الاقتصار على الجانب السياسي فقط .

كما أرخ للوضعية الجبائية والمالية مثل ما أرخه حول الوضعية الجبائية والمالية للدولة العامرية ؛ فيقول ابن الخطيب في أعمال الأعلام : " ذكر أبو مروان خلف رحمه الله في كتابه ...المسمى بأخبار الدولة العامرية ... فقال : " كان مبلغ جباية آخر أيام المنصور أربعة آلاف دينار سوى رسوم المواريث بقُرْطُبَة وكور الأندلس كانت تجري على الأمانة وسوى مال السبي والمغانم على اتساعه في هذه وسوى ما يتصل به السلطان من المصادرات ومثل ذلك مما لا يرجع إلى قانون ، قال: وكانوا يعتدونها أربع بيوت تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزيادة والنقصان ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفا إلى أن يدخل شهر يونيه العجمي فيتضاعف فيه الإنفاق من اجل الاستعداد لغزو الصائفة فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه السلطان في بيت ماله مع غير ذلك من ضروب استفاداته ، كما تعرض للحديث عن أهل البيوتات الذين اتخذوا الضياع الواسعة منهم بني حجاج الذين امتلكوا في " باديتهم بالسند المنسوب إليهم على خمسة عشر ميلاً من الحاضرة " ، وكذلك " الإلهانيين والمعافريين وبني خلدون الإشبيليين اللذين اكتسبوا الضياع سواء بالبادية أو الحاضرة " ، ويكشف ابن حيان النقاب عن قرى بأكملها تملكها " كريب بن عثمان " بكورة مورو ومثله أيضاً كان سليمان بن محمد الشذوني.

وتعرض أيضاً لذكر " الذكوات والصدقات " التي يتكلف الجباة بتحصيلها من الفلاحين وحتى تتمكن الخلافة من تغطية نفقات الحملات الحربية استحدثت " مغرم الحشد " الذي عم الجميع باستثناء المطوعة. كما تعرض ابن حَيَّان لرصد المجاعات والأوبئة ؛ بل ويفسر سببها بدقة.

أما الحالة الثقافية فالعجيب أنه وعلى النقيض من الوضع السياسي ؛ لم تكن الثقافة الأندلسية يوماً أشد إشعاعاً ، وأقوى خصوبة كما كانت عليه في تلك الفترة ففي الغالب تكون الأزمة "تحدياً" يوجب " الاستجابة " —حسب مفهوم " أرنولد توينبي" وغالباً ما تناط النخبة المفكرة بريادة الاستجابة على الصعيد المعرفي كما يرى الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل [(٧٥)].

ويجمع الدارسون على ازدهار الحركة الثقافية في عصر ملوك الطوائف وذلك راجع إلى تداعيات وظلال العصر السابق ، بما يؤكد أن الظواهر الفكرية في تطورها وفي أفولها تحتاج إلى فترة زمنية طويلة[(٧٦)].

هذا وقد مجد الأندلسيون العلماء والفقهاء ورجال الأدب ، وكان لهؤلاء القيادة والريادة في المجتمع الأندلسي. وقد تعصب ابن حَيَّان للمذهب السني المالكي —وهو المذهب الرسمي للدولة — الذي دخل إلى الأندلس في حياة الإمام مالك نفسه ، وذلك بفضل من درسوا عليه من تلاميذه الأندلسيين ونقلوا كتابه " الموطأ" ، وهم على التوالي الغازي بن قيس(ت ١٩٩/٨١٥) ، وزياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون ، (ت٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) ، وهو أول من أدخل مذهبه في الأندلس ، ويَحْيىَ بن يَحْيىَ اللَّيْثِي (ت٢٣٤هـ / ٨٤٨ م) ، وساهم غيره من الفقهاء في انتشار المذهب المالكى أيضاً مثل : عيسى بن دينار الغافقي الطليطلي(ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، ويكمن أثر المذهب المالكي في الأندلس بكونه أهم المحاور التي دارت حولها المؤلفات الأندلسية المبكرة ، شرحا وتوضيحا لكتاب الموطأ ، ودراسة لرجاله وأسانيده ، ودفاعا وانتصارا له ، وتأليفا حول المذهب بشكل عام وكان ابن حَيَّان من أشد المتحمسين لذلك المذهب ، وانعكس ذلك بوضوح على كتاباته ويظهر ذلك في هجومه على أتباع المذاهب الأخرى أصحاب " الطائفة الخبيثة " " المارقة " مثل حركة ابن مسرة " الظنين المرتاب " و " المرائي بالعبادة " الرابض بالفتنة " " القادح في السُنة " . واعتبر المعز لدين الله الفاطمي " صاحب إفريقية الممد في الضلالة " ، ونظر إلي الفواطم عموما باعتبارهم "أهل الضلالة ". كما تحامل على أمراء المغرب الموالين للفاطميين ، فنعت الحسن بن قنون " بالمارق " ولعن صاحب نكور " قبحه الله " ووصف النكوريين " الفاسقين ".

كما تناول مشكلة الإمامة والخلافة ؛ فكان يرى ضرورة أن يكون " خليفة المسلمين من قريش ، وحيث أن الأمويين من قريش ، وكانوا بالفعل ممثلين في شورى الإمامة ، فان الخلافة حق من حقوقهم ، بل يزيد فيجعل خلفاء بني أُمَيّة امتداداً طبيعياً لخلافة الراشدين فأقاموا رسوم السُنة ، وأحرزوا وظائف الديانة".

وكان يرى ثلاث مهمات كبرى للخليفة : عسكرية وإدارية ومدنية ؛ ولذا نراه يصف حال أهل طُلَيطِلَةَ وما نالهم من الذل على أيدي العدو الإفرنجي بعد استقرار دول ملوك الطوائف أنهم " عدموا الراعي العنوف " ، ويقول في معرض مدحه لمسلك أبي الحزم ابن جَهْوَر في إدارة الأمور بقُرْطُبَة إن أهل قُرْطُبَة " ولو من الجماعة أمينها المأمون عليها" ؛ أما اللقب الذي يطلقه على الناصر " مجمع الفرقة " ؛ فالقيام بجهاد

العدو هو الذي جعله معجبا أشد الإعجاب بالناصر والمستنصر والمنصور العامري وابنه عبد الملك المُظَفَّر ، ويجعل الجهاد مطلب أساسي للأمة في مناطق الثغور ، إذا لم يلتقطه الإمام ويدفع به من القوة إلى الفعل فمن شأن ذلك الإمام أن يسقط ، فإذا قام غيره بتولي هذا الدفع ؛ فإن الأمة تلتف حوله ويصبح هو صاحب السلطة الفعلية في البلاد . وما حدث سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م إثر وفاة الحكم المستنصر وتولي ابنه هشام المؤيد الخلافة نظرياً ، خير دليل على ذلك ؛ حيث تولى الأمر المنصور العامري لأنه قام بالجهاد ملبيا لطلب الأمة وهيأه لإمامة المسلمين فأورد عنواناً لذلك وهو : " ذكر دفاع ابن أبي عامر العدو ، وقيامه بالجهاد دون الجماعة وتوصله بذلك إلى تدبير الملك ".

كما أدلى بآرائه في حركات المنتزين –الثائرين -في الأندلس والمغرب ، وهي في نظره حركات خارجة عن السنة والجماعة في الأندلس ، فمن هؤلاء المنتزين من كان هدفه " السعي في الأرض بالفساد والاستحلال لغنائم المسلمين ، ومنهم من كان يسعى إلى "قطع السبيل وإشاعة الفساد في الأرض وسفك الدماء.

ويتحدث ابن حيان عن " سعيد بن سليمان بن جودى " أمير العرب المنتزين بمدينة غرناطة ، ويذكر عنه ما قاله ولده عبد الله فيه من شغفه بالجوارى ، وأنه كان : مقدماً لهن على جميع لذاته ، ويمضي في ذكر شغفه بشرائهن وأشعاره فيهن ويبدو في رواية ابن حيان هذه التلازم بين الظروف السياسية وثورات المنتزين ، والآثار المترتبة على ذلك من حيث التفكك القيمى والأخلاقى الذى أصاب المجتمع في بعض أنماطه .

وقد تعرض لتراجم العلماء وقد قل من تجده متبحراً في علم واحد أو علمين ؛ بل فيهم من يعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين [(٧٧)] ولم يقتصروا على العلوم النظرية بل كانت لهم دراسات في علوم عملية [(٧٨)] كالفيزياء ، وعلم العقاقير ، والزراعة (علم الفلاحة) والذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة ، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم في النباتات والتربة [(٧٩)].

وهذا التعدد المعرفي لعب دوراً مهماً في إثراء فكر ابن حَيَّان خاصة وأنه كان مكثرا من الاطلاع على تلك الكتب ، وسهلت له تلك النهضة العلمية الاطلاع على تاريخ الممالك النصرانية أيضاً ، مما يرجح أنه كان يعرف عجمية الأندلس وأن " ما أورده ابن حَيَّان من أخبار عن إسبانيا [(٨٠)] النصرانية ينم عن معرفته الدقيقة بكل أحوالهما وأنساب حكامها [(٨١)].

وكان لكثرة مطالعاته التاريخية أن تجنب الروايات الخرافية والأسطورية ولم يشع ذلك في كتاباته ؛ مما كون وعى تاريخي ناقد لديه ومكنه من أن يصور ما وُجد في البلاط الأندلسي من دسائس وفتن بين الحجاب والوزراء تصويراً نقدياً لا يعتمد على القص فقط.

ومن الناحية الثقافية : قام ابن حَيَّان بالترجمة لمشاهير الأدباء والشعراء وأعلام الفكر ، وأورد الكثير من نظمهم سواء كان نثراً أو شعراً ؛ ثم يقوم بعرض جمل من أخباره مثل ترجمته لعباس بن فرناس الذي " نادم الأمير عبد الرحمن بن الحكم وجالسه ، وصديقه مؤمن بن سعيد الشاعر ، وكذلك ترجمته للشاعر يَحْيىً الغزال وقد وصفه وصف الناقد البارع الحصيف فقال:

" ......وكان مقتدراً على الشعر ، سلس الطبع فيه ، يُصرفه في ضروب الشعر بحلاوة لفظ ، وملاحة معنى وغُزر مادة . وأكثر شعره محمول على الدعابة والهزل ، فلذلك خرج بعضه بألفاظ عامية مبتذلة . وهو فيما روى ونقح محسن مُجود وكان على نصاعة أدبه ، عالماً مُفتنا جزلا ، متكلماً عريضاً مُندراً ، كبير الغور ظريف الخبر ، خالد الذكر في الأعصر البائدة ".

ونجده يتعرض لذكر مجالس الغناء ، و" خبر زرْياب " ، و"المطربين ببلد الأندلس " ، ويروي ذكر جلساء الأمير عبد الرحمن بن الحكم وسُماره الدانين إليه من شعراء أهل زمانه وأدبائهم ، ونبذ من نوادرهم وأشعارهم مما خالطه من أخبارهم .

ويسرد أخبار الشعراء ، مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم وبعض ما سقط إلينا من أماديحهم له من ذلك " خبر يَحْيىً بن حكم الغزال في إرساله إلى ملك الروم ".

ويشير أيضاً إلى شغف الأمير عبد الرحمن بن الحكم بعلم الهيئة ، ومطالعته للكتب القديمة ، صاغياً إلى علم التنجيم ، واقفاً على سنن التعديل ملياً ، يسأل علماءه عن الأدلة ، مولعاً بالوقوف على أقوالهم في أحكامه ، مقرباً لحذاق المنجمين في زمانه ، آنساً بهم ، محسناً إليهم ، مستريحاً إلى تعديلهم لأوقات حركاتهم ، وإنذارهم من طريق أقضيتهم بمساعده ومناحسه ......وكان من مشهور في زمانه ومن قبله عباس بن فرناس ، ذو الأنباء الشنيعة ، وعبد الواحد بن إسحاق الضَّبِّيّ ، ذو النوادر البديعة ، ومروان بن غزوان ، ومحمد ابن عبد الله ، وعبد الله بن الشمر بن نمير نديم الأمير ، السابق في حلبتهم الزائد في تمام خصاله الأدبية على جماعتهم . فقد كان فيما ينتحلونه من علمهم إماماً لهم ، معدوداً في وجوههم ، يعول الأمير عبد الرحمن عليه في تمييز . غيب ما يطرقه من شؤونه ، ويساوره من خطوبه ، فلا يزال يبلو من صدق إصابته ، وصواب رجمه ، ما يطول منه تعجبه ، ويكثر من أجله تسآله ، فله معه ومع من سمينا من الوزير عبد الرحمن بن يَحْيىً الأصم ، والنعمان بن المنذر وغيرهما من رجالهم ، وما لدى أصحابه وغيرهم في هذا الباب نوادر مستغربة.

كما أشار إلى أن عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ كاتباً خاصاً له وسار الأمراء والخلفاء من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة.

ويحوي كتاب المقتبس بين دفتيه أيضاً تراجم عديدة لطبقات الفقهاء الأندلسيين منذ فتح الأندلس وحتى عصره معتمداً على مصادر متعددة ، كما رصد لنا ابن حَيَّان انتقال الفتاوى بالأندلس من رأى الأوْزاعيّ ، وأهل الشَّام بالكلية " فحولت إلى رأى مالك وأهل المدينة . وانتشر رأى مالك بقُرْطبَة ، وعم بلاد الأندلس ".

ورصد أيضاً مجالس العلم والتعليم بالأندلس ، وأخذ العلم على يد الشيوخ والفقهاء ، وأكد على أن الحكم المستنصر قد أمر ب " تحبيس حوانيت السراجين بسوق قُرْطُبَة على المعلمين الذين قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقُرْطُبَة".

وهذا يعني أن الدولة قد تبنت تخصيص مصروفات للمدارس ، والمستعرض لكتاباته يتضح لنا مدى ما وصلت اليه الأندلس من احترام العلماء والفقهاء ورجال الأدب ، وكيف أن الأندلسي كان ينفق ما عنده من مال حتى يتعلم ومتى عُرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال ويشير الناس اليه بالبنان.

وقد اختلفت منزلة الأشخاص باختلاف سماتهم واتجاهاتهم الشخصية ؛ فقد كان منهم طبقة بارزة أسهمت في السياسة العامة للدولة ، وظفرت لذلك بالحظوة عند الأمراء ، وقد سجل ابن حَيَّان كل ذلك في تاريخه وبدقة بالغة.

مما سبق يتضح لنا أن كتب ابن حَيَّان تناولت وبتفصيل دقيق تاريخ المسلمين في الأندلس سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً مما أهله لأن يكون حامل لواء التاريخ في الأندلس.

والخلاصة أن الفكر التاريخي قد ازدهر إبان تلك الحقبة التي شهدت " القرن الذهبي" في تاريخ الفكر الإسلامي [٨٢] وخير نموذج هو حامل لواء التاريخ في الأندلس " ابن حَيَّان القرطبي ".

الهوامش

(1) ابن حَيَّان : هو حيان بن خلف بن حُسَين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، كنيته أبو مروان ، ذكرابن بَشْكُوَال فى كتابه الصلة أنه قرأ أسمه وولاءه هذا بخطه ، ولد فى قُرْطُبَة سنة(٣٧٧ هـ/ ٩٨٨م) وتوفى بها يوم الأحد ٢٨ ربيع الأول سنة ٤٦٩ هـ (٣٠ أكتوبر سنة ١٠٧٦ م) ، وما وصل إلينا من أخباره قليلاً لا يتناسب مع هذه المكانة العالية التى اعترف بها لابن حَيَّان أهل عصره ، ولم يترجم لنفسه كما فعل بعض المؤرخين قبله وبعده.أنظر في ابن حَيَّان وترجمته : ابن بَشْكُوَال ، الصلة ، ج١ ، ص ١٥٣ ، ترجمة رقم ٣٤٥ ، ابن بَسَّام ، الذخيرة ٥٧٣/١ ، الحُمَيّدي ، جذوة المقتبس ٢٠٠ رقم ٣٩٧ ، الضَّبِّيّ ، بغية المتلمس ٢٧٥ رقم ٦٧٩ ، الزركلي ، الأعلام ، ٣٢٨/٢ ، كحالة ، معجم المؤلفين ، ٨٨/٤. وقد كتب عنه ملشور انطونية رسالة بعنوان

Ibn Hayan de Córdoba y sa Historia de la España musulmana

ضمن دفاتر إسبانيا ، المجلد الرابع ، بونس آيرس ١٩٤٦ (ص ٥ -٧٢)؛ وغرسيه غومس بحث صغير عنه في مجلة الأندلس (المجلد ١١ ، ١٩٤٦) .

(٢) محمود إسماعيل : في دراسة التراث . رؤية للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص ٢٣ .

(٣) الترقيح : الكسب والمتاجرة .

(٤) ابن بَسَّام: الذخيرة : (تحقيق البدري) ج ٣ ، ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .

(٥) الفتاء : حداثة السن .

(٦) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ١ ، ص ٢٩ .

(٧) الحاجب : في أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأُموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه ، ثم أخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع الوزراء شأنا ، وصار يسمى بذي الوزارتين ، وصار يشرف على الشئون المدنية والعسكرية. ولما ولي الحِجابة المنصور بن أبي عامر (الحاجب) أمور الأندلس ؛ حجر على الخليفة الأُموي الطفل المؤيد هشام الثاني (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩م)، واتخذ الزاهرة عاصمة جديدة بناها بدلا من الزهراء ، وسيطر حتى على أم الخليفة (صبح) التي كانت تحاول إنقاذ ابنها من هيمنة الحاجب المنصور ، ومن الغريب أن المنصور ظل محتفظاً بلقب (الحاجب) رغم استبداده بالسلطة ، كما خلفه أبناؤه الذين احتفظوا بلقب (الحاجب) إلى أن سقطت الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ-١٠٠٨م بعد أن سيطرت على الدولة الأُموية والأندلس أكثر من ثلاثة عقود ، راجع (حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، الدار الفنية ، القاهرة ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٥١ ، شحادة الناطور وآخرون : الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري ، دار الثقافة ، الاردن ، ١٩٩٠ م) .

(٨) هو : محمد بن أبي عامر الحاجب ، طلب العلم والأدب في قُرْطُبَة ، وسمع الحديث ، تعلق بوكالة صبح أم الخليفة هشام المؤيد وزاد أمره في الترقي وتغلب على الأندلس ، توفى سنة ٣٩٣ هـ للمزيد راجع ، الحُمَيّدي : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ١٢١ ، الضَّبِّيّ : بغية الملتمس ، ترجمة رقم ٢٤٢ ، المعجب ، ص ٧٢ ، الحُلة السِّيَراء ، ج١ ، ص ٢٦٨ . ، المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٩٦ .

(٩) للمزيد راجع : ابن الأَبَّار : الحُلة السِّيَراء ، ، ج١ ، تحقيق ، حسين مؤنس ، ج١ ، دار المعارف ، القاهرة١٩٨٥ م ، ص ٢٦٨ — ٢٧٧ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٢٥٣ ، وابن الخطيب : أعمال ، ص ٨٠ ونفح ، ج١ ص ٤٢٤) .

(١٠) أحمد مختار العَبّادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. مؤسسة شباب الجامعة ، ص ٨٧.

(١١) ت ٣٩٩هـ-١٠٠٨ م وقيل أنه توفى على إثر ذبحة صدرية ، وقيل نتيجة عملية اغتيال ، انظر ابن عذاري : البيان المغرب ، ج٣ ،ص ٣٧.

(١٢) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس . ج٢ ، الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠١ ، ص ٦٢٢.

(١٣) يعرف في المراجع العربية بإسم شجنولSanchuelo سانشويلو ، وهو تصغير للفظ سانشو وهو إسم جده لأمه ، أى سانشو الصغير ، أنظر حاشية :مختار العَبّادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق ، ص ٨٧.

(١٤) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي . مكتبة مدبولي ، ط٣ ، ١٩٨٨ ، ص ٥٣٦.

(١٥) قُتل سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م .

(١٦) محمود إسماعيل : إشكالية المنهج ، مرجع سابق ، ص ١٦.

(١٧) راجع ترجمته في ، جذوة المقتبس : ص ١٣٣ — ١٣٦ ، ترجمة رقم ٢٣٢ ، بغية الملتمس : ص ١٩١ ترجمة رقم ٤٤٠ ، المطمح: ١٦ ، والمطرب: ١٤٧. واليتيمة ٢: ٣٥ ومعجم الأدباء ٢: ٢١٨ وأعتاب الكُتّاب : ٢٠٣ وابن خلكان ١: ١١٦ والمغرب ١: ٧٨ والخريدة ٢: ٥٥٥ والوافي ٧: ١٤٤ والمسالك ١١: ٢٠٦ .

(١٨) في تناول تلك الرؤية استفاض كلا من الدكتور محمود إسماعيل في كتابه " أشكالية المنهج في دراسة التاريخ " والدكتور محمود مكي في مقدمة نشرته للمقتبس .

(١٩) للمزيد عن شخصية سليمان المستعين ، راجع ، ابن بَسَّام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ج١ ، تحقيق سالم مصطفي البدري ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٨ ، ص ٢٢ ، نقلاً عن ابن حَيَّان ، = ابن الأَبَّار: الحُلة السِّيَراء ، ج٢ ، ص ٥ ، ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص ٥١ ، والضَّبِّيّ : بغية ، ص ٣٠.

(٢٠) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ١ ، ص ٢١ .

(٢١) محمود مكي : مقدمة نشرته لجزء من المقتبس ، الشطر الثاني ، ط ١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٣ م ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٢٢) يقصد بالبربر الجماعات التي أقامت منذ أحقاب بعيدة في الشمال الأفريقي من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً وينسب السلاوى كلمة بربر إلى بر بن قيس بينما يرجع ابن خلدون الكلمة إلى كثرة بربرتهم ، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ويرجعها البعض الآخر إلى لفظ بربـاروس وتعني الرافضة للحضارة الرومانية . وقد عاش البربر على شكل جماعات وبعضهم عاش داخل المدن واختلطوا بمن احتل البلاد كالرومان والوندال وغيرهم والغالبية عاشت على شكل قبائل وجماعات واتخذت من سهول وجبال المنطقة موطنا وسكناً ، راجع ، الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة، ٢٠٠١ م ، ص ٢٧٥ .

(٢٣) في ٢٦ شوال ٤٠٣هـ / ٩ مايو ١٠١٣ م .

(٢٤) قد قُتِل سعيد بن منذر ، خطيب المسجد الجامع منذ أيام الحكم المستنصر(٣٥٠ — ٣٦٦ هـ / ٩٦١ — ٩٧٦ م)، وقتل ابن الفَرَضِي صاحب تاريخ علماء الأندلس ، راجع الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم . ط ٤ ، دار المعارف ١٩٩٣ ، ص ١٠٣ .:و



Joseph Mccabe : The Splendour of Moorish Spain London 19P. 12

(٢٥) حيث توالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلي ، وثلاثة من بني أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفي.

(٢٦) كان الجغرافيون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطنية وبلاد البلغار ثم اكتسب اللفظ مدلولا خاصا في أسبانيا الإسلامية فصار يطلق أولا على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ويباعون للمسلمين في شبه الجزيرة وكان لفظ الصقلبي ينسحب في عصر الرحالة ابن حوقل في القرن العاشر على الرقيق الذين من أصل أجنبي سواء في ذلك من كانوا من بلاد أوروبا أو من أسبانيا ذاتها وكانوا ينخرطون في سلك الجندية أو يتخذون لخدمة الحرم في القصور فقد كانوا يخصونهم وكان لتجار اليهود على خد تعبير المستشرق الهولندي دوزي معامل للخصى أهمها معمل فردن في فرنسا فكانوا بعد خصيهم يجلبون إلى الأندلس ويباعون فيها وينشئون تنشئة خاصة فيتعلمون العربية وفنون الفروسية ويتأدبون بآداب المجتمع الأندلسي .وازداد عددهم زيادة كبيرة بحيث بلغوا في عهد الناصر لدين الله بقُرْطُبَة ١٣٧٥٠ وفكت رقاب كثير منهم وسمعت منزلهم في المجتمع فأثروا وملكوا الأراضي واتخذوا الحشم والعبيد .ونبغت طائفة منهم في العلم والأدب فكان منهم الشعراء والكتاب.وعظم شأنهم في أيام الناصر فتولوا المناصب الهامة وقيادة الجيوش ولم يتردد الناصر في أن يعهد الى نجدة الصقلبي بقيادة الجيش الذي وجهه الى ملك ليون في سنة ٣٢٧ . واستكثر منهم الحكم المستنصر فاشتدت شوكتهم وكان لفائق وجُؤذُر دور هام في عهده وفي عهد ابنه هشام. راجع ، ياقوت : معجم البلدان مادة (صقالبة)، المقرى : نفح الطيب ١/ ٨٨ ، ٩٢، ٢/ ٥٧ ، تكملة الصلة ابن الأبَّار طبعة كوديرا رقم ٨٩ .

(٢٧) محمود مكي : مقدمة ، الشطر الثاني ، نفسه ، ص ١١٤ .

(٢٨) عبادة كحيلة : القطوف الدواني في التاريخ الإسباني ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ١٠٩.

(٢٩) في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ .

(٣٠) الحُمَيْدي : جذوة ، ص ٢٧ ، الضَّبِيّ : بغية ، ص ٣٤ ، المراكشي : المعجب ، ص ٥٧ ، ابن حزم : نَقْط العروس ، ص ٥٦ ، وعنان : دولة الإسلام ، ج ٢ ، ص ٦٦٨.

(٣١) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٣٢) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا ، مرجع سابق ، ص ٥٣٤ .

(٣٣) محمود إسماعيل : إشكالية المنهج ، ص ١٦.

(٣٤) للمزيد راجع : المقتبس (انطونيا) ، ص ٦٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣٥) بنو حمّود : من ملوك الطوائف في الأندلس ، وقد سُمّيت على اسم مؤسسها حمّود ، من نسل إدريس بن عبد الله ، أي أنهم من الأدارسة. بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، إلا أنهم كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وتوالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلي ، وثلاثة من بني أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفي ، وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء ، راجع ، ابن بسام ، تحقيق سالم البدري ، ج ١ ، ص ٦٠ ، نقلا عن ابن حيان ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف ، ص ٤٣ — ٤٤ ، الحميدي: جذوة المقتبس ، ص ٢٢ ، ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص ١٢٢ ، عنان : دولة الإسلام ، جـ ٢ ، ص٦٥٧ .

(٣٦) حُسَين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ م ، ص ٨٠ .

(٣٧) راجع ، الحُمَيْدي : الجذوة ، ص ٢٨ ، والضَّبِيّ : بغية ، ص ٣٤ ، ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : أعمال ، ص ١٣٨ .

(٣٨) سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ٣٦٣.

(٣٩) ونوجز المسألة فيما يلي : قُرْطُبَة : يحكمها بنو جَهْوَر (٤٢٣ هـ - ٤٦٠هـ) ، إشبِيلِيّة : بنو عباد (٤١٤ — ٤٨٤ هـ) ، غَرْناطة : بنو زيري (٤٠٣ — ٤٨٣ هـ) ، طُلَيطِلَةُ : بنو ذي النون (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، بَلَنْسِية : العامريون ، (٤١٢ — ٤٧٨ هـ) ، سَرَقُسْطة : بنو هود (٤١٠ — ٥٢٦ هـ).

(٤٠) الهمل : المتكاسلون المتوانون .

(٤١) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري) ج ٣ ، ص ١١٧.

(٤٢) دوزي : ملوك الطوائف . ترجمة كامل كيلاني ، ط ١ ، مكتبة عيسى الحلبي ١٩٣٣ ، ص ١٠ ، ١١ ، وينتمي ابن جَهْوَر إلى بيت من أعرق بيوتات الموالي الأندلسية وهو أبو الحَزْم بن محمد بن عبيد الله بن أحمد بن محمد من أهل بيت ووزراء.وسوف يحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري ، راجع: عبد الحميد العَبّادي : المجمل في تاريخ الأندلس . ط ٢ ، دار القلم ١٩٦٤ ، ص ١٤٠. وللمزيد ، راجع: ابن الأبّار : الحُلة السِّيَراء ، ج١ ، ص ٢٤٤ ، والضَّبِيّ : بغية ، ص ٥٤ ، ابن بَشْكُوَال: الصلة ، ص ١٣١ ، وخالد الصوفي : جمهورية بني جَهْوَر ، دمشق ١٩٥٩ ، ص ٤٦.

(٤٣) راجع ، ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ١ ، ص ٣٧٤ حيث يقول " فعجب ذوو التحصيل للذى أراه الله في صلاح الناس من القوة ، ولما تعتدل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون ".

(٤٤) راجع ، محمود إسماعيل : اشكالية المنهج ، ص ٣٨ .

(45)Miguel Asin Palacios: " El códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm. Al-Andalus, 1934, 1, p, vol . 2 (1934) p.40

(٤٦) الزهراء Medina Azhra ممدود تأنيث الأ زهر وهوالأبيض المشرق والمؤنثة زهراءُ والأزهر النير ومنه سمي القمر الأزهر ، تقع شمال غرب مدينة قُرْطُبَة ، وعلى بعد حوالي ستة أميال ، وقد شرع الخليفة عبدالرحمن الناصر في بنائها في شهر المحرم سنة ٣٢٥ هـ ؛ حيث عهد إلى ابنه الحكم بالإشراف على البناء ، وقد استمر البناء إلى عهد الحكم، لكن الزهراء لم تعمر طويلا ؛ حيث إنه لما تغلب المنصور ابن أبي عامر على السلطة نقل قاعدة الحكم منها إلى الزاهرة وقد قام البربر بتخريبها أثناء الفتنة البربرية . (ابن غالب : فرحة الأنفس ص٣١-٣٤ ، الحِمْيَري: الروض المعطار ص ٢٨-٣٢ ، المقري : نفح الطيب ج٢ ص٦٥-٦٧ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ص ٤٠٧ـ ٤١١).

(٤٧) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٤٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ، دمشق [د.ن] ١٩٧٤ م ، ص ٢٤٢ .

(٤٩) بَطَلْيَوْس Badajoz بفتحتين وسكون اللام وياء مضمومة و مهملة ، مدينة أندلسية من إقليم مارِدَة ، بينهما أربعون ميلاً ، بناها الأمير عبدالله على يد عبد الرحمن بن مروان الجليقي وهي تقع غربي قُرْطُبَة ، راجع ، ياقوت الحموي : معجم البلدان : ج١ ، ص ٤٤٧ ، أبو بكر الزهري : كتاب الجغرافية ، ص ٨٨ .

بَطَلْيَوْس: (Bada luz) تقع على نهر وادي يانه شمال شرق مدينة إشبِيلِيّة على بعد ١٨٥ ميلا ، بنيت على يد الثائر عبد الرحمن بن مروان الجليقي عام ٢٦١ هـ .(البكري : المسالك والممالك ج٢ ص٩٠٦ :.



ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٤٤٧)، سحر عبدالعزيز سالم : تاريخ بَطَلْيَوْس الإسلامية ، ج١، ص ١٣٧. ١٤٠ .

(٥٠) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق سالم البدري) ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، نقلاً عن ابن حَيَّان.

(٥١) الكُوَرَة : الإقليم أو الصقع أو البقعة يجتمع فيها قرى ومحال ، وتحدث الجغرافي العربي المقدسي: عن التقسيمات الادارية في الأندلس فقال: إن في الأندلس ثماني عشرة كورة أورستاق كما في الشرق (راجع : المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٣٤، ابن الخطيب ، الاحاطه ، تحقيق محمد عبدالله عنان ج١ ص١٠٩) .

(٥٢) إلْبِيرَة (Elvira) : إلْبِيرَة: الألف فيه ألف قطع وليس بألف وصل فهو بوزن إخريطة وإن شئت بوزن كبريتة وبعضهم يقول بلبيرة وربما قالوا لبيرة. تقع شرق قُرْطُبَة ، بنيت مدينتها في عهد عبد الرحمن الداخل بينها وبين غَرْناطة ستة أميال ، وهي كثيرة الأنهار والأشجار والثمار ونزلها جند دمشق ، وكانت مدينة إلْبِيرَة قريبة من غَرْناطة ، بينهما ستة أميال ؛ أما بطرنة فقد عدها ابن سعيد من قرى بَلَنْسِية (راجع : ياقوت : =معجم ، ج١ ، ص ٦٤ ، المقري : نفح تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، حاشية رقم ٢ ، ج١ ، ص ١٣٤ .

(٥٣) إشبِيلِيّة : Sevilla إشبِيلِيّة: بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة. م ، وتقع مدينة إشبِيلِيّة في الأندلس ، كانت على جانب من الأهمية أيام الفينيقيين ، اتخذها الرومان عاصمة لمقاطعة بيتيكا ، وبنو بجوارها مدينة اتاليكا، تتصل بالمحيط الأطلنطي بنهر الوادي الكبير ، فتح المسلمون إشبِيلِيّة في شعبان ٩٤هـ/ ٧١٣ م بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهر ، وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل وهو أول ولاتها من المسلمين ، راجع : ياقوت : معجم ، ج١ ، ص ١٩٥ .

(٥٤) بَاجَة: (Beja) في البرتغال وتقع على بعد ١٤٠ كيلومتراً جنوب شرقي الاشبونة وكانت تضم كورة واسعة. ، وقد عاشت مدينة باجة التقلبات العديدة التي طرأت على المنطقة في العصور الوسطى. وقد تلقفها بنو عباد والمرابطون والمتمرد ابن قسي والموحدون وابن هود وابن محفظ لتنتهي في العام 1238 على الأ سبان.راجع : ياقوت : معجم ، ج١ ، ص ٣١٤ .

(٥٥) تُدْمِير Tudmir: بالضم ثم السكون وكسر الميم وياء ساكنة وراء :من كور الأندلس ، سميت باسم ملكها تُدْمِير وتقع شرقي قُرْطُبَة. (راجع : ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج٥ ، ص ١٦ .

(٥٦) للمزيد راجع ، محمود إسماعيل : سوسيولوجيا ، مرجع سابق ، وشريف م ، م (دراسات في الحضارة الإسلامية) ترجمة أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢، القاهرة ١٩٦٦. وطلفاح خير الله (حضارة العرب في الأندلس) دار الحرية بغداد ١٩٧٧ .

(٥٧) ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق": إحسان عباس. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١م ، ج٣/ ص ١٧٤.

(٥٨) البيان المغرب : ج٣ ، ص ١٦٢ ، الذخيرة : (تحقيق البدري) ج ٣ ، ص ٩.

(٥٩) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ٣ ، ص ١١٧.

(٦٠) محمود إسماعيل : الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي ،ط ١، منشورات الزمن ، المغرب ٢٠٠٨ م ، ، ص ٧٠.

(٦١) ابن حَيَّان : المقتبس (تحقيق مكي ، الشطر الثاني) ، ص ١٣٧.

(٦٢) ابن حَيَّان : المقتبس (تحقيق أنطونية) ، ص ٥٢ .

(٦٣) عادل يحي عبد المنعم : النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ص ٧٩ .

(٦٤) المقتبس (تحقيق مكي ، الشطر الثاني) ، ص ٢٢٧ .

(٦٥) راجع ، عادل عبد المنعم : النقد الاجتماعي مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٦٦) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ٣ ، ص ٣٢٥ ، والسلة : السرقة الخفية .

(٦٧) لمزيد من التفاصيل ، راجع ، محمود إسماعيل : المهمشون في التاريخ الإسلامي ، دار رؤية ، ٢٠٠٤.

(٦٨) نفسه ، ص ١٤ .

(٦٩) نفسه ، ص ٥٣ .

(٧٠) أطلق على من أسلم من أهل الأندلس لحظة الفتح اسم " المسالمة "، وعلى أبنائهم اسم " المولّدون" الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ، مرجع سابق ، ص ١٦.

(٧١) الموالي في الأندلس هي : طبقة تتألف غالبيتها من العبيد الذين أعتقهم مالكوهم أثناء حياتهم أو بعد موتهم بموجب وصية ، ويسمي الشخص المحرر مولى ، وكان يظل مرتبطاً بمالكه القديم أو بورثته بما يشبه الرباط العائلي الذي يلزمه بواجبات معينة نظير استفادته بالحماية المعنوية أما الاصطناع فقد كان يوجد في المجتمع الأندلسي ، أنظر ، ليفي بروفنسال : اسبانيا الإسلامية ، ج١ ص ١٨٨ .

(٧٢) راجع ، عز الدين أحمد : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، دار الشروق ، ط ١ ، ١٩٨٣ م

(٧٣) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ٤ ، ص ١٤٦ .

(٧٤) ابن بَسَّام : الذخيرة (تحقيق البدري) ج ١ ، ص ٣٦٦ ، نقلا عن ابن حَيَّان .

(٧٥) راجع ، إشكالية المنهج في دراسة التراث ، مرجع سابق ، ص ٣٩.

(٧٦) محمود إسماعيل ، و آمال محمد حسن: في تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، بدون ، ص ١٥٧.

(٧٧) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب . ج٣، مطبعة الاستقامة، ط ١ ، ١٩٤٠ ، ص ٣٣١.

(٧٨) الشكعة : الأدب الأندلسي ، دار العلم للملايين ، ط٥ ، ١٩٨٣ ، ص٧١ .

(٧٩) راجع ، ابن بَصَّال : كتاب الفلاحة ، ص١١-٣٦ .

(٨٠) لفظة إسبانيا (Hispania) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبرية ، وبعضهم يرده إلى أصل فينيقي معناه " ساحل الأرانب البرية " ثم قيل إن ذلك نسبة إلى اشبان (Sphan) وتحرفت الكلمة إلى أصبهان ، ومن صيغ الاسم أيضاً (Hispalia) وعرب إلى إشبِيلِيّة. راجع ، المقري : نفح ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، حاشية رقم ٢ ، ج ١ ، ص ١٣٤.

(٨١) عبد المحسن طه رمضان : الحروب الصليبية في الأندلس . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص ٤٠.

(٨٢) نفسه ، ص ١٤.

صاحب الدراسة في سطور:

حاصل علي جائزة الدكتور عبد الحميد العبادي من الجمعية التاريخية ؛ تم تكريمه من الدولة في عيد العلم أعوام ١٩٩٦-٢٠٠٤-٢٠٠٥ ؛ مقرر سمينار التاريخ الإسلامي والوسيط بكلية التربية - جامعة عين شمس ؛ مشرف تنفيذي لمشروع تطوير قدرات أعضاء هيئة التدريس بجامعة عين شمس ؛ عضو لجنة توصيف المقررات والبرامج التعليمية بجامعة عين شمس.



مملكة ماري من أعظم حضارات العالم القديم في حوض الفرات




أطلال مدينة ماري



خليل اقطيني

كاتب وصحفي بمؤسسة الوحدة للصحافة والنشر

مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة

الجمهورية العربية السورية

aya2006@scs-net.org

في صبيحة أحد الأيام من سنة ١٩٣٣م استيقظ سكان القرية على خبر سيء أزعجهم ، فجارهم ع توفاه الله ، مما جعلهم يلغون كل ما لديهم من أعمال خاصة في هذا اليوم ، لأن أمراً قد حدث مما يتطلب منهم تكاتفاً و تآزراً لتجاوز هذا الحدث الجلل. وبدون تردد توجه جميع سكان القرية رجالاً و نساء صوب بيت المرحوم ع من أجل تقديم العون لأهله فيما يتعلق بالدفن والجنازة و مراسم العزاء ، ومن ثم مواساة أهله والتخفيف عنهم .

> "بعد قرابة سبعين عاماً على اكتشافها: مملكة ماري من أعظم حضارات العالم القديم في حوض الفرات في سورية على لائحة التراث العالمي"

أورنينا ماري

عند الضحى عاد محمود من المقبرة الموجودة على التل المجاور للقرية ، ليخبرهم أن القبر صار جاهزاً. فحمل الأهالي الجنازة وساروا بها إلى حيث مثواها الأخير. وعندما كان بعض الشبان يوارونها الثرى راح محمود يبحث عن شاهدة مناسبة للقبر. نظر صوب اليمين ثم صوب اليسار ، لم يجد ما يناسب ، تقدم قليلاً إلى الأمام ، وقع نظره على جزء من حجر ظهر بسبب الأمطار التي أزاحت عنه التراب ، حاول سحب الحجر فلم يستطع ، أحضر معولاً وراح يبعد التراب من حول الحجر ، إلى أن تمكن من سحبه. و ما إن نظر إليه حتى تسمر في مكانه ، وراح يتأمل هذا الشيء الذي ظهر له من تحت التراب بكثير من الدهشة و الاستغراب. فهو حجر منحوت بدقة متناهية لشخص لم يتمكن محمود من العثور على رأسه ، رغم بحثه الجدي والحثيث عنه.

حمل محمود لقيته وعاد إلى القبر ليجد رفاقه قد انتهوا من الدفن وعادوا إلى القرية ، فأدرك أن اكتشافه لتلك اللقية استغرق من الوقت الكثير دون أن يشعر. وفي خيمة العزاء قص محمود على أهالي القرية ما حصل ، فوصل الخبر إلى الملازم كوبان من جيش الانتداب الفرنسي الموجود في بلدة البوكمال ، اهتم كوبان بالأمر و أرسل تقريراً إلى السلطات الأثرية الفرنسية الموجودة في بيروت. هذه السلطات التي أسرعت بدورها بإرسال تقرير إلى متحف اللوفر بباريس ، الذي أوفد البروفيسور أندريه بارو لاستطلاع الأمر والوقوف عن كثب على الحدث. وبعد وصول البروفيسور بارو إلى الموقع مع مجموعة من تلاميذه ومساعديه ، قام بجمع بعض المعلومات من أهالي القرية عما حصل ، وراح يبحث وينقب في التل ، ليكتشف بعد فترة أنه يقف فوق أعظم مملكة في منطقة الجزيرة والفرات ، هي مملكة ماري التي ورد ذكرها في الكثير من المصادر والكتب التاريخية ، على أنها حاضرة من أعظم حواضر العالم القديم على ضفاف نهر الفرات في سورية.

ونتيجة لهذا الاكتشاف الكبير أخذ البروفيسور بارو يتردد كل عام على الموقع ، ليحصل على المزيد من المعلومات الهامة التي أماطت اللثام عن جوانب كثيرة من تاريخ منطقة الفرات خصوصاً وسورية عموماً.

▪ **الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

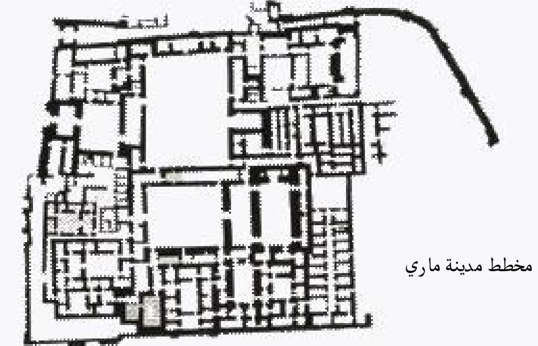
خليل اقطيني ، مملكة ماري من أعظم حضارات العالم القديم في حوض نهر الفرات.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص٤٢ - ٤٧ (www.historicalkan.co.nr)

السلالة العاشرة لملوك ماري

تقع مملكة ماري في محافظة دير الزور شمال شرق سورية ، وتحديداً على الضفة اليمنى لنهر الفرات قرب بلدة البوكمال ، المتاخمة للحدود السورية العراقية من جهة الشرق. ويطلق على موقع ماري اسم تل الحريري ، الذي يحتل رقعة من الأرض تتراوح بين ألف م طولاً و٦٠٠م عرضاً.

وتؤكد المصادر التاريخية ، أن عدد الملوك الذين حكموا ماري في الألف الثالث ق . م بلغ ١٣ ملكاً ، أطلق عليهم السلالة العاشرة لملوك ماري وكان هؤلاء الملوك على صلات بالممالك السومرية في العراق و لا تخلو هذه الصلات من بعض التوترات السياسية عندما زحف على ماري ملك الوركاء (أوروك) لوكال زاغيري حوالي منتصف الألف الثالث ق . م ليدمر قسماً من المملكة ، وما لبثت ماري بعدها حتى استعادت نفوذها واستقلالها.

وعندما برزت السلطة الأكادية في عصر مؤسسها ساركون بقيت ماري تحافظ على كيانها كمملكة حليفة للسلالة الأكادية وعين عليها ايكو شماش .. وتذكر المصادر أن الملك ساركون مر بماري عندما كان يقود حملته للوصول إلى سواحل البحر المتوسط ، كما مر بها حفيده الملك نارام سين .. وشهدت المنطقة استيطان القبائل العربية العمورية التي بدأت تقيم لنفسها الكيان السياسي ، وتؤسس الممالك القوية في لارسا و أسين و بابل ، وعلى مجرى الفرات الأوسط ، وأصبحت ماري قوة سياسية في هذه المنطقة واتسع نفوذها في زمن ملكها باجدوليم وابنه يخدوليم الذي قتل عندما زحف على ماري ملك آشور شمشي حدد لينصب حفيده سمخ حدد ملكاً على ماري ، ويفر ولده زمريليم إلى حلب لقيم الصلات الطيبة مع ملوكها ويتزوج ابنة ملك حلب ، ويقنعهم بضرورة تحالفهم معه لاسترجاع عرش والده .



مخطط مدينة ماري

وفعلاً عاد زمريليم إلى ماري ليحكمها ، وتعرف الدولة الرخاء والبناء في عهده ، وأقام علاقات جيدة مع الممالك المجاورة حتى وصلت علاقاته إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط . واشتهر قصره الفريد ، لدرجة أن ملوك صور كانوا يرغبون في إلقاء نظرة على عظمته وشهرته . ويروي أسعد المحمود في مقال له في العدد الأول من جريدة الفرات الصادر بتاريخ ١٩٨٣/٩/٥ ، انه عندما كان الملك حمو رابي في بابل مشغولاً في توحيد الممالك في بلاد الرافدين اهتم بماري واستراتيجية موقعها بعد أن وحد الممالك وتطلع إلى ضمها إلى مملكته. وأرسل إليها حامية عسكرية مما اضطر زمريليم إلى الفرار منها و اللجوء إلى حلب معتمداً على مقاومة أهلها للسيطرة البابلية .. ولم يكد يمضي عام واحد حتى ثارت ماري وقتلت العديد من الحامية العسكرية وعاد زمريليم إلى حكمها.

هذا الحدث أدى إلى تجهيز حملة ثانية و إرسالها إلى ماري ، وكان حقد الملك حمو رابي في هذه المرة كبيراً ، فاحتلها ودمرها وأضرم النار في قصرها .. وبعد احتلال حمورابي لماري لم نعد نسمع عنها شيئاً ، إلا في القرن الثالث عشر ق . م من الملك الآشوري تيكولتي نيثورتا ، الذي وضع فيها حامية عسكرية آشورية ، متنبهاً لحسن موقعها كمعقل متقدم أمام العاصمة الآشورية في منطقة ما بين النهرين .

قصر ماري الفريد من نوعه

ويحتوي تل الحريري (ماري) على حضارات عدة ، أقدمها تلك التي اكتشف فيها الرقيم الكتابي الذي يعود عهده إلى منتصف الألف الرابع ق . م ، ولكن الحفريات بقيت مقتصرة على طبقات الألف الثالث ق . م ولم تتجاوزها .. وقد عرف الألف الثالث ق . م في الأوساط العلمية الأثرية بعصر فجر السلالات السومرية ، حيث كانت ماري تحتل مركزاً دولياً و اقتصادياً هاماً آنذاك ، ونظراً لموقعها الاقتصادي والاستراتيجي كانت عرضة لغزوات مستمرة من الدول المجاورة ، وغنى ماري يظهر في كثرة الأبنية السكنية و المعابد والقصور التي اكتشفت فيها ، بالإضافة إلى آلاف القطع الفنية الرائعة المنتشرة في متاحف حلب و دمشق وباريس.

ولعل القصر الملكي الواسع هو أبرز المكتشفات في مملكة ماري .. هذا القصر الذي تأسس في الألف الثالث ق . م ، واستمر تجديده وتوسيعه حتى بلغ أوج اتساعه وعظمة تقسيماته الهندسية في فترة الملك زمريليم في الألف الثاني ق . م. وأهم ما يتميز به هذا القصر المشيد من اللبن باحاته الواسعة و ممراته العديدة التي تقود إلى قاعة العرش و تقسيمه إلى جناحين جناح خاص بالأمور الإدارية للمملكة وملحق لجناح لضيوف والمطابخ و الحمامات والمدرسة ، وجناح خاص بالعائلة المالكة الذي كانت ترعى شؤونه زوجة الملك زمريليم التي تدعى شبيتو ابنة ملك حلب ..وعثر في قاعات القصر وباحاته على تماثيل حجرية كبيرة وعلى رسوم جدارية ملونة لمشاهد دينية وسياسية ، تعتبر درة في فن الرسم الملون قبل أربعة آلاف سنة.

وعثر في مكتبة القصر على الأرشيف الملكي ، الذي ضم ما ينوف على عشرين ألف لوحة مسمارية ، تحتوي على نصوص دينية ورسائل متبادلة ، و عقود تجارية و رسائل دبلوماسية متبادلة بين مملكة ماري و الولايات التابعة لها مثل العشارة (ترقى) و تيتول ، وبين الممالك الأخرى مثل صيدا و رأس شمرا و مملكة يمحاض (حلب) و كركميش (جرابلس) .. وقد قام بدراسة قسم من هذه اللوحات المسمارية العالم جورج دوسان ، بمساعدة لجنة فرنسية بلجيكية ولازالت مستمرة حتى الآن.



واجهة قصر ماري

و يقول وحيد خياطة في كتابه دليل متاحف الآثار السورية القديمة في حلب ، أن القصر المكتشف في ماري أصبح مضرب الأمثال في عصره ، إذ تؤكد الوثائق التاريخية أن ملك أوغاريت طلب من حمورابي ملك حلب أن يتوسط لدى ملك ماري زمريليم بالسماح له بزيارة القصر. وقد زينت قاعة العرش برسوم تاريخية متعددة الألوان ، منها مشهد ديني يقود فيه أحد الرجال ثوراً للتضحية ، ويرتدي الثوب السوري المعروف في الألف الثاني ق . م المزركش الأطراف مع قبعة على الرأس معصوبة الوسط.

وتصف السيدة مادلين تروكاي في أحد بحوثها إحدى القطع الأثرية التي عثر عليها في الغرفة رقم ١٤٩ من قصر الملك زمريليم والموجودة حالياً في متحف اللوفر في باريس تحت رقم ١٤١٦/ م ، بأن هذه القطعة تعود للعصر الأكادي ، وهي تمثل مشهداً دينياً طقسياً غير مؤكد التعريف ، إذ أن مدلولاته مازالت موضع جدل .. وتقول إن هذا الموضوع ينتظم في زمرتين متميزتين متصلتين بنوع من أداة زراعية (مذراة) ، ففي الزمرة الأولى يحمل أتلانت بطرف ذراعه و فوق رأسه شكلاً فريداً لم يبق منه سوى الأعضاء العليا من اليدين الطويلتين الممسكتين بالمذراة ، ويظهر أمامه شخص منتصب بحاجة ذات فرعين غير متساويين تلمس المذراة في نهايتها . أما الزمرة الثانية الواقعة تحت أسنان المذراة ، فهي مؤلفة من شكل رباعي على شكل حزمة يظهر تحتها ثور مقاد من قبل كاهن يلبس تاجاً بقرنين.


قطع أثرية من ماري

ويقودنا البرهان من خلال المقارنات ، على أن الأداة ذات الذراعين والمذراة اللتين لم تفسرا من قبل ، يمثلان أشياء تقودنا لفرضيات تعتبر محاولات لتحديد معنى النحت ، ففيما يتعلق بفرضية السيدة بواردا التي اكتشفت نظرية النبات والتي يصور فيها أتلانت كربة موزعة للمطر ، الذي يمثله الشكل المخدد الملتصق بالثور ، وله صلة بأضحية الثور بمناسبة الجفاف ، وهذا مستلهم من نموذج أسطوري موصوف في ملحمة جلجامش.

والحقيقة أن بعض الأعمال الفنية في الشرق الأدنى القديم المكرسة لعبادة الخصب ، تبين نموذجين من المواضيع المتماثلة بالنسبة لنا. ففي مشاهد صب السوائل المنحوتة على ثلاثة ألواح مثقوبة تعود لعصر السلالات ، نجد إناء بثقب طويل يذكرنا بقطعة قصر زمريليم في ماري ذات الثقبين ، كما نشاهد في عدة مشاهد مطرية منذ العهد الأكادي و الأناضولي (الألف الثالث حتى الألف الأول ق . م) مجاري مياه مرسومة بشكل بدائي تشبه أداة المذراة في قصر زمريليم ، ومن جهة أخرى نشاهد أحياناً مساقط المياه تصب من جن (عفاريت) تنزل من السماء ، ومن الممكن مقارنتها بأشخاص تابعين لأتلانت. وهكذا نرى تعويضاً عن المذراة وجود نبع يتدفق بالماء الذي ينحدر شلالاً ، بعد أن يغذي الإناء ذو الثقب بشكل استطالة مطرية تأتي فوق الثور. وتضيف السيدة تروكاي على فرضية السيدة بواردا المتقدمة أمراً جديداً ، وهو أنه بدلاً من وجود الشخص الموزع للمطر كاله للمطر ، ربما يكون أتلانت مساعداً على هطل المطر.

تماثيل فنية متميزة


كاهن من ماري

وقد عثر في ماري على مجموعة من المعابد ، منها ما كان قائماً فوق الزقورة ، و أهمها معبد عشتار و معبد داغان و معبد نينخورزاك. وفيها عثر على التماثيل الفنية التي كانت تقدم هدايا للمعابد تقرباً من الآلهة في صلاة مستمرة ، وتحمل بعض هذه التماثيل على كتفها كتابات تذكر اسم المحسن ووظيفته و اسم الآلهة التي يتوجه إليها بالدعاء و الرجاء لإطالة عمره .. وإلى جانب تماثيل الرجال الملتحية عارية الرأس نجد مجموعة كبيرة من تماثيل النساء التي ترتدي قبعات طويلة و لها قصات شعر متشابكة و معقدة ، وبعض النساء يحملن نبتة في اليد اليسرى وهن واقفات أو جالسات. ومن التماثيل التي تلفت النظر تمثال العاشقين الذي اكتشف مع غيره في معبد عشتار ، والظاهر أن الرجال كانوا يعتنون جداً بلحاهم ، فهي مسترسلة و طويلة على شكل تموجات و البعض منها ما يزال يحتفظ ببقايا صباغ ملونة. ومن أهم تماثيل ماري المتميزة تمثال لامجي ماري الذي يحمل على كتفه من الخلف النص التالي : (لامجي ماري ملك ماري الكائن الأكبر للإله أنليل ، قدم تمثاله وقفاً للإلهة عشتار المسترجلة). وهناك أيضاً التمثال النصفي للطحان أيدي ناروم الذي اكتشف هو الآخر في معبد عشتار.

وربما كان من أهم التماثيل التي دخلت التاريخ عن طريق الصدفة تمثال الإله شاماش إله الشمس والعدالة ، الذي اكتشفه محمود أثناء بحثه عن شاهدة لقبر المرحوم (ع) الذي أشرنا إليه في مقدمة هذا الموضوع والذي كان الحافز لاكتشاف مدينة ماري التاريخية ، لكن لم يعثر للأسف على رأس هذا الإله ، الذي ينتهي جسمه بحراشف على شكل دوائر ترمز للجبل تحتها كتابة غير واضحة ، تذكر اسم سمخ حدد أحد أبناء شمشي حدد ملك آشور ، الذي عينه والده ملكاً على ماري ، بعد أن استولى عليها ، وقد زال حكمه عن ماري بعد موت والده ، وعودة ملك ماري الشرعي زمريليم من المنفى في حلب عاصمة مملكة يمحاض وإلى جانب تمثال الإله شاماش ، يوجد زعرورة باب من الحجر اكتشفت في بوابة القصر وعليها كتابة تذكر اسم أحد ملوك ماري أنيم داجان ، تعود إلى عصر فجر السلالات أي منتصف الألف الثالث ق . م.

وداخل علبة في قصر ماري اكتشف تمثال يدعى تمثال لاسفان ، وهو تمثال صغير من الحجر الرمادي الغامق دون رأس ، ويحمل كتابة عمودية على ثنية الثوب تقول : (لاسفان ابن اسمتين وهب تمثاله للآلهة) ويشير طراز اللباس واللحية وكل الدقائق الفنية الصغيرة ، إلى عصر أمراء ماري المعاصرين لحكام سلالة أور الثالثة

التي حكمت جنوب بلاد الرافدين مما يعني أن تمثال لاسفان يعود إلى هذه الفترة أي نهاية الألف الثالث ق . م.

وعثر أيضاً على تمثال لأسد فاغر الفاه مع نظير مماثل له عند مدخل معبد الإله داجان. ونحن نعرف من تقاليد القصور الآشورية في الألف الأول ق . م أن الأسود الضخمة كانت تقف أمام المعابد والقصور لحراستها وطرد الأرواح الشريرة منها وعلى هذا تكون هذه العادة متبعة في مملكة ماري قبل ألف عام من انتشارها في الدولة الآشورية ، وهذا التمثال موجود حالياً في متحف اللوفر في باريس.

وفي حوض للمياه (بركة) داخل باحة قصر زمريليم اكتشف تمثال ربة الينبوع المتميز من حيث الجودة والإتقان والصنع .. تحمل الربة على جبهتها قرني ثور رمز الألوهية المعروف في الشرق القديم ، أما شعرها الكثيف فملفوف على رقبتها نحو الأعلى على شكل عقد ، يزين جيدها عقد ثقيل مؤلف من عدة طبقات ، وللتخفيف من وطأة ثقل العقد عمد الفنان إلى خلق توازن للجسم بشريط طويل يتدلى على الظهر ، وقد ازدانت يدا الربة بثلاثة أساور في كل معصم ، ونقش الفنان على القميص ذي الأكمام القصيرة صورة سمك يسبح بين أمواج المياه ، ليدل على وجود الماء الذي تحمله الآلهة داخل وعاء كروي بين يديها .. وليس مستبعداً أن الربة كانت بالفعل تهب المياه رمز الوجود ومصدر الحياة ، فالتمثال يحوي في تجويفه أنبوباً يصل أسفل التمثال بالوعاء الذي تحمله.



أما تمثال الأمير أشتوب ايلوم فقد عثر عليه في قاعة عرش القصر ملقياً أسفل الدرج على ظهره ، وهو مصنوع من حجر الديوريت الأسود ، ونقش اسمه بالخط المسماري على أعلى كتفه الأيمن ويرتدي شالاً بسيط الزخرفة ويعتمر قبعة عريضة الحافة.


كاهنة من ماري

أوان حجرية ومزهريات

وقد عثر أيضاً في مملكة ماري على الكثير من المكتشفات الهامة التي تعتبر نماذج تمثل حضارة الألف الثالث ق . م ، كالأواني الحجرية وكسر أوان من حجر الستاتيت والألباتر. ومن أجمل القطع المكتشفة مزهرية مزخرفة بنقوش نافرة تمثل ثعبانين بأحجار ملونة ، ومزهرية أخرى عليها مشهد صراع بين أسد وثعبان ، وهذا النوع من الآنية (حجر الستاتيت) ليس إنتاجاً محلياً ، بل كان مستورداً من جنوب إيران .. وقد تم في الفترة الأخيرة اكتشاف أحد أهم المراكز المشهورة بهذه الصناعة في جنوب مدينة كيرمان في إيران. وهذا دليل على مدى النشاط التجاري الواسع الذي كانت تمارسه مملكة ماري حتى مع الدول والممالك البعيدة عنها .. أما الأواني المصنوعة من الألباتر فهي أقل زخرفة وأكثر بساطة .. وقد عثر على كسرتين من الألباتر تحملان بقايا كتابية بالخط المسماري الذي لم يكتمل تطوره بعد ، ويمكن معرفة أصل الكتابة المنقولة عن الصور الحسية بسهولة.

وكشف أيضاً عن مجموعة من الأختام الأسطوانية التي تعكس تتابع الحضارات والعصور في ماري منذ بداية الألف الثالث حتى النصف الأول من الألف الثاني ق . م ، ولعل من أهم الأختام الأسطوانية المعروضة الختم الكبير من عصر فجر السلالات بشريطين مصورين ، ويحمل الختم اسم صاحبه ، وبهذا يكون هذا الختم من أقدم الأختام المعروضة التي تحمل اسم صاحبها. وأظهرت التنقيبات مجموعة من الحلي الذهبية والعقود وغطاء أذن ذهبي لتمثال كبير وأنواع مختلفة من الأسلحة والأدوات البرونزية والحجرية بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الدمى البشرية والحيوانية.

ماري والخابور

وقد تبين من خلال دراسة المكتشفات التي تم العثور عليها ، ولاسيما الألواح الموجودة في مكتبة القصر أن هناك صلات قوية بين مملكة ماري والمناطق و الممالك القريبة منها و المحيطة بها. فمن المعروف أن نهر الخابور يعتبر النهر الأكثر أهمية بالنسبة لرافدي الفرات الوحيدين ، فهو ينبع من منطقة رأس العين في الجزيرة السورية ، ويصب في الفرات في موقع البصيرة في محافظة دير الزور وبذلك يجمع بين المنطقتين الأكثر خصباً ، وهما منطقة الجزيرة ووادي الفرات الذي يتسع أحياناً بين المرتفعات الصخرية (فاليتر) التي تحدد شاطئيه حيث الخضرة الوارفة .. ويؤكد الأستاذ أندريه فينه في أحد بحوثه أن أهمية هاتين المنطقتين لا تنحصر بالناحية الزراعية ، فمن المعلوم أن الفرات كان أبداً و دائماً الطريق الرئيس للمبادلات التجارية بين ساحل البحر الأبيض المتوسط وجنوب الأناضول من جهة وبلاد سومر من جهة ثانية.

وتقع مملكة ماري في مجرى الفرات الأوسط مستفيدة من ضرائب التجارة التي سببت ثروة طائلة . كما يوجد طريق بري يسمح لحركة القوافل التجارية بين البلاد الشمالية الغربية وبين بلاد ما بين النهرين جنوباً ، و اعتباراً من المراكز الهامة كهيت و كركميش يمكن للقوافل أن تسير خلال الهضاب الشمالية مجتازة منطقة الجزيرة لتدرك وادي دجلة النهر الثاني الكبير في بلاد مابين النهرين ولتصل بلاد آشور وبابل. ومنذ ذلك الزمن يمكن تفسير حماس زمريليم ملك ماري طيلة حكمه للسيطرة على منطقة الجزيرة و إقامة الإقطاعيات فيها ، مما

يتيح له المراقبة التامة لحركة التجارة الدولية .. وتشير الوثائق الملكية لقصر ماري إلى الدور الهام الذي احتله نهر الخابور من الناحية التجارية ، مع ذكر الإجراءات التنظيمية التي تم اتخاذها من أجل المحافظة على المخزون من المحاصيل الزراعية ، من الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها جراء الفيضانات المفاجئة و العواصف و الأمطار.

و تتحدث تلك الوثائق عن وجود مقاطعتين كبيرتين هما مقاطعة سكاراتوم جنوب الخابور ، وكاتونان شمال الخابور ، وقد كان لحكام هاتين المقاطعتين علاقات قوية مع حكام مملكة ماري.

ماري و تل ليلان

وعن العلاقة التي كانت تربط بين مملكة ماري و تل ليلان في الألف الثاني ق . م ، يقول البروفيسور هارفي وايس : يحتل تل ليلان مساحة ٩٠ هكتاراً ويبعد مسافة ٢٥ كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي الواقعة في محافظة الحسكة شمال شرق سورية (الجزيرة السورية). وقد جذب هذا التل الكبير اهتمام الآثاريين منذ أكثر من مئة عام .. ومنذ اكتشاف الرقم المسمارية في ماري و التكهنات تدور حول احتمال أن تكون مدينة شباط أنليل عاصمة شمشي حدد مدفونة في تل ليلان .. علماً أن شمشي حدد كان يقيم في شباط أنليل بعد أن أقام ابنه يسمخ حدد ملكاً على ماري.

وقد كشفت أعمال التنقيب في تل ليلان عن جزء لا بأس به من مبنى ضخم ، ويشبه هذا البناء في تفاصيله قصور معاصرة له في بلاد الرافدين مثل لارسا و تل الرماح وفي مملكة ماري ، وخاصة فيما يتعلق بانتظام الغرف و الأعمدة الحلزونية التزيينية ، وبناء على هذا التشابه يفترض المختصون و علماء الآثار ، أن يكون المبنى المكتشف في تل ليلان عبارة عن معبد .. فقد كانت أرضيات الغرف تعج باللقى الأثرية ، فمثلاً عثر على ٢٣٧ طبعة ختم على كسر طينية ، مما ساعد على استقاء معلومات جديدة تفيد في تحديد هوية تل ليلان في أوائل الألف الثاني ق.م.

كانت ثمانية من أصل تلك الطبعات تخص خادم شمشي حدد ، وهذا دليل على أن البناء المكتشف كان مستخدماً في ظل ذلك الملك ، و أن موقع تل ليلان كان بالتأكيد جزءاً من مملكته .. وكانت هناك طبعتان تحملان اسم آبيل ايليشو ابن عالي بنيشو ، خادم توروم ناكتي. ومن المعروف أن المدعو توروم ناكتي كان ـ من خلال ما ذكر في نصوص مملكة ماري ـ حاكم مدينة قريبة من شباط أنليل عاصمة شمشي حدد ، وأن أحد الملوك الصغار في منطقة الخابور في الجزيرة السورية حاول السيطرة على المدينة بعد وفاة شمشي حدد. وكانت بقية الطبعات تحمل اسم المدعو بيلي عموقي خادم حاجا آبوم ، وكان الأخير ملكاً على مدينة آبوم القريبة من شباط أنليل ، وحتى أحد أكبر معابد شباط أنليل كان مخصصاً لإله مدينة آبوم . وبعد وفاة شمشي حدد عين زمريليم ملك ماري ، المدعو حاجا آبوم قيماً على مدينة شباط أنليل.

ماري و أوغاريت

ولم تكن هناك علاقات وطيدة بين مملكة ماري على الفرات ، والممالك والمقاطعات القريبة منها ولاسيما الممالك والمقاطعات الموجودة في منطقة الجزيرة و حوض نهر الخابور فحسب ، وإنما أقامت مملكة ماري علاقات وطيدة و طيبة أيضاً مع الممالك البعيدة عنها. فعن علاقة مملكة ماري على نهر الفرات مع مملكة أوغاريت على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، تتحدث البروفيسورتان مارغريت يون و آني كوبيه : تبدو مدينة أوغاريت المتوسطية للوهلة الأولى غريبة عن عالم الفرات إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الجوانب البارزة من الحضارة المادية. و مع ذلك فإن الوثائق المكتوبة تشير إلى وجود صلات هامة بين مملكة أوغاريت المتوسطية و مملكة ماري الفراتية ، وأبرز هذه الوثائق المراسلات الرسمية المكتوبة باللغة الأكادية ، حول أنماط التفكير المستعارة من عالم مابين النهرين و التي تتمثل في تقنيات المحاسبة أو بنصوص دينية وسحرية. و إذا ما أمعنا النظر في ذلك ، فإن التنقيبات الحديثة و الأبحاث التي جرت عن أوغاريت كما في مواقع الفرات ، تدل أنه بالنسبة لعهد البرونز الحديث ـ وهو الأكثر شيوعاً في أوغاريت ـ من الممكن أن يساعد على فهم أفضل لبعض جوانب الحياة في سورية الساحلية و سورية الداخلية في العصور القديمة. وهذه بعض الأمثلة المستندة إلى التنقيبات الحديثة :

- في مجال العمران و الهندسة السكنية ، سمحت دراسة منظمة أجريت في أوغاريت بإبراز بيت مميز بالاستناد إلى بعض الوثائق كالماكيتات الهندسية التي عثر عليها في التنقيبات التي أجريت في منطقة الفرات.
- وبالنسبة لهندسة الأبنية المقدسة ، فإن العثور على نموذج جديد للمحراب في أوغاريت جعل العلماء و الباحثين يعيدون النظر في مسألة تأريخ تكون المعابد السورية.
- أما العادات الجنائزية فتدل على الثوابت في هذه العادات في سورية من البحر المتوسط وحتى الفرات ، وخاصة فيما يتعلق بالأشياء ذات القيمة الرمزية كبيض النعامة ، أو بعض الأثاث الفاخر الذي وجد في مقابر أوغاريت و في المقابر الآشورية في مملكة أوغاريت.

ومن ناحية أخرى فإن وجود رسالة في أوغاريت ورد فيها ذكر مملكة ماري في القرن الثالث عشر ، يؤكد أن هناك الكثير من المعلومات التي مازالت مجهولة عن عالم الفرات و خاصة مملكة ماري خلال هذه المرحلة.



رجل من ماري

برنامج متطور عن ماري

كل هذا الكم من المعلومات عن مملكة ماري ، والذي عرضناه في السطور السابقة بشكل مكثف ، ظهر هذا من خلال الاكتشافات التي تمت على يد البروفيسور أندريه بارو في موقع تل الحريري (ماري) من خلال ٢١ موسماً (١٩٢٣ ـ ١٩٧٤) . ورغم ذلك مازالت أعمال البحث والتنقيب مستمرة حتى اليوم في الموقع على يد البروفيسور جان كلود مارغون من فرنسا ، بعد وفاة البروفيسور بارو ، ضمن برنامج يتطور في أربعة اتجاهات :

- دراسة عاصمة مملكة أسست على الفرات مع الإشارة إلى العمران ، وتطور الموقع وعلاقته مع النهر.
- دراسة الأرض التي كانت قاعدة للزراعة في هذا الموقع أي بين جرف الصالحية و الباغوز ، مع البحث عن شبكات الري و السكن و الأهلي في زمن ماري.
- دراسة محور توسع المملكة وعلاقاتها مع نهري الخابور و البليخ.
- دراسة علاقة ماري مع جيرانها.

ومن المؤكد أن نتائج هذه الدراسات ستمد الباحثين وعلماء التاريخ والآثار بمعلومات جديدة على قدر كبير من الأهمية سواء عن منطقة الفرات بشكل خاص أو سورية بشكل عام ، ولاسيما أن منظمة اليونسكو أدرجت مدينة ماري الأثرية والمدن المنسية في شمال سورية على لائحة التراث العالمي في عام ٢٠٠٧ ، كما جرى بشأن قلعتي الحصن وصلاح الدين.

لكن مع ذلك يبقى لدينا سؤال أخير ، وهو كيف انتهت مملكة ماري ؟ والحقيقة هناك روايات كثيرة و متعددة حول الطريقة التي انتهت بها مملكة ماري ومن كان وراء تدميرها و القضاء عليها. وبالرغم من أن الغالبية العظمى من تلك الروايات تبدو غير مؤكدة و لا توجد قرائن تؤيدها و تؤكد مصداقيتها ، فإننا نميل أكثر لتلك الرواية التي تشير إلى أن الملك حمورابي البابلي ينسب لنفسه حرق مملكة ماري وهدمها بأمر من الإله أنليل ، كما جاء في مقدمة قانون حمورابي الشهير.

المصادر والمراجع

١.أسعد المحمود ، جريدة الفرات ، العدد(١) تاريخ ١٩٨١/٩/٥.

٢.وحيد خياطة ، دليل متاحف الآثار السورية.

٣.مادلين تروكاي ، بحث عن القطعة ١٤١٦/م في متحف اللوفر.

٤.أندريه فينة ، بحث عن منطقتي الجزيرة والفرات في سورية.

٥.الوثائق الملكية لقصر ماري.

٦.هارفي وايس ، بحث عن العلاقة بين ماري وتل ليلان في الألف الثاني ق.م.

٧ـ مارغريت يون وآني كوين ، بحث عن العلاقة بين ماري وأوغاريت.

من النشاط الإعلامي للأستاذ خليل أقطيني:

أعد برنامجاً تلفزيونياً وثائقياً عن تاريخ وآثار حوض الخابور للفضائية السورية بعنوان (من ذكريات الخابور) من (١٢) حلقة مدة كل منها ٢٠ دقيقة. ويعتبر هذا البرنامج الوثيقة الوحيدة في سورية التي توثق تاريخ وحضارات ما يقارب من (٦٠) تل أثري غمرت بالمياه ولم يعد لها وجود.





جائزة هبة العلاف

لبحوث التاريخ الحديث

إبراهيم العلاف يطلق جائزة سنوية لبحوث التاريخ الحديث ، مدير مركز الدراسات الإقليمية بجامعة الموصل يطلق جائزة هبة العلاف في مجال التاريخ الحديث للباحثين الشبان.

أطلق الدكتور إبراهيم العلاف مدير مركز الدراسات الإقليمية بجامعة الموصل جائزة سنوية تحت اسم (جائزة هبة العلاف) ، ستخصص وتمنح للباحثين الشبان ممن هم دون سن الأربعين عاماً ، بعد كتابتهم لبحوث في مجال التاريخ الحديث ، وقيمتها مليون دينار عراقي. ونوه العلاف إلى أن إطلاق هذه الجائزة جاء إحياء لذكرى ابنته" هبة" التي توفيت في مستشفى الأردن بعد إصابتها بسرطان الغدد اللمفاوية وهي في عز شبابها السنة الماضية.

والهدف من الجائزة تشجيع الباحثين الشبان على إنجاز بحوث أكاديمية رصينة في جوانب حية ومهمة من جوانب التاريخ الحديث والسعي باتجاه نشرها ووضعها في تناول الناس.

وستتضمن المشاركة "كتابة بحث في موضوع معين من موضوعات التاريخ الحديث تتراوح صفحاته بين ١٥ - ٢٥ صفحة وتراعى فيه الشروط العلمية والأكاديمية" ، ومشيراً إلى أن مبلغ الجائزة سيوزع حسب درجات الفوز الأربعة ، فسيحصل الفائز الأول على ٤٠٠ ألف دينار ، والفائز الثاني على ٣٠٠ ألف دينار ، والفائز الثالث على ٢٠٠ ألف دينار ،والفائز الرابع على ١٠٠ ألف دينار عراقي. وسيتم الإعلان عن الجائزة في أواسط شهر مايو/آيار من كل سنة ، وتنجز البحوث في أواسط شهر سبتمبر/أيلول وتعلن النتائج أواسط شهر نوفمبر/تشرين الثاني.

هناك لجنة ستشكل من أساتذة متميزين لتقويم البحوث المقدمة ، إضافة إلى أن هناك شهادة تقديرية ستمنح للفائزين وسيقام لهم احتفال خاص.

كما أعرب العلاف عن أمله بأن تقدم البحوث المشاركة في الجائزة إلى مركز الدراسات الإقليمية في جامعة الموصل.

مركز الدراسات الإقليمية / جامعة الموصل

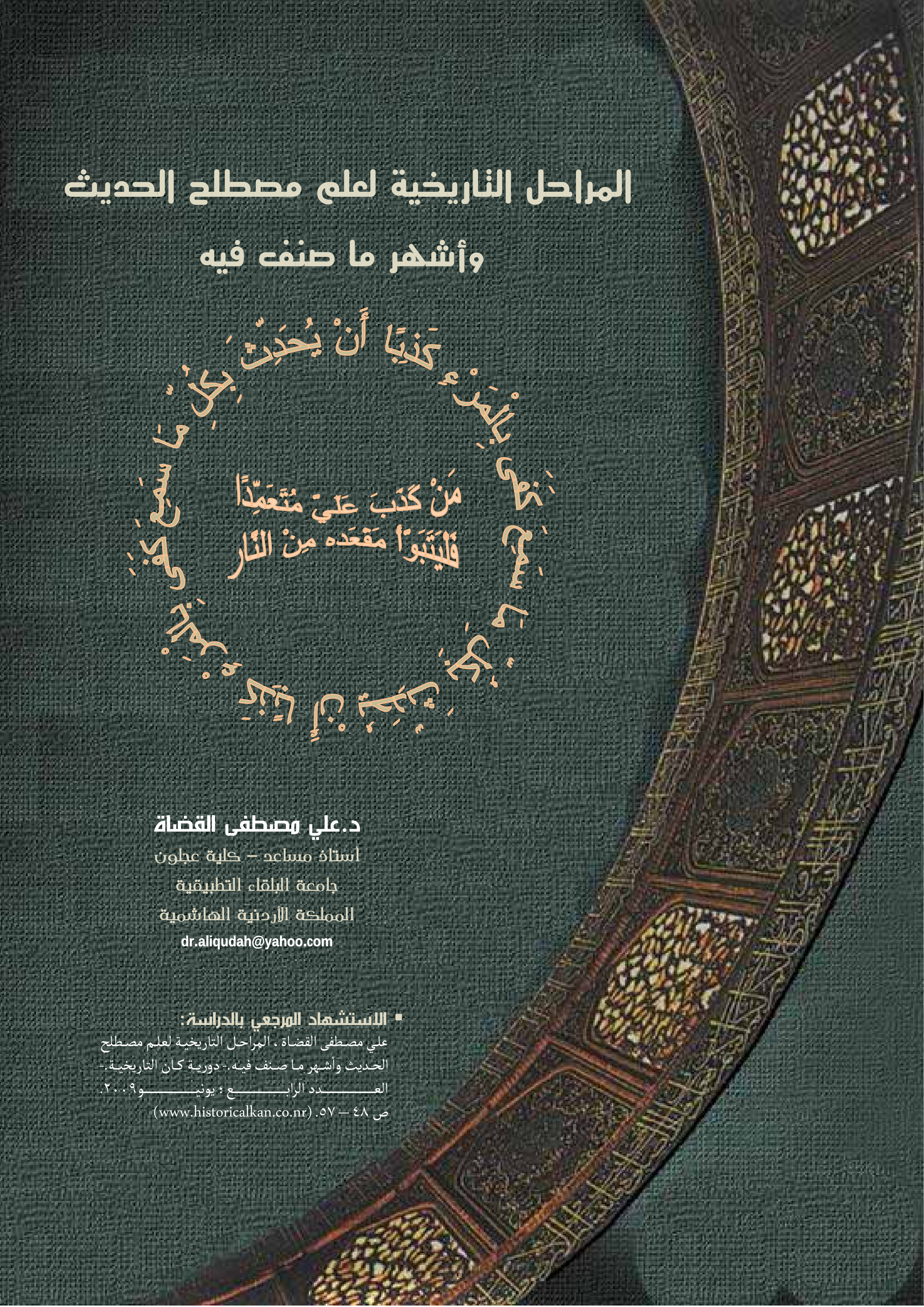
المركز الجامعي الأول قرب كلية الزراعة

العنوان البريدي: العراق / جامعة الموصل

مركز الدراسات الإقليمية

البريد الالكتروني

rcs__iqlimiya@mosuluniversity.org



المراحل التاريخية لعلم مصطلح الحديث
وأشهر ما صنف فيه

د.علي مصطفى القضاة
أستاذ مساعد – كلية عجلون
جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية
dr.aliqudah@yahoo.com

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
علي مصطفى القضاة ، المراحل التاريخية لعلم مصطلح الحديث وأشهر ما صنف فيه.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو ٢٠٠٩. ص ٤٨ – ٥٧. (www.historicalkan.co.nr)



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد : فإن علم مصطلح الحديث عظيم الشأن وهو من أجل العلوم نفعاً ، إذ به يعرف الحديث الصحيح من الضعيف ، كما أنه يعبر عن أصالة الأمة الإسلامية ، حيث استطاع المسلمون أن يتوصلوا إلى هذا العلم ، ولم يقتبسوه عن غيرهم ، وهو يشكل المرتكز الأساسي لطرائق البحث والنقد عند المسلمين ، وبه يذب الكذب عن أحاديث الرسول ﷺ فهو من أفضل القربات إلى الله ، ومن أهم العلوم الشرعية الموصلة إلى رضوان الله سبحانه وتعالى .

لذا ينبغي أن نهتم بدراسة هذا العلم لأن فيه تدعيم لمناهجنا الأصلية ، وهي مناهج انبثقت من تفكيرنا القادر على الإبداع والابتكار ، إذ يخيّل لبعض الناس أن التصنيف والتأليف في هذا العلم قد نضج ، وأنه ما ترك السابقون للاحقين شيئاً يكتبوا به ، وهذا خطأ شائع مع علمنا وبقيننا أن علماءنا قاموا بجهود كبيرة لخدمة السنة النبوية ، لكني أرى أننا في هذا العصر وما يليه بحاجة لإلى دراسة هذا العلم ، فهو يعبر عن أصالتنا ، كما ينبغي أن يظهر أثر هذا العلم في حياتنا العلمية والفكرية ،ابتكارا ، وإبداعاً ، واستنتاجاً.

وبحثي المتواضع يبحث في المراحل التاريخية لجهود المسلمين من الصحابة والتابعين والعلماء وغيرهم في خدمة علم مصطلح الحديث ، ولا أدعي أنني كتبت عن كل حاجة في مراحل هذا الفن ومصنفاته ، لكنني حاولت أن أرجع وأكتب عن أغلب مراحل هذا الفن ومصنفات كل مرحلة منها .

فقد ذكرت التمهيد ، وتعريف مصطلح الحديث ، ونبذة تاريخية عن هذا العلم ، وكيفية نشأته ، وأهم ما ألف فيه بمراحله المختلفة ، وذكرت خصائص بعض المراحل مع الاختصار الكثير من المسائل خوفاً من الإطالة المملة. وسجلت في الخاتمة بعض النتائج والملاحظات التي استفدت منها في البحث ، فهذا جهد المقل ، وهذا ما أوصلني إليه اجتهادي ، فإن أصبت فمن الله تعالى ، وإن أخطأت فمن نفسي ، وأسأل الله أن تكون هذه الدراسة منطلقاً لبحث أوسع وأشمل في المستقبل إن شاء الله تعالى.

إن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله محمداً للبشرية هادياً ونبياً ، ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور ،وأنزل عليه كتاباً لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه ، وأمر نبيه ﷺ ببيان ما في الكتاب (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) النحل: ٤٢ - ٤٣ ،فقام ﷺ بأوامر ربه ،فبين ما في الكتاب على أكمل بيان ،وشرع في السنة أحكاما جديدة ، فكانت السنة المطهرة أساس في الإسلام ومفتاح ومصباح للعلوم الشرعية التي جاء بها الوحي ،وجميعها تتوقف على بيان النبي .صلى الله عليه وسلم ، فنهض الصحابة ومن بعدهم من الأمة في كل مرحلة تاريخية من مراحل الإسلام رجالاً بذلوا كل ما يملكون لنقل بيان النبي ﷺ لأحكام الشريعة بكل مصداقية وهمة وتثبت وتيقن ، وفي هذا البحث نتحدث عن المراحل التاريخية التي مر بها علم مصطلح الحديث منذ نشأته في زمان النبي ﷺ مروراً بالمراحل التاريخية لهذا العلم ، والضوابط التي سار عليها في كل مرحلة تاريخية ، وأهم المصنفات التي صنفت بهذا الفن لتصون حديث النبي ﷺ من الضياع والتحريف والتبديل ،ليصدق نسبة الأحاديث إليه ﷺ ولكل مرحلة ملامح خاصة بها ، فمهمة السنة عظيمة وجليلة ، ولولا معرفتها لما عرفنا أحكام الدين.

فقد نشأ علم المصطلح مع صدور الحديث عن رسول الله ﷺ منذ بداية البعثة ، يبحث في التثبت من الخبر الوارد عنه ﷺ الذي نتعبد به ، إذ كان جل اهتمام الصحابة يعتمد على السماع والمشاهدة ، ثم الرواية ، فقد كان الصحابة يرجعون إلى النبي ﷺ للأخذ منه مباشرة ، واعتمدت على الفهم والاستيعاب ومتابعة الصحابة لما يصدر عنه ﷺ ثم الرواية والحفظ والتبليغ ، ولم تكن لتتسع نطاق الرواية مما جعل هذه الفترة بعيدة عن الشك والنسيان ، وجاءت الأمر بالقران من وجوب التثبت والتيقن في نقل الخبر(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ) الحجرات: ٦

وتعد هذه الآية أول قواعد هذا الفن ،وأهم أركان علم مصطلح الحديث ،فقد حث الرسول .صلى الله عليه وسلم .أصحابه على ذلك ، وأمر بضبط ما يسمعونه عنه بقوله .صلى الله عليه وسلم .:"نضّر الله امرءاً سمع مقالتي ،فوعاها ،وحفظها ،وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" وقد ورد هذا الحديث عن أكثر من عشرين صحابياً.[١] ، وجاء حديث النبي .صلى الله عليه وسلم . ماثلا أمامهم محذراً في بيان مصير من يكذب بقوله .صلى الله عليه وسلم .: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" [٢] **وصف بأنه متواتر.** وقوله .صلى الله عليه وسلم :" كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع"[٣] وصح عنه .صلى الله عليه وسلم .:"إذا حدّثتكم حديثاً ، فلا تزيدن عليّ"[٤] وقوله صلى الله عليه وسلم: "من كذب عني بحديث يرى أنه كذب ، فهو أحد الكذابين" [٥]

فالآيات والأحاديث تبين وتوجب مبدأ التثبت في أخذ الأخبار وكيفية ضبطها ، وقد نقل لنا الصحابة هذا العلم بكل ثقة وأمانة وإخلاص لله تعالى ،دفاعاً عن دينه وسنة نبيه .صلى الله عليه وسلم . وتثبتاً في الحديث. فقد نقل إلينا الإمام الذهبي رحمه الله قوله في ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه".. وكان أول من احتاط بقبول الأخبار وقال في ترجمة عمر بن الخطاب :" ...وهو الذي سنّ للمحدثين التثبت في النقل"[٦] ، وكانت ملامح هذه الفترة تدور حول سماع الصحابة منه .صلى الله عليه وسلم .ومشاهدة أحواله ، ثم الرواية والحفظ والتبليغ . وقبل البدء بذكر المراحل التاريخية المهمة ، نذكر تعريف هذا العلم ، وبيان أهميته.

تعريف علم مصطلح الحديث

تعريف الحديث: يطلق عليه الخبر ، وهو المناسب للمعنى الاصطلاحي ، كما يطلق على الجديد ضد القديم. (القاموس ، مادة حدث).

اصطلاحاً : ما أضيف إلى النبي من قول ، أو فعل ،أو تقرير أو صفة ، خلقية ،أو خلقية . وكذا ما أضيف إلى الصحابي ،أو التابعي . وقد يطلق على الحديث الخبر أو الأثر .[٧]

أما علم مصطلح الحديث فقد عرفه ابن الأكفاني في كتابه إرشاد المقاصد: العلم الذي يعرف به حقيقة الرواية ، وشروطها ، وأنواعها ، وأحكامها ، وأحوال الرواة ،وشروطهم ، وأصناف المرويات ، وما يتعلق



بها. وعرفه عز الدين بن جماعة: علم بقوانين المرويات وما يتعلق بها من أحوا السند والمتن .[٨] وقال الحافظ ابن حجر : أولى التعاريف أن يقال : معرفة القواعد المعرفة بحال الراوي والمروي عنه . وأكثر أهل الحديث على ذلك .[٩]

وقد أطلق عليه عدة مسميات ، منها : علوم الحديث ، مصطلح الحديث ، علم أصول الحديث ، علم الحديث دراية ، ويندرج تحت هذا العلم مسميات كثيرة لعلوم متفرعة من هذا العلم . ستظهر خلال المراحل التاريخية .[١٠] وتسمية هذا العلم : بعلم دراية الحديث أو علم الحديث دراية ، إنما هو اصطلاح المتأخرين ، ممن جاء بعد الخطيب البغدادي ، ومن عصر ابن الأكفاني ومن بعده ، وعلى هذا الاصطلاح جلال الدين السيوطي.[١١]

موضوعه

السند من حيث سلسلة الرواة ، وذلك ببيان اتصاله ،أو انقطاعه ، أو علوه ، أو نزوله . والمتن من حيث الصحة والضعف ، وما يتبعهما من أحكام.

ثمرتـــه

تمييز الأحاديث المقبولة فيعمل بها ، والمردودة فلا يعمل بها. فقد أقيم علم مصطلح الحديث لغاية عظيمة وجليلة ، وهي حفظ الحديث النبوي من الخلط فيه أو الدس والافتراء عليه ، وهذه الوظيفة غاية في الأهمية وتشتمل على فوائد كثيرة.

أهميته

١. حفظ الدين الإسلامي من التحريف والتبديل ، فقد نقلت الأمة الحديث النبوي بالأسانيد ، وميزت صحيحه من سقيمه ، ولولا أن الله هيأ للأمة الإسلامية هذا العلم لالتبس الحديث الصحيح بالضعيف والموضوع ، ولاختلط كلام الرسول .صلى الله عليه وسلم بكلام غيره.
٢. استخراج المعاني واستنباط الأحكام من تعاليمه ﷺ من خلال ثبوت الحديث وصحته ، ليكون المسلم على بينة من فهم دينه.
٣. وضع الضوابط التي تمكن المسلم من خلالها الاطمئنان إلى معرفة الحديث المقبول من المردود ، والصحيح من الضعيف ، والمتصل من المرسل.
٤. المساهمة في حفظ أصول الدين وسنة رسوله ﷺ عن طريق الدراية والبحث والنقد والتثبت.
٥. بيان تميز الأمة بخاصية الإسناد في هذا الدين.
٦. منع أهل البدع والأهواء والإلحاد من وضع الأحاديث وقلب الأسانيد.
٧. بواسطته يتم حسن الإقتداء بالرسول ﷺ
٨. تنقية وصيانة الأذهان من الخرافات والأساطير التي تفسد العقائد والعبادات ، وتفت في عضد الشعوب ، وتمزق الأمة ، إذ تجعلها فرقاً وأحزاباً ، لا تميز بين الحق والباطل ، فيسهل انقيادها لكل ناعق يدعو إلى الضلال.
٩. معرفة المسلم لقواعد هذا العلم تجنبه خطر الوعيد العظيم لذي يقع على من يتساهل في رواية الحديث في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ" من كذب عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين"[١٢]

الإسناد من خصائص هذه الأمة

سبق وأن أشرنا أن موضوع مصطلح الحديث يدور على الإسناد. ويعرف لغة : المعتمد ، وسمي بذلك لأن الحديث يستند إليه ، ويعتمد عليه . وعرف اصطلاحاً : سلسلة الرواة الموصلة للمتن.

ولذا فإن الله - سبحانه وتعالى - قد تكفّل بحفظ كتابه ، وهذا يستلزم حفظ ما يوضح ويبين ويفسر ويشرح ، وهو الحديث ، ومن أجل ذلك فقد هيأ الله لهذه الأمة رواة عدولاً ، نقلوا هذا الدين جيلاً بعد جيل ، فحفظوا على الناس دينهم ، وقد قاموا بجهود عظيمة في نقله وتمحيص مروياته منذ عصر الصحابة .رضي الله عنهم .حتى تكامل تدوين الحديث بالطرق التي روي بها ، كما دون مصطلحه على أدق منهج يمكن أن يوجد للتثبت من النصوص المروية وتمحيصها ، ولما كان الإسناد هو الأساس في هذا العلم فقد نبه العلماء على أهمية السند منذ صدر الإسلام ،لأنه عن طريقه نقلت مصادر الشريعة ، فهذا الإمام محمد بن سيرين ، أحد أئمة التابعين يقول:" إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذوا دينكم".[١٣] وقال عبد الله بن المبارك: "الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء".[١٤] وعن كون الإسناد من خصائص الأمة الإسلامية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الإسناد من خصائص هذه الأمة".[١٥]

وقد هيأ الله تعالى الأسباب لحفظ السنة ، فسخر لذلك جهابذة ، قضوا جل أوقاتهم في جمعها وحفظها وتدوينا والعناية بها ، والبحث عن رواتها ، ونقد مروياتهم ، واوجدوا موازين يعرف بها صحيح الحديث من سقيمه ، فنشأ لذلك علم مصطلح الحديث بفنونه المتنوعة ، وحفظ سنة نبينا محمد .صلى الله عليه وسلم .حتى قال العلماء في ذلك:"لو أن شخصاً كذب على النبي في الصباح لافتضح أمره في المساء" ، ولما سئل عبد الله بن المبارك عن الأحاديث الموضوعة على النبي .صلى الله عليه وسلم ـ أجاب فقال: "يعيش لها الجهابذة" . وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: قال سفيان الثوري: "من كذب في الحديث افتضح ، وأنا أقول: من هم أن يكذب افتضح" .[١٧] وقال ابن الجوزي: "ولقد رد الله كيد الوضاعين والكذابين بأحبار أخيار فضحوهم ، وكشفوا قبائحهم ،وما كذب أحد قط إلا أفتضح".[١٨]

ولذا فقد يسر الله ـ سبحانه وتعالى ـ جهابذة لهذا العلم وضعوا قواعده وقوانينه ، فحفظوا حديث نبيه .صلى الله عليه وسلم .وردوا كيد أعدائه منذ عهد النبوة حتى أيامنا هذه. ومن هنا يمكن تحديد المراحل التاريخية لعلم مصطلح الحديث بمراحل متعددة:

المرحلة الأولى:

دور البدء والتأسيس في عهد الصحابة القرن الهجري الأول(١- ٩٩هـ)

لقد بدأ هذا الدور بعد وفاة النبي ﷺ وانقطاع الوحي وانتشار الصحابة في الآفاق ، وبرزت الحاجة الملحة لهذا العلم ، وازداد شعور الصحابة بذلك ، إذ لم يمكنهم من الرجوع إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم- كما برزت الحاجة إلى علم النحو عند فساد اللسان العربي ، واعتبر من أهم مراحل الحذر ، والتيقظ والتثبت والتحري ، وزيادة الحفظ ، وبدأت الرحلة في طلب الحديث ، واشتهر مجموعة من الصحابة في ذلك لحرصهم الشديد على نقل حديثه ﷺ

ومن باب الأمانة ، والخوف من الله إذ كان أحدهم يسمع الحديث منه صلى الله عليه وسلم هو وصحابي آخر فيرحل إليه ليتثبت من صحة ما سمع ، فقد رحل جابر بن عبد الله إلى مصر حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد ، وعاد إلى المدينة ،وذكر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري أنه رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في الشام ليسمع منه حديثاً واحداً.[١٩] ومن تثبتهم العظيم أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه رحل إلى عقبة بن عامر بمصر من أجل حديث واحد لم يبق أحد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم سواهما .

إضافة إلى انقطاع مجموعة من الصحابة في التفرغ للرواية ، واشتهر في بعض البلاد من يقوم بهذه المهمة ، ففي مكة كان ابن عباس(ت٦٨هـ)، وفي الكوفة عبد الله بن مسعود (ت٣٢هـ)، وفي المدينة عبد الله بن عمر (ت ٧٤هـ)، وفي مصر عقبة بن عامر (ت٥٨هـ)، وفي بيت المقدس عبادة بن الصامت (ت٣٤هـ) ـ رضي الله عنهم أجمعين، وظهرت في هذه المرحلة طلب الإسناد ، في الوقت الذي لم يكن الصحابة يسألون عن السند ، إذ أنهم سمعوا من النبي . صلى الله عليه وسلم ـ مباشرة ، أو أن تقتهم ببعضهم عالية ، حتى حصلت الفتنة بمقتل عثمان ، حيث ظهرت الفرق الكثيرة ، فكانت الحاجة ملحة للتثبت والسؤال والاستفسار عن ناقل الخبر ، وهذا يعني التأكيد على التثبت في نقل الخبر ، وقد ثبت أنهم طلبوا السند من بعضهم البعض ، وسار من بعدهم التابعين ، وأصبح هذا الأمر موضع اهتمام من المسلمين على مر العصور ، حتى وضعت القواعد العلمية والمنهجية النقدية لنقل وتمحيص الأخبار والروايات ، ولم يكن ذلك اتهاما لبعضهم ، ولكنه من باب التثبت والتيقظ والحذر والاحتياط.

وقد روي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .رضي الله عنهم . في طلبهم للشاهد ،أو اليمين على صحة السماع ،وهذا يعد مرحلة مهمة لمنهجية علمية دقيقة في تمحيص ونقل الأخبار التعبدية ، فقد ثبت أن أبا بكر.رضي الله عنه عنه طلب الشاهد من المغيرة بن شعبة .رضي الله عنه ـ في خبر توريث الجدة فلم يقبله حتى شهد معه محمد بن مسلمة.[٢٠] كما ثبت طلب عمر بن الخطاب .رضي الله عنه ـ البينة من أبي موسى الأشعري .رضي الله عنه ـ في حديث الاستئذان وشهد له أبو سعيد الخدري ، وقال له عمر: "أما أني لم أتهمك ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله" [٢١] أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: "كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله بها شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته" .[٢٢]

إن الصحابة.رضي الله عنهم . أرادوا أن يستوثقوا من الأخبار حتى ولو كانت من أوثق الناس لديهم وغير متهم لديهم ، فطلب الشاهد منهم على ذلك أن نحقق في نقل الأخبار ونستوثق ، فلا نقبل النقل على إطلاقه.[٢٣] وفي هذه المرحلة بدأ رفض قبول الخبر بغير إسناد ، وخاصة بعد أن وقعت فتنة مقتل عثمان بن عفان .رضي الله عنه ـ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن محمد سيرين أنه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة ، قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم .وبعد مقتل عثمان زاد احتياط الصحابة وتثبتهم".[٢٤]

وكذلك روي عن عمر بن الخطاب .رضي الله عنه . لما سمع فاطمة بنت قيس — وقد طلقها زوجها ثلاثاً — أن رسول الله لم يجعل لها سكنى ولا نفقة ، قال :"لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أو نسيت ، لها السكنى والنفقة " ، قال الله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)سورة الطلاق [٢٥] وروي عن ابن عباس رضي الله عنه الكثير من رد أقضية علي بسبب الكذب الذي حشاه الرافضة على علي ـ رضي الله عنه .[٢٦]

وفي هذه المرحلة المهمة المتقدمة من تاريخ علم المصطلح بدأت مرحلة نقد المتن ، إذ تعرض أي عبارة على كتاب الله ، وما ثبت من سنته .صلى الله عليه وسلم .من الحديث الصحيح ، فإذا سلمت من المعارضة قبلت وإلا رفضت ،وخير مثال على ذلك ما روي من المناقشة التامة بين عائشة وابن عمر في حديثه ـ صلى الله عليه وسلم:" إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه" [٢٧]. وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما:"إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ، ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا بما نعرف".[٢٨] لقد تكلم عدد من الصحابة كابن عباس ، وعبادة بن الصامت ، وأنس بن مالك ، والسيدة عائشة .رضي الله عنهم.

إن مثل هذه النصوص دالة دلالة واضحة على شدة حرص الصحابة واهتمامهم وأمانتهم وورعهم بالتثبت والتيقن من الحديث ،مما كان له الأثر الواضح في حفظ هذا الدين من التلاعب والتزوير . وكان للصحابة السبق في وضع قواعد هذا العلم إذ أنهم أول من وضع أسسه ومهدوا طرقه وسار من بعدهم من تبعهم إلى يوم الدين قد ظهرت الفتنة وظهر أصحاب الأهواء والبدع والفتن ، وكان لهذا الظهور المبكر الأثر الإيجابي على الحديث إذ ربح المسلمون في مجال الدراية والبحث والنقد والتثبت ، مما ساعدهم على حفظ أصول الدين وسنة النبي .صلى الله عليه وسلم.[٢٩]

فكان جيل الصحابة رضي الله عنهم قد سبقوا ظهور الفتن بالتشديد في الرواية ، فما أن لاحت بوادر الفتنة ، حتى سابقوا بالمبالغة في التشدد بالرواية ، وبتحصين السنة بحصن آخر قبل مجيء الفتن وظهورها. فهذا عبد الله بن العباس .رضي الله عنهما ـ وضع المنهج في تلقي السنة ، عندما قال رضي الله عنه: "إنا كنا إذا سمعنا رجلاً يقول : " قال رسول الله .صلى الله عليه وسلم . ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا . فلما ركب الناس الصعب والذلول ، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف ".[٣٠]

وقد نقلت إلينا المصادر أقوالاً كثيرة للصحابة والتابعين تبين مدى حرصهم ومحافظتهم على النصوص الحديثية وحمايتها والدفاع عنها ونشرها ، وتكلم في الرواة عدد منهم ، ونقدوا بعض ما روي مما يضيق ابحث عن ذكرها وسردها .

فالخلاصة أن ملامح هذه المرحلة تتمثل في:

١. التثبت في أخذ الأخبار ، وكيفية ضبطها ، بالانتباه لها ، ووعيها ، والتدقيق في نقلها للآخرين.
٢. الاعتدال في الرواية عن النبي .صلى الله عليه وسلم . وذلك من خلال التحذير من الكذب على رسول الله .صلى الله عليه وسلم.
٣. نقد المتن والحذر واليقظة من أهل الفتن والأهواء.[٣١]

ومن هنا يظهر أن الصحابة .رضي الله عنهم .كانوا هم أول من بدأ بإنشاء ما عرف بعد بـ(علوم الحديث ومصطلحه).



المرحلة الثانية :

دور البناء والتأصيل والتكامل
من سنة (١٠٠ هـ) إلى سنة (٢٠٠ هـ)

بدأ عصر التابعين ، بعد أن انتهى الجيل الأول ، وذهب قرن الصحابة رضي الله عنهم . فتحمل التابعون بإحسان عن الصحابة-رضي الله عنهم .العلم والإيمان ، والشعور العميق بعظم المسؤولية الملقاة عليهم بتبليغ العلم والإيمان للأجيال من بعدهم ، كما بلغتهم. وبدأت بعد وفاة كبار التابعين ، بعد أن طلب الإسناد ، وتشعب وانتشر وظهر التثبت من الرواية ، ودقق في النقل ، وأصبحت منهجية نقد واضحة في نقل الأخبار والروايات ، في الوقت الذي زادت فيه البدع والخرافات ، وبرزت الفرق الضالة ، وظهرت بدعتها ، وكثر إتباعها ، وانتشرت النحل والعصبية ، حتى ظهر من يتعمد الكذب ووجد المتعصبون للمذاهب ، فأصبحوا يروون أحاديث مذهبهم وبدعتهم ، فظهرت الحاجة الملحة إلى المزيد من البحث والدراسة والتثبت والرحلة في طلب الحديث للشام ،والمدينة ،والحجاز والكوفة ، والبصرة ، وكثرت الأخبار في رحلات العلماء لطلب الحديث وتعلم السنة حتى أنها تفوق الحصر وللإمام أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، كتاب بهذا العنوان وهو حافل بأخبار الرحلة في طلب الحديث. وفي هذه الحقبة دوت صرخات من أئمة التابعين ، لمواجهة كل هذه الأخطار المحدقة بالسنة وتجند للدفاع عن السنة أئمة ومن هذه الصرخات ، كلمة محمد بن سيرين ، التي حفظتها الأجيال ، وهي قوله : " إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم " [٣٢]

وظهر الكتابة في الجرح والتعديل ،الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث القبول والرد ، وظهر من العلماء مجموعة في الولايات والآفاق ، فاضطر العلماء الجهابذة من علما الجرح والتعديل ، إلى اتساع النظر ، والاجتهاد في البحث عن الرواة ونقد الإسناد فظهر منهم: محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) ومعمر بن راشد الصنعاني (ت١٥٣هـ) ، وشعبة بن الحجاج (ت١٦٤هـ) ومالك بن أنس (ت١٧٩هـ) وعبد الله بن المبارك ويحيى بن سعيد القطان (ت١٧٩هـ) وسفيان بن عيينة (ت١٩٧هـ) ، وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن مهدي (ت١٩٨هـ) ،وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي(ت١٥٧هـ) وعامر بن شراحيل الشعبي(ت١٠٣هـ) ، وأيوب بن كيسان السختياني(ت١٣١هـ) ، وهشام بن عبد الله الدستوائي (ت١٥٤هـ). مما جعل هذه المرحلة بحق مرحلة البناء القوي المنيع ، ومرحلة التأصيل ، ووضعت القواعد لهذا العلم ، حتى قال الإمام الأوزاعي: "كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما يعرض الدرهم المزيف على الصيارفه ، فما عرفوا منه أخذنا ، وما تركوه تركنا" [٣٣] وظهر في الفترة التخصص في علم واحد من العلوم وبعد الإمام الشافعي(ت٢٠٤هـ) أول من صنف وكتب في قواعد علم مصطلح الحديث في كتابه (الرسالة).وهو كتاب في أصله في أصول الفقه ، لكن حوى أهم مباحث مصطلح الحديث ، كشرط الحديث الصحيح ، وشرط حفظ الراوي ، والرواية بالمعنى ، وبحث في الحديث المرسل ، والحسن ، حتى عد بأنه أول من صنف بذلك لكنه لم يكن متخصصاً ولا شاملاً لبعض العلوم تقعيداً وتأصيلاً ، وكان لهذه المرحلة التي برز فيها علم الجرح أثراً واضحاً في حفظ السنة النبوية . [٣٤]

المرحلة الثالثة

العصر الذهبي(النضوج والتدوين)
القرن الثالث (٢٠٠-٣٠٠)هـ

وتسمى هذه المرحلة بالعصر الذهبي ، عصر تميز بالنضوج والرسوخ والقوة ، ببيان أن مصطلح الحديث بلغ قمة تطوره مع وجود قوة كبيرة للفرق الضالة والمنحرفة التي تعاظم خطرها وازداد. وفي هذه المرحلة برز هذا العلم ، وظهرت كتاباته مدونة وموثقة ، وهيأ الله في هذه المرحلة أكابر العلماء ،منهم يحيى بن معين (ت٢٣٣هـ) ،صنف في موضوعات عدة ومتنوعة كان أبرزها كتب التاريخ والتراجم ، وعلي بن المديني (ت٢٣٤هـ) ولعله أقدم من صنف في موضوعات مختلفة بمجموعة كبيرة من المصنفات في الفنون الحديثية بلغت أكثر من مائتي كتاب لم يسبقه أحد من المصنفين في موضوعاته ، لكنها فقدت في أكثرها ، ومنهم إمام أهل السنة احمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ، صنف في مئات الأجزاء في معظم موضوعات مصطلح الحديث ، ومنهم محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) صنف في الضعفاء والتاريخ والكنى والعلل ، فكان بارعاً ومتعمقاً في علم العلل ، حتى قال عنه الإمام مسلم بن الحجاج: أستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علله. [٣٥]

ومنهم الإمام مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)مجموعة من المصنفات في العلل ، والأقران ، والتاريخ ، وذكر في مقدمة صحيحة حول هذا الموضوع ، ومنهم عبيد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي (ت٢٦٤هـ) في الضعفاء والمتروكين ، الصغير ، ومنهم محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني(ت٢٧٣هـ) ومنهم أبوداود السجستاني (ت٢٧٥هـ) رسالة إلى أهل مكة ومنهم محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ) قد صنف في العلل ، ومنهم أبو حاتم الرازي (ت٢٧٧هـ) صنف كتابي العلل ، والجرح والتعديل ، وقد عرف بالنقد الباهر للرجال والعلل. ومنهم أبو بكر البزار (ت٢٩٢هـ) صنف مصنفاً سماه " من يترك حديثه أو يقبل ". وصنف أبو بكر البرديجي (ت٣٠١هـ) كتاباً سماه معرفة أصول الحديث.

وفي هذه المرحلة دونت الأحاديث ، وأفرد علماء هذا العصر علم المصطلح بالتأليف بأنواعه المختلفة المتخصصة ، فصنف في: المرسل ، والعلل ، وتاريخ الرجال ، والثقات ، والضعفاء ، والطبقات ، والكنى ، والناسخ والمنسوخ. وكانت الصفة الغالبة في هذه المرحلة رغم كثرتها وتنوعها متخصصة في نوع واحد.

وقد بين الإمام الحاكم في كتابه "معرفة علوم الحديث" مجموعة من الكتب المختلفة في موضوعاتها الخاصة بعلوم الحديث ، والتي تدل دلالة واضحة عن نشأة الكتب في العصر الذهبي لعلم المصطلح.

المرحلة الرابعة:

مرحلة الكتابة والاستكمال
في القرون الرابع والخامس والسادس
من سنة (٣٠٠ هـ) إلى سنة (٦٠٠هـ)

وهي مرحلة واسعة في التأليف بهذا العلم ، وهي مرحلة كتابة مصطلح الحديث في كتب خاصة ، وتعد المرحلة الثالثة لها الأثر الواضح في مصنفات هذه المرحلة فقد تتلمذ أصحاب المصنفات في هذه المرحلة على من سبقهم في المرحلة الثالثة ، وبرز في هذه المرحلة



الكتب المستقلة التي تجمع قواعد أصول الحديث مجردة عن غيرها بوصفها علماً قائماً لذاته له منهجه ومرتكزاته. وفي هذه المرحلة بدأ الاهتمام في أنواع علم المصطلح المختلفة، وصنف في جميع هذه الأنواع، وبرز لكل نوع علماء مصنفين مختصين، برزوا في جانب معين من هذه الجوانب، مع أن هذه العلوم كثيرة ومتنوعة، لا يمكن ذكرها في هذا البحث،إذ أنها لا تعد ولا تحصى، حتى قال عنها الإمام محمد بن موسى الحازمي (ت٥٨٤هـ): "علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة، كل منها علم مستقل لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته".[٣٦] ومن أهم هذه العلوم المتعددة الأنواع:

(١) علم الجرح والتعديل: علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم مما يشينهم أو يزكيهم بألفاظ مخصوصة، وقد تكلم به الكثير ممن اشتغل بعلم الحديث، وصنف المصنفات في ذلك كالطبقات الكبرى لأبن سعد (ت ٢٣٠هـ)، وكتب التاريخ الكبير والأوسط والصغير للبخاري، والتاريخ ليحيى بن معين وغيره.[٣٧]

(٢) علم رجال الحديث: علم يعرف به رواة الحديث من حيث أنهم رواة للحديث، وأول من عرف عنه الاشتغال بهذا العلم، الإمام البخاري، وصنف فيه ابن حبان في كتابيه المجروحين، والثقات، وابن عدي (ت٣٦٥هـ) في كتابه الكامل في الضعفاء.[٣٨]

(٣) علم مختلف الحديث: علم يبحث في الأحاديث التي ظاهرها التعارض، من حيث إمكان الجمع بينها، إما بتقييد مطلقها،أو تخصيص عامها، أو حملها على تعدد الحادثة التي ورد فيها الحديث. وقد صنف فيه الشافعي (ت٢٠٤هـ)، وابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)،وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).[٣٩]

(٤) علم علل الحديث: علم يبحث في الأسباب الخفية الغامضة التي تقدح في صحة الحديث من أن الظاهر السلامة منه، كوصل منقطع، ورفع موقوف، وإدخال حديث بحديث. وممن صنف علي بن عمر الدارقطني ت(٣٨٥هـ).[٤٠]

(٥) علم غريب الحديث: علم يبحث فيما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة بعيدة عن الفهم لقلة استعمالها، وممن صنف الزمخشري (ت٥٣٨هـ)[٤١]

(٦) علم ناسخ الحديث ومنسوخه: علم يبحث عن الأحاديث المتعارضة التي لا يمكن التوفيق بينها من حيث الحكم على بعضها أنه ناسخ، وعلى بعضها الآخر أنه منسوخ، فما ثبت تقدمه يقال له منسوخ، وما ثبت تأخره يقال له ناسخ. وممن صنف فيه أحمد بن إسحاق الدينوري (ت٣١٨هـ).[٤٢]

إضافة إلى مجموعة كبيرة زاخرة من أمهات الكتب، والمؤلفات المتنوعة في فن مصطلح الحديث، والتي تعد بحق من المؤلفات الجامعة التي أصبحت مصدراً أساسياً لكل من صنف في هذا العلم من المراحل المتأخرة حتى أيامنا هذه، إذ نضجت العلوم واستقر الاصطلاح وصنفت الكتب والمصنفات، وقد امتازت هذه الكتب أنها لم تكن متكررة لما قبلها. ومن أهم هذه الكتب والمصنفات:

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ) والذي يعد أول مصنف في هذا المجال، لكنه لم يستوعب فقد جمع أبحاث المصطلح، فقد كانت البداية، وما زال التصنيف في هذا العلم ينمو.

(٢) معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن منيع الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ). جمع فيه أبحاث مختلفة في هذا الفن، لكنه لم يهذب هذه الأبحاث، ولم يرتبها الترتيب المطلوب مع أنه تميز بأنه أول من أوجد التعريف لمصطلحات علم مصطلح الحديث.

(٣) المستخرج- بكسر الراء- على كتاب الحاكم، أبو نعيم الأصبهاني ،أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ)، عمل على كتاب الحاكم مستخرجاً زاد فيه أشياء على ما كتبه.

(٤) الكفاية في معرفة قوانين الرواية، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي(ت٤٦٣هـ)، وهو كتاب جامع لمسائل هذا الفن، بين فيه القوانين المهمة في الرواية، وتنوع في كل نوع من أنواه مصطلح الحديث.

(٥) الجامع لآداب الشيخ والسامع، وهو أيضاً لأبي بكر أحمد بن ثابت البغدادي، جمع فيه الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها كل من طالب العلم والمتعلم. وقد اشتهر الخطيب البغدادي بكل فنّ من فنون علم الحديث، حتى لا تجد فناً إلا له به كتاباً مفرداً،حتى أن أكثر من جاء بعده كانوا عيالاً عليه، فكان كما قال الحافظ أبو بكر نقطة محمد بن عبد الغني البغدادي (ت٦٢٩هـ): كل من أنصف علم المحدثين بعد الخطيب عيال علي كتبه.[٤٣]

(٦) الإلماع في آداب الرواية وتقييد السماع، القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤) اقتصر فيه على الضبط وتقييد السماع.

(٧) ما لا يسع المحدث جهله، أبو حفص عمر بن عبد المجيد القرشي الميانجي (ت ٥٨٠هـ) مختصرة لكنها لها أهميتها في موضوعاتها.

لقد تميزت هذه المرحلة التاريخية لعلم المصطلح بجهود زاخرة من العلماء في البحث والتأليف والتصنيف والنقد والتحرير، حتى أن الحافظ ابن حجر وصف كتب هذه المرحلة بقوله: "كلّ فن من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً مفرداً". ولم تقتصر هذه المرحلة على هذه الكتب بل كان هناك مئات من الكتب التي صنفت في الرجال والثقات والضعفاء والطبقات والأطراف.

المرحلة الخامسة:

مرحلة الجمع والترتيب والتمحيص والنضج والاكتمال من سنة (٦٠٠ هـ) من القرن السابع إلى القرن العاشر

وهذه المرحلة التاريخية من مراحل هذا العلم بالرغم من طولها وامتدادها إلا أنها تعد عالة على المرحلة السابقة، مع الأخذ بالضبط والنقد والتمحيص بالرغم من كثرة العلماء، وقد اشتهر التأليف في هذه المرحلة وجاءت هذه الكتب لتستفيد من كتب المرحلة السابقة، فرتبت، وهذبت،وحوت جميع ما سبقه. وأطلق عليها المرحلة التعليمية، ومن أهم كتب هذه المرحلة:

علوم الحديث، ويعرف ب"مقدمة ابن الصلاح"، تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المشهور بابن الصلاح الشّهرزوري،(ت٦٤٣هـ) صنفه عندما ولي التدريس بالمدرسة الأشرفية، ويعد العمدة في هذا الفن، وقد جمع ابن الصلاح كتابه من تصانيف الخطيب البغدادي، ومعرفة علوم الحديث للحاكم، وغيرهما من العلماء ممن سبقه في المرحلة السابقة، فهذبها وجمعها، وكان يمليها

على طلابه بالمدرسة الأشرفية ، فلم تكن قد ظهرت بمظهر المصنف والمرتب والمنسق ، حيث أنه لم يذكر ما له علاقة بالسنة وحده ، وما يتعلق بالمتن وحده ، ولم يفصل بين كيفية التحمل والأداء ، وبين ما يخص صفات الرواة وحده. إذ حرص على إلقاءه على طلابه في المدرسة ، فقد جمع ما تفرق في مؤلفات من سبقه ، وضم إليه ما يجب ضمه من الفوائد ، ومع ذلك فقد اشتمل كتابه على خمسة وستين نوعاً من أنواع العلوم الخاصة بعلم المصطلح. وقد جاء الإمام السيوطي من بعده فاعتذر في كتابه التدريب عن ابن الصلاح في عدم ترتيبه وتنسيقه فقال: "بأنه جمع متفرقات هذا الفن من كتب مطولة. وقد وجد هذا الكتاب العناية والرعاية من حيث الشرح والتوضيح والنظم ،جهودا متعددة من العلماء ، حتى أن كل من خلفه سار على ذلك ، فمنهم شرحه ، ومنهم من نظمه ، ومنهم من اختصره ، ومنهم من اقتصر على بعض ما جاء فيه ، ومنهم من استدرك عليه بعض ما فاته وجعل له حواشي ، فكان هذا الكتاب حدثاً جديداً شغل العلماء والباحثين ، وفيه قال الحافظ ابن حجر: فلا يحصى كم ناظم له ومختصر ، ومستدرك عليه ومقتصر ، ومعارض له ومنتصر".

وممن شرحه واختصره مع التهذيب والزيادات البلقيني (ت٨٠٥هـ) في كتاب سماه " محاسن الاصطلاح وتضمين كتاب ابن الصلاح " ، وممن شرح كتابه وعلق عليه الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي(ت٨٠٦هـ) في كتاب سماه "التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من علوم ابن الصلاح". وهو شرح نفيس قيم قدم فيه إيضاحات وتفسيرات وزيادات أضافت إلى الكتاب كثيراً من الإيضاءات. ونظمه في كتابه " ألفية الحديث " وزاد عليه في ألفيته"نظم الدرر في علم الأثر "وشرحها بشرحين مطول ومختصر ، والمختصر سماه" فتح بشرح ألفية الحديث " ، وعلى شرحه حاشية لبرهان الدين عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ) بلغ بها نصفه ، وتسمى" النكت الوفية بما في شرح الألفية". وحاشية لقاسم بن قطلوبغا (ت٨٧٩هـ). وممن شرحها محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ) في كتاب سماه "فتح المغيث شرح ألفية الحديث" ، وهي من أوفى الشروح . وممن شرحه جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتاب سماه "تدريب الراوي" ويعتبر شرحاً للتقريب على الخصوص ثم لكتاب ابن الصلاح وغيره من كتب الفن على العموم.

فمن ثم جاء كتاب "التدريب" أوفى ما كتب في علم مصطلح الحديث و أصوله ، وعليه المعول لكل من ألف في الفن بعده . وقد أكثر فيه من النقول والنصوص. تاركاً لمن جاء بعده التحقيق والتمحيص. والموازنة والترجيح. إضافة إلى أن السيوطي كان قد قام بنظم كتاب ابن الصلاح شعراً بمنظومه سماها " نظم الدرر في علم الأثر " وشرحها بشرح سماه " قطر الدرر" ، ونظمه في كتابه " ألفية الحديث " وشرحها بنفسه ، وممن شرحه الشيخ زكريا الأنصاري (ت٩٢٨هـ) في كتاب سماه " فتح الباقي شرح ألفية العراقي " وعلى شرحه حاشية لعلي بن أحمد العدوي (ت١١٨٩هـ) في مجلد واحد.

أما اختصار الكتاب فقد اختصره أبو زكريا محيي الدين النووي (ت٦٧٦هـ) في كتاب سماه "الإرشاد" ، واختصر المختصر في كتاب سماه"التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير" ، وممن اختصره تقي الدين بن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) في كتابه"الاقتراح في بيان الاصطلاح" ، وممن اختصره بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني (ت٧٣٣هـ) في كتاب سماه "المنهل الروي في الحديث النبوي" ، وممن اختصره الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) في كتاب سماه " الباعث الحثيث شرح اختصار الحديث" ، حيث استدرك عليه استدراكات نافعة ، وبين بعض الزيادات والتوضيحات الهامة ، وقد شرحه أحمد محمد شاكر. وممن اختصره أبو حفص سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقيني (ت ٨٠٥ هـ) في كتاب سماه: "محاسن الاصطلاح في تضمين كتاب ابن الصلاح" وممن اختصره أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المصري(ت ٨٥٢هـ) كتاب سماه "نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر" وله كتاب "النكت على ابن الصلاح" .(٤٤)

وبالرغم من العناية والاهتمام بكتاب ابن الصلاح المتقدم الذكر فقد تميز بمميزات عده في هذه المرحلة منها:

١- اشتماله على خمسة وستين نوعاً من أنواع علم مصطلح الحديث.
٢- الاستنباط الدقيق لمذاهب العلماء وقواعدهم من أقوالهم المأثورة.
٣- ضبط التعاريف وحررها ، وأوضح مصطلحات لم يصرح بها قبله.
٤- هذب عبارات المتقدمين وبين وجوه الاعتراض على بعضها.
٥- عقب على أقوال العلماء بالتحقيق والترجيح.(٤٥)

المرحلة السادسة:

عصر الركود والجمود

إذ توقف الاجتهاد في مسائل العلم والابتكار والتصنيف دون اجتهاد في مسائل العلم ، وقد امتد ذلك إلى مطلع القرن الهجري الحالي(٤٦)

المرحلة السابعة:

مرحلة اليقظة والتنبه في العصر الحديث مطلع القرن الهجري الحالي إلى وقتنا الحاضر

فقد تنبهت الأمة للأخطار نتيجة اتصال الغرب بالشرق ، والصدام العنيف العسكري والفكري ، وقد وضعت الدسائس واثيرت شبهات حول السنة اقتضت تأليف أبحاث حولها ، كما اقتضى تجديد طرائق التدوين في علوم الحديث(٤٧)

ومن هذه التصانيف في المرحلتين الأخيرتين من مراحل هذا جملة كثيرة ومتنوعة سنذكر بعض الشيء عن بعضاً من الكتب الحديثة بشيء من التوضيح مع ذكر بعضها الآخر.

(١) الاقتراح ، تقي الدين محمد بن علي بن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ).
(٢) الخلاصة في أصول الحديث ، شرف الدين حسن بن محمد الطّيبي (٨١٦هـ) .
(٣) تنقيح الأنظار ، محمد بن إبراهيم المعروف بأبن الوزير الزيدي (ت ٨٤٠هـ) وقد شرحه محمد بن إسماعيل الأمير الحسني الصنعاني (ت١١٨٢هـ).لكتابه توضيح الأفكار.
(٤) المختصر للشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) ، شرحه محمد بن عبدالحي اللكنوي (١٣٠٤هـ) سماه "ظفر الأماني بشرح خلاصة الجرجاني ".
(٥) نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) سماها "نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر" – ابن حجر – جزء صغير جدا لكن من أنفع المختصرات وأجودها ترتيبا ، وقد شرحها في كتاب " نزهة النظر " وقد لقي هذا الكتاب شروحات ، وحواشي عليه بشكل واسع وكبير ، فمن الحواشي حاشية للقاني المتوفي (ت١٠٤١هـ)،



وحاشية لأبن قطلوبغا. ومن الشروح : المصنف ، علي بن سلطان القارئ (ت١٠١٤هـ) ، و"اليواقيت والدرر في شرح نخبة الأثر" عبدالرؤوف المناوي ،(ت ١٠٢١هـ)، تحقيق: مرتضى الزين احمد " وبهجة النظر " محمد صادق بن عبد الله السندي.(ت١١٣٨هـ) وقد نال ترتيب ابن حجر وتحريره موضع إعجاب العلماء ، مما كان جعلهم يقبلون عليه في الدروس والشروح والاختصار.

(٦) مقدمة في اصول الحديث ، المحدث الجليل الشيخ عبد الحق الدهلوى (ت ١٠٥٢هـ)، تقديم و تعليق: سلمان الحسينى الندْوى

(٧) المنظومة البيقونية ، عمر بن محمد بن فتوح البيقوني الدمشقي (ت١٠٨٠هـ)، شرحها محمد بن صعدان الحاجري (ت١٢٢٩هـ)، وشرحها محمد بن صديق بن حسن بن خان البخاري القنوجي (ت١٤٠٧هـ)بكتاب سماه " شرح العرجون في شرح البيقون" .

(٨) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، الشيخ محمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ) جمع فيه فوائد جمة عبارة عن نقول من كلام العلماء السابقين في هذا العلم ، وله فيها فضل الترتيب والتبويب ، والجمع والتهذيب ، والترجيح أحياناً.

(٩) توجيه النظر إلى أصول الأثر ، الشيخ طاهر بن صالح الجزائري (ت١٣٣٨هـ) جمع فيه الخلاصة من أقوال العلماء السابقين في علم مصطلح الحديث وعرض علوم الحديث عرضاً دقيقاً.

(١٠) الطراز الحديث ، لأبي الفضل الجيزاوي شيخ الجامع الأزهر سابقاً.

(١١) مفتاح السنة أو " تاريخ فنون الحديث" للشيخ محمد عبدالعزيز الخولي وهو كتاب وسط ونافع ومفيد عرض فيه لمنزلة السنة من القرآن وابتداء التدوين ، وأشهر الكتب المؤلفة في القرون الأولى ولاسيما القرن الذهبي لتدوين كتب الحديث ودواوينه وهو القرن الثالث ، كما عرض فيه لتواريخ علوم الحديث.

(١٢) أحسن الحديث . للعلامة الشيخ عبد الرحمن المحلاوي ، اختصر فيه البيقونية وشروحها وحواشيها.

(١٣) مصطلح الحديث للعلامة الشيخ عبد الغني محمود ، اختصر فيه النخبة وشروحها.

(١٤) الأسلوب الحديث في علوم الحديث " للعلامة الشيخ " أمين الشيخ" . اعتمد فيه على كتب السابقين ولاسيما كتاب " ظفر الأماني" شرح مختصر الجرجاني" و" مفتاح السنة " وذكر في آخره جملة عن الأحاديث المشكلة والإجابة عنها وعدتها واحد وعشرون حديثاً.

(١٥) ضوء القمر في توضيح نخبة الفكر"و " الموجز في علوم الحديث" الشيخ " محمد بن علي أحمدين ".

(١٦) " المنهل الحديث في علوم الحديث" للعلامة الشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني.

(١٧) الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام " اللكنوي " ، وفيه عرض جيد لأبحاث هذا العلم.

(١٨) الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة" للكنوى" أيضا ، وفيه إجابات على أسئلة عشرة تتعلق بعلوم الحديث ، منها ما يتعلق بالصحيح والحسن في كتب السنن والمصنفات والمستدركات ، ومنها ما يتعلق بدرء التعارض بين أقوال المحدثين.

(١٩) قواعد في علوم الحديث " للعلامة " ظفر أحمد العثماني التهانوي ، تحقيق عبدالفتاح أبي غدة ."والسبب في تأليف هذا الكتاب هو ما وقع في الهند من طعن بعض الناس بالعلماء ، فألف كتابه إعلاء السنن سماه بعد ذلك الشيخ عبد الفتاح أبو غدة "قواعد في علوم الحديث" بعد أذن المؤلف ، وهو كتاب عظيم النفع والإفادة ، جميل الترتيب والنظام ، فريد المعرفة في كثير من جوانبه وفصوله ، تدارك به مؤلفه قسماً كبيراً من المباحث المغفلة في كتب مصطلح الحديث وعلومه ، فنظمها خير تنظيم ، وقعدها أحسن تقعيد ، تصحبها أدلتها وشواهدها وامتاز بالاستقراء والاستقصاء لكثير من المسائل فيذكر فيه مسائل شائكة ومستعصية من أنواع مصطلح الحديث قل أن تجدها عند المعاصرين ، فقد استطاع أن يجمع قسماً كبيراً من المباحث المغفلة في كتب المصطلح ، فنظمها خير تنظيم.

(٢٠) المنهج الحديث في علوم الحديث " للدكتور الشيخ " محمد محمد السماحي" ، قصد فيه إلى إعداد موسوعة جامعة في علوم الحديثً.

(٢١) مقاصد الحديث في القديم والحديث " للدكتور الشيخ " مصطفى أمين التازي" وهو يتألف من جزأين عرض فيهما لمسائل من هذا العلم ، وهو في عرضه يتميز بسلاسة العبارة وجمال الأسلوب ودقة التحقيق.

(٢٢) الوسيط في علوم ومصطلح الحديث " للدكتور الشيخ " محمد محمد أبو شهبة " وهو خلاصات محررة لما يوجد في متفرقات كتب الفن من لدن الرامهرمزى إلى عصرنا هذا . كما يقول الشيخ رحمه الله.

(٢٣) أصول الحديث: علومه ومصطلحه للدكتور محمد عجاج الخطيب وقد تناول فيه أهم القواعد والأسس التي اتبعت في قبول الحديث ورده ، وفي تحمله وأدائه ، وما يلحق بهذا من علوم مختلفة تتعلق بأحوال الرواة والمرويات ، وما يترتب على ذلك من أحكام بين القبول والرد.

(٢٤) علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح ، وهو كتاب كما قال صاحبه يجمع طائفة من المباحث العلمية تنفض غبار السنين عن تراثنا الخالد ، وتعرض أنفس روائع الفكر بأسلوب واضح بسيط أقرب إلى ذوق العصر ، ثم هو يجمع في آن واحد بين التأليف والتحقيق ، ويحاول إحكام الربط بين النتاج القديم والمنهج الجديد فقد درس فيه المؤلف علوم الحديث دراسة تحليلية ، وحاول أن يستخلص من ذلك المقاييس النقدية التي نادى بها علماؤنا من خلال المصطلحات الكثيرة المتفرقة ، وقد عقد في نهاية خاتمة حوالي أحد عشرة صفحة استخلص منها منهج المحدثين في النقد ، وبين أن منهجهم قائم على تمحيص الحقائق لا على تنميق المظاهر ، إذ المضمون هو الذي يعني هؤلاء ، وتعرض لشبهات المستشرقين الذين قالوا أن علماء الحديث اهتموا بالشكل دون المضمون. (انظر ص٣٠٦ من الكتاب)

(٢٥) منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر ، وهو يمتاز بمميزات كثيرة ، منها حسن التقسيم والتفصيل ، ودقة التحرير للأقوال والآراء التي كثرت فيها الخلافات ، وعمق الرد على بعض الآراء الاستشراقية التي لم تقم على أساس علمي سليم ، حيث





ابتكر فيه تقسيماً جديداً لعلوم الحديث في نظرية علمية متكاملة ، وفي الكتاب دراسة تاريخية لادوار علوم الحديث.

(٢٦) لمحات في أصول الحديث للدكتور محمد أديب صالح ، وهو كتاب يمتاز بحسن العرض وعمق الفكرة وغزارة الفائدة.

(٢٧) يسأل عن الحديث النبوي مصطلحه ، بلاغته ، علومه ، كتبه. محمد الصباغ ، وفيه خلاصة علم لمصطلح وكتبه لكنه لم يستوعب جميع مسائل الحديث ، وإنما ذكر هذه المسائل فقط.

(٢٨) تيسير مصطلح الحديث د. محمود الطحان ، يمتاز بسهولة العبارات والتلخيص والاستيعاب لجميع أبحاث المصطلح بشكل مختصر ، حيث سهل ويسر فهم هذا الفن على المبتدئين ولا يذكر الخلافات ، ولا الأقوال في المسائل المختلف فيها.

(٢٩) المنهل اللطيف في أصول الحديث ، القواعد الأساسية في علم مصطلح الحديث محمد بن علوي المالكي الحسني.

(٣٠) الإيضاح في علوم الحديث و الاصطلاح ، دكتور مصطفى سعيد الخن ودكتور بديع السيد اللحام.

وهناك كتب أخرى للمعاصرين في هذا الفن ، وهكذا توالت سلسلة هذا العلم متواترة لحمل الحديث النبوي وتبليغه علماً وعملاً ودراسة وشرحاً ، منذ عهده صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر ، ويستطيع أي إنسان في أي وقت أن يجد السبيل إلى معرفة الحديث الصحيح وتمييزه عن غير الصحيح ، حيث كانت كل مرحلة تتعامل مع مستجدات وقتها ، فتضع لها الضوابط المناسبة والعلاج الصحيح. فكانت الضوابط والمؤلفات تواكب هذا التغير.

الخاتمة

فقد تعرفنا ولله الحمد والمنة ،من خلال البحث على تاريخ مصطلح الحديث ومراحله التي مر بها عبر العصور ، ومنذ نشأته الأولى ، وأن كل مرحلة كانت تتعامل مع مستجدات وقتها ، تضع الضوابط والقواعد لتلك الفترة ، وأن العلماء قد بذلوا قصارى جهدهم في تطبيق هذه القواعد والضوابط التي وضعوها من تفكيرهم القادر على الإبداع والابتكار القائم على حرصهم لحفظ حديث النبي .صلى الله عليه وسلم .من التبديل والتغيير والزيادة والنقصان ، وأن هذه القواعد قد امتازت بالدقة والمنهجية ، والتي تميزوا بها عن غيرهم في نقد الأخبار ، وتوصلت إلى أهم النتائج التالية:

- أن علم مصطلح الحديث مر بمراحل متعددة بدأت منذ نشأة الحديث ، وأن لكل مرحلة ميزاتها وخصائصها.
- أن الحاجة قائمة بشكل مستمر للتصنيف والتوضيح والبيان لهذا الفن ، وأن التصنيف ما زال يتوالى حتى يومنا الحاضر.
- امتازت كتب المصطلح المتأخرة إلى سهولة العبارة والترتيب والتبويب الفني المناسب إذا ما قورنت مع المصنفات المتقدمة.
- أهمية علم مصطلح الحديث في حياة المسلمين لتميزها بين الأحاديث الضعيفة والصحيحة.
- حاجة الحياة المعاصرة للتصنيف بهذا العلم بعبارات واضحة وسهلة بعيدة عن التعقيد وعدم الوضوح.
- بيان شدة حرص الصحابة والتابعين .رضي الله عنهم . ومن تبعهم من المسلمين عبر مراحل الحياة لحفظ وصيانة حديث النبي ﷺ
- أن علم مصطلح الحديث قد بدأ منذ بداية الدعوة الإسلامية يهتم بدراسة السند والمتن معاً.

وفي النهاية أسأل الله أن ينفعنا بما تعلمنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا إنه سميع مجيب الدعوات ، والحمد لله رب العالمين

الهوامش

(١) جامع الترمذي –العلم- باب ٧ - ٣٤\٥ (٢٦٦٣) سنن ابن ماجة ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٨٤\١ مسند أحمد ٤٣٧\١ ،٨٠\٤
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي –المقدمة - تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ٦٤/١(٢٢)
(٣) رواه صحيح مسلم - المقدمة - النهي عن الحديث بكل ما سمع ١١/١
(٤) مسند أحمد ١١/٥
(٥) صحيح مسلم - المقدمة- ٩/١ ،عن سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة ، والترمذي _العلم- ما جاء فيمن يروي حديثاً وهو يرى أنه كذاب ٢٢٦٦٢سنن ابن ماجة ٣٩ ,مسند أحمد ٢٠/٥ ،١٩ ،١٤
(٦) تذكرة الحفاظ ٢/١ شمس الدين الذهبي تحقيق المعلمي اليماني
(٧) موسوعة الحديث الشريف
(٨) تدريب الراوي ٤٠\١ منهج النقد في علوم الحديث ٢٧.
(٩) تدريب الراوي ٤٠/١ فتح المغيث توضيح الأفكار ٦٠\١
(١٠) الكفاية في علم الرواية ٧\٣ ،اختصار علوم الحديث ١٨ ، علوم الحديث ومصطلحه ١٠٨ صبحي الصالح ، أصول الحديث علومه ومصطلحه محمد عجاج الخطيب ط٤ ص٤٥ ، منهج النقد في علوم الحديث نور الدين عتر ٣٢ .
(١١) مقدمة تدريب الراوي عبد الوهاب عبد اللطيف ص٥.
(١٢) سبق تخريجه. وأنظر :علوم الحديث ومصطلحه د صبحي الصالح ١٥ ، منهج النقد في علوم الحديث نور الدين عتر ٣٤ أصول الحديث محمد عجاج ص ١٠
(١٣) صحيح مسلم المقدمة (١٤/١)، وسنن الدارمي (رقم ٤٢٥)، وابن أبي حاتم في الجرح والعديل (١٥/٢)
(١٤) مقدمة صحيح مسلم ١|١٥ ابن أبي حاتم ٢|٣١
(١٥) منهاج السنة النبوية ٣٧\٧ .
(١٧) الكفاية في علم الرواية ١١٧
(١٨) الموضوعات
(١٩) صحيح البخاري .العلم –تعليقاً بصيغة الجزم ١-١٧ وانظر شرح القسطلاني ١-١٧٧ ، تذكرة الحفاظ ٤٣/١ .معرفة علوم الحديث للحاكم ٩.
(٢٠) جامع الترمذي- الفرائض –باب ١٠ ٤٢٠/٤ (٢١٠٥) معرفة علوم الحديث للحاكم ١٥.
(٢١) صحيح البخاري مع الفتح –الاستئذان – التسليم والاستيذان ثلاثا ٣١/١١ (٥٤٢٦)
(٢٢) مسند أحمد ٤٧ ،٢ ، ٥٦ والترمذي ٤٠٦ وسنده صحيح
(٢٣) السنة قبل التدوين محمد عجاج الخطيب ١١٢-١١٥
(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي- المقدمة- بيان أن الإسناد من الدين ٧٨\١ .
(٢٥) مسلم في المقدمة ، الطلاق ١٩٤/٤ أبو داود ٨٨/٢ , النسائي ١١٦/٢
(٢٦) مقدمة صحيح مسلم
(٢٧) صحيح البخاري ١٥١\٣ وانظر الفكر المنهجي عند المحدثين د همام ص٥٥ وانظر إلى كتاب بدر الدين الزركشي في كتابه "الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة
(٢٨) صحيح مسلم ١٣\١ ، والصعب : الجمل الذي لا يركب
(٢٩) الفكر المنهجي عند المحدثين د همام سعيد٥٦
(٣٠) صحيح مسلم في مقدمة (١٢/١-١٣) ، والدارمي في السنن (رقم ٤٣٢ ، ٤٣٣)
(٣١) المدخل إلى علم الحديث د. نور الدين عتر بمقدمة كتاب علوم الحديث لأبن الصلاح المكتبة العلمية بالمدينة ط١٩٧٢ ،٢ .





(٣٢) سبق تخريجه
(٣٣) السنة قبل التدوين ، محمد عجاج الخطيب دار الفكر ط ٥ ٢٢٨
(٣٤) الرسالة للإمام الشافعي ص ٤٨ .
(٣٥) معرفة علوم الحديث ١١٤.
(٣٦) التدريب ٩
(٣٧) توضيح الأفكار للصنعاني ٢٤٢\٢، النكت على نزهة النظر ١٠٣ى تدريب الراوي ٢٥\١
(٣٨) المصادر السابقة
(٣٩) المصادر السابقة
(٤٠) توضيح الأفكار ٢٠\٢
(٤١) توضيح ٢٥٣\٢ ، تدريب الراوي ٢٣٧الباعث الحثيث ٤٦٤\٢
(٤٢) المصادر إلى\سابقة ، النكت على نزهة النظر ١٠٥
(٤٣) شرح نخبة الفكر ١١
(٤٤) مقدمة عتر لكتب علوم الحديث لأبن الصلاح ص ٢٠
(٤٥) منهج النقد في علوم الحديث ص٦٦
(٤٦) المصدر السابق ٦٩
(٤٧) منهج النقد ص ٢٠



الدكتور علي مصطفى علي القضاة في سطور:

باحث وكاتب أردني من مواليد عين جنة عام ١٩٦٠. حصل على البكالوريوس من الجامعة الإسلامية- المدينة المنورة عام ١٩٨٣. حصل على الماجستير من الجامعة الأردنية / كلية الشريعة ١٩٩١. حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم درمان الإسلامية / كلية أصول الدين ١٩٩٥.

من إصدارات ٢٠٠٩



صدر للكاتب والشاعر والمؤرخ إبراهيم خليل إبراهيم وعن سلسلة كتاب صالون رفعت المرصفى كتابه الجديد .. البطل الأسطورة .. والذي يقدم بطولة حقيقية لأحد أبطال الصاعقة المصرية خلال معارك الاستنزاف: وما بعدها، وهو البطل عبد الجواد محمد مسعد سويلم، الذي أشترك في ١٨ عملية عبور خلف وداخل الخطوط الإسرائيلية خلال معارك الاستنزاف. وتمكن من تدمير ١٦ دبابة و١١ مدرعة و٢ عربة جيب و٢ بلدوزر وأتوبيساً، كما أشترك مع رفاقه في تدمير ٦ طائرات بمطار المليز. وبعد إصابته بصاروخ مما سبب بتر ساقه اليمنى وأيضا اليسرى وساعده الأيمن كما فقد عينه اليمنى مع جرح كبير غائر بالظهر، بعد أصابته بهذه الإصابات الجسيمة رفد الخروج من الخدمة العسكرية وواصل كفاحه حتى حررت سيناء في أكتوبر ١٩٧٣.

ويعد البطل عبد الجواد محمد مسعد الجندي المصري الوحيد الذي نال شرف التكريم من رؤساء مصر جمال عبد الناصر، ومحمد أنور السادات، ومحمد حسنى مبارك، وأيضا الجندي الوحيد على المستوى العالمي الذي قاتل وهو مصاب بنسبة عجز مائة في المائة.

الكتاب يقع في ١٣٥ صفحة من القطع المتوسط وصدر في طباعة فاخرة. هذا وقد صدر للأديب والمؤرخ إبراهيم خليل إبراهيم ١٥ كتابا منها الشعري والتاريخي والنقدي. وأطلق عليه عدة ألقاب منها: الأديب الشامل، ومؤرخ حرب أكتوبر، وعندليب الأدب.

هل يمكن فلسفة التاريخ؟



يسري عبد الغني عبد الله
باحث ومحاضر في الدراسات العربية
والإسلامية والتاريخية
جمهورية مصر العربية
ayusri_a@hotmail.com

نقول : أنه لا يمكن أن نبحث في التاريخ دون فلسفة ، ومصطلح فلسفة التاريخ مصطلح قديم يعود إلى فيكو الإيطالي (١٦٦٨ م . ١٧٩٤ م) عند البعض ، وإلى القديس أوغسطين (٣٥٤ م . ٤٣٥ م) عند البعض الآخر ، أو إلى أقدم من هذا ، ولكن المصطلح عُرف كموضوع مستقل ، في القرن الثامن عشر الميلادي على يد مفكري عصر الاستنارة من أمثال: هيردر ، وكوندرسيه ، ومونتسكيو ، وفولتير ، الذي ينسب إليه بلورة المصطلح.

لقد كان الدافع إلى البحث عن العلية أو السببية في تلك الفترة يعود إلى التصدي للمؤثرات الميتافيزيقية في فهم التاريخ والتي سادت مرحلة العصور الوسيطة على يد رجال الكنيسة ، والعمل على دراسة التاريخ دراسة عقلية ترفض المبالغات والخرافات.

والحق يقال أن فلسفة التاريخ بمعنى البحث عن العلل والأسباب ، أقدم من القرن الثامن عشر الميلادي وعصر الاستنارة الأوربية ، فقد أشار إلى ذلك ابن خلدون إشارة لها مغزى دون أن يستخدم المصطلح نفسه ، عندما ميز بين الظاهر والباطن في التاريخ بقوله : " ففي ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول السوابق من القرون ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق ".[١]

وهذا يعني أن فلسفة التاريخ تتجاوز السرد والحشد لأخبار لا رابطة بينها ، وأنها تقوم على التعليل.

على أن الغرض من القول : أنه لا تاريخ بدون تعليل ، والعقلي ولمنطقي هو أن يتجنب الباحث نسبة الواقعة التاريخية إلى الصدفة وحدها ، بل عليه أن يبحث في ظروف الواقعة بحثًا علميًا سليمًا ، فالمؤرخ يستطيع أن يفسر لنا قيام الحرب أو اغتيال شخصية تاريخية ليس بالصدفة ، ولكن بأسباب عقلية منطقية مقنعة ، مثلما يفسر الجيولوجي وقوع الزلزال ، أو مثلما يفسر عالم الطبيعة ظاهرة طبيعية معينة.[٢]

نقول: إن المصادفة ما هي إلا مجرد تعبير عن عدم الإدراك العلمي السليم ، أو فلنقل مجرد تعبير عن الجهل بالأسباب الفعلية ، أي أنها اسم آخر لشيء نعجز عن فهمه ، فتسمية (الكواكب السيارة) نشأت من الاعتقاد بأنها تسير على غير هدى في السماء وقبل أن يتم فهم انتظام تحركاتها ، كما أن تعبير (سوء الحظ) طريقة مفضلة للتهرب من الواجب المرهق في البحث عن الأسباب.[٣]

عندما نتكلم عن المعايير التي يجب على المؤرخ أن يتسلح بها ليصبح بحق قادرًا على كتابة التاريخ كتابة منهجية نقدية سليمة ، لابد أن نتساءل: وما هي المعايير المنهجية والفكرية التي تؤهل الباحث لكتابة التاريخ كتابة نقدية قائمة على أسس وأصول المنهج العلمي السليم ؟

١ .عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ص ٤٠٣

٢ . أحمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ ، ص ٢٥ ، بتصرف من عندنا .

٣ .إدوارد كار ، ما هو التاريخ ؟ ، ترجمة / ماهر و بيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٩٥ .

■ الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمود محمد كحيلة ، كليوباترا البطلمية في الثقافة العالمية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص٥٨- ٦٠ (www.historicalkan.co.nr)

لقد حاول الكثيرون الإجابة عن هذا السؤال بطرق شتى، وقد صنفت الإجابات تحت الآراء الخاصة بمسألة أو قضية فلسفة التاريخ ومفهومه، وهي عمومًا في تفسيراتها أو توجهاتها تتبع أحد اتجاهين:

الاتجاه الأول

هو الاتجاه الصوفي المثالي، وهو رأي الفيلسوف / هيجل (١٧٧٠ م- ١٨٣٠ م) و معاصروه الذين تأثروا بالإيمان المسيحي، وهم يؤمنون بالعقل المطلق الذي هو المثل الأعلى لكل شيء، وهو الذي يسير الأحداث في الكون كله، ومن ثم فإن تحركات التاريخ محسوبة ومقدرة أبديًا، وكل الحوادث تسير إلى حيث هو مرسوم لها أن تسير، وكل جانب يأخذ مبرراته من المسار العام للأحداث التاريخية.

ويلاحظ القارئ المفضال أن هيجل تأثر في رأيه بمدارس التفسير الديني للتاريخ التي ترجع كل شيء إلى إرادة الله سبحانه وتعالى وتقديره، وهذه المدرسة تفضل التأمل في معالم العصر والحياة عند دراسة التاريخ، وليس شرطًا أن تبدأه من القديم، فإذا ما اكتمل تأملنا لمعالم الحياة أمكننا إرجاع النماذج الحاضرة إلى أصولها الأولى، أي أن هذه المدرسة تفضل أن تبدأ من التاريخ المعاصر، وتتابع التقصي حتى التاريخ القديم.

الاتجاه الثاني

أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه المادي، أو المدرسة المادية في تفسير وفلسفة التاريخ، والمعروف لنا أن الماديين من ألد خصوم المثاليين، وأحيانًا يعرف الماديون بأنصار المدرسة الطبيعية، والسبب في ذلك أنهم نظروا إلى التاريخ على أنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي والعلمي الذي يسقط الجانب الروحاني، ويتحرى المادة وحدها ولا غيرها، وبذلك عرفوا أحيانًا باسم أصحاب المذهب الواحد.

والاتجاه المادي يقول لنا: إنه لكي ندرس التاريخ لا بد أن نبدأ من القديم حتى نلحظ التطور الذي حدث في المجتمعات الإنسانية، وبذلك نتمكن من رصد حركة التطور وعلى ضوء ذلك نصنع معايير للتاريخ الإنساني، وهذه المعايير سوف تهدي المؤرخين إلى المنهاج السليم الصحيح عند كتابة التاريخ.(٤)

هذا، وقد اشتد الجدل بين أنصار المدرستين: المدرسة المثالية، والمدرسة الطبيعية منذ وقت طويل حول البحث عن النمط الذي تسلكه الحركة التاريخية على الوجه الأعم، ونوع اتجاه هذا التحرك.

والجدل طويل ومعقد، وهو فلسفي أكثر منه تاريخي، ويدور الجدل بين ثلاثة آراء سنحاول توضيحها للقارئ قدر الطاقة والإمكان.

الرأي الأول: التاريخ يسير نحو التقدم

إن التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمة للتنظيم الاجتماعي وأسس جديدة، ولكن في نفس الوقت يرون أن التطور التدريجي لا يؤدي إلى نتيجة حاسمة، لأنها لا تقضي على القديم برمته بل تحوره وتطوره، ومن ثم فإن الحركة التاريخية في حاجة ماسة إلى دفعة قوية للقضاء على القديم جملة وتفصيلا عن طريق الثورة الشاملة، وأن العنف وما يجلبه على البشر من كوارث ومتاعب وآلام هو الثمن الذي يدفعه أي شعب يبغي تحقيق طفرة كبيرة ووثبة عالية ينتقل بفضلها من القديم إلى الجديد!!

والماركسيون هم أصحاب هذه النظرية التقدمية، وإن كانت هذه النظرية قد لاقت الكثير من المراجعات من لدن أصحاب الفكر الجديد الذين انحازوا إلى التطور التدريجي الذي أدى إلى نتائج طيبة ومثمرة في كثير من البلدان خاصة في بلدان أوربا الغربية واليابان، وأن الثورة والعنف والدم لم يعودوا هم أنسب الطرق للتغيير التقدمي.

الرأي الثاني: هل يعيد التاريخ نفسه؟

عندما يعيد التاريخ نفسه أو نظرية العودة التاريخية، هذه النظرية تتلخص في القول الشائع بأن التاريخ غالبًا ما يعيد نفسه، وهذا الرأي كان شائعًا ومعروفًا عند مؤرخي العصور القديمة، وكان أفلاطون الفيلسوف اليوناني الشهير قد عبر عن هذا الرأي في محاوراته مع نيمايوس، ثم وردت هذه النظرية عند الشاعر الروماني / فيرجيل، وتلاه سائر المؤرخين القدماء، غير أن النظرية الحديثة المتصلة بعلم الفلك جردت هذه النظرية من أساسها الفلكي الذي اعتمد عليه أفلاطون، وبالتالي فلا يوجد دليل واحد على صحتها، وهذه النظرية ليست صحيحة بدرجة كاملة، فليس من المنطقي أو المعقول أن ننكر التطور التاريخي وتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في أي مكان من عالمنا الذي نعيش فيه، وذلك بفضل المبتكرات والمخترعات والاكتشافات العلمية الحديثة التي تلعب دورها الخطير في مسيرتنا الحياتية مع مطلع كل شمس.

صحيح أن بعض النماذج التاريخية قد تتكرر إذا تشابهت الظروف والأحوال النفسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن ذلك قد يحدث في البلدان البعيدة عن تيارات التفاعل الفكرية، ولكن أين هذه البلدان في عصر العولمة والفضائيات وتكنولوجيا المعلومات والانفجار المعرفي ؟!

لقد كان المؤرخون القدماء لا يهتمون بتاريخ البشرية ككل بل بالحوادث الفردية التي قد تتكرر نماذجها، ولعل هذا ما دفعهم إلى الإيمان بفكرة العودة التاريخية، أو كما نقول في كلامنا: إن التاريخ يكرر نفسه!

الرأي الثالث: نظرية الدوائر اللولبية

هذه النظرية تحاول التوفيق بين المدرستين السابقتين، وترى أن التاريخ يتقدم والجنس البشري يرتقي بتقدم الخبرات الحضارية المستمرة، وهذا هو الاتجاه العام للحضارة الإنسانية، ولكن في نفس الآن تمر كل حضارة بدورة ثلاثية هي:

١. النشوء
٢. الاكتمال
٣. الانهيار

وفي بعض الأحايين يكون موت حضارة هو ميلاد حضارة جديدة أكثر تقدمًا في منطقة أخرى من العالم، على كل حال هذه هي سنة الحياة، فليس هناك أي شيء مخلد، ولسان الحال يقول دائمًا: ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع!!

ها هو المؤرخ البريطاني / أرنولد تومبي يعدد لنا عدد الحضارات التي قامت على الأرض فيحددها بـ ٢١ حضارة، ولم يتبق منها سوى خمس حضارات فقط لا غير، أما الباقي قد تحلل واندثر، الذي بقي منها هو الذي استطاع أن يواجه التحديات التي واجهها، واستجاب لها

---

٤. سيد أحمد علي الناصري، علم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٩ وما بعدها بتصرف من عندنا.

بوثبة تحقق التوازن ، ثم تقدم منه إلى وضع غير متوازن يمثل في حد ذاته تحديًا جديدًا يتطلب بالمثل استجابة ، وعندما تتوقف حضارة عن مقابلة التحدي باستجابة أو عجزت في ذلك أو كانت الاستجابة غير فعالة يكون ذلك بداية التدهور والاضمحلال.(٥)

بعيدًا عن فلسفة غير مفيدة

قد يكون مصدر التحدي من الداخل عن طريق البروليتاريا الداخلية (العمال والفلاحون والطبقات الكادحة) التي تنسحب عن القيادة المسيطرة ، أو يكون التحدي عن طريق البروليتاريا الخارجية أي الشعوب التي ترتبط بالدولة القاهرة أو المسيطرة ، وتتربص بها ، وتتحين أي فترة ضعف للانقضاض عليها .

حقيقي أن كل الحضارات الإنسانية تمر بالمراحل الثلاث المعروفة: الميلاد والاكتمال والشيخوخة أو الموت ، لكن لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نجزم بأنها حضارات متشابهة أو أن كلا منها يكمل الأخرى ، كما أن تعريف التاريخ بكلمة حضارة يشكل صعوبة بالغة ، فلا يزال هناك خلاف كبير على تحديد كلمة حضارة ، كما أن الأحداث التاريخية الكثيرة والمتشعبة أكبر من أن تخضع لقوانين أو مقاييس فكرية معينة ، وهي لا تسير في شكل معين ، لا في خط تقدمي مستقيم ، ولا بالخط الراجع إلى الخلف ، بل تسير في خط متعرج.

إن نظرة فاحصة على تاريخ العالم القديم الذي يبدأ من خمسة آلاف سنة مضت (تقريبًا) لا يظهر مثل هذه التصورات ، ولا تسير أحداثه في خط معين ، بل يراها البعض أنها تسير حينما اتفق فليس حياة الشعوب آلة تعمل بطابع واحد معين حتى يمكن تصنيفها بتلك المقاييس السالفة الذكر .

إن الذين يحاولون وضع معايير لحركة التاريخ إنما يبحثون قضايا فلسفية بحتة لا علاقة للتاريخ بها أي أنها ليست بقضايا تاريخية ، كما أنهم يستخدمون الأحداث التاريخية ليبرروا آراءهم الفلسفية ، وبذلك يصبح التاريخ الإنساني وسيلة للتفلسف والفلسفة ، وهو أمر مخالف لطبيعة الأمور والأشياء.

ولهذا رفض المؤرخ البريطاني الكبير / براترند راسل مثلا الإيمان بالاتجاهات السابقة للحركة التاريخية ، وذلك لأنه لا يوجد لها مجرى ثابت ، فالمستقبل القريب قد يكشف لنا عن حوادث قد تجعل مسار التاريخ مخالفًا تمامًا لما قيل أو كتب ، كما أن مشيئة الله سبحانه وتعالى التي تأتي من حيث لا ندري ولا نتوقع ولا نحتسب لا تخضع لهذه الحسابات الهندسية للتاريخ.

من ثم فإن دارس التاريخ لن يستفيد كثيرًا من الجدل العقيم حول فلسفة التاريخ في صياغة منهجه الخاص ، اللهم إلا إثراء ثقافة القارئ أو الباحث أو الدارس التاريخي .

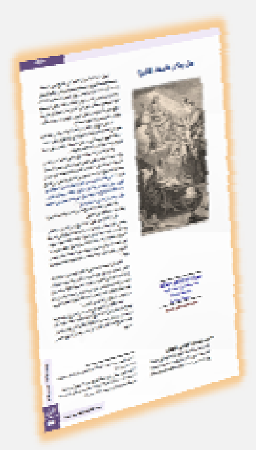
قضية الاختيار التاريخي

لو سأل باحث أو دارس تاريخي نفسه: ماذا أختار من موضوعات تاريخية كي أكتب عنها ؟ .يجيء الرد على النحو التالي: على الباحث أن يختار ما هو مهم ، ما هو مفيد للناس ، ما هو مفيد للمستقبل ، فالتاريخ ملىء بأحداث لا قيمة لها ، لأنها لا تأثير لها بأي حال من الأحوال ، وهو الذي نطلق عليه أحيانًا (الكم المهمل) .

تقول للباحث أو الدارس التاريخي : حاول أن تركز على الأحداث والأفكار التي كان لها صدى واسع ، وكان لها رد فعل ونتائج ، الأحداث والأفكار التي يمكن أن نجعلها دروسًا مستفادة في حاضرنا المعاش وفي مستقبلنا المأمول.

لا أحد يهتم أو يعتني بالأحداث المغلقة ، أي التي بلا مردود فعلي ، فهي تذكرنا بالأزقة المغلقة التي لا يمر فيها أحد من الناس ، لأنها لا توصل إلى شوارع أخرى نستطيع السير فيها وصولاً إلى المكان الذي ننشده.

وكلما كان للحديث صدى أوسع كلما كان أكثر اهتمامًا ، وأجدر بالاختيار والبحث والدرس والتمحيص ، فموضوعات التاريخ لا تدرس اعتباطًا ، أو كيفما اتفق أو عفوًا ، كما أنه لا يوجد عند المؤرخ الضليع المتمكن نماذج جاهزة يفصل التاريخ عليها ، بل عليه أن يدقق ويحقق ويمحص في الاختيار ، وأن يبحث بنفسه ولنفسه من أجل أن يجد النموذج الأفضل والأحسن لبحثه بعد أن يكون قد كون لنفسه فكرة واضحة عن طبيعة وأهمية علم التاريخ.



من مؤلفات الأستاذ يسري عبد الغني عبد الله:

له أكثر من ٢٨ كتاباً منشوراً مابين مؤلف ومحقق ومعد ، منها :

- الإسلام والتنمية الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥.
- المدنية العربية الإسلامية ، نظرات في الأصول والتطور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧.
- مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١.
- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الخامس عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١.
- معجم المعاجم العربية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠.

٥ .حسين محمد ربيع ، مناهج علم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤١ وما بعدها ، بتصرف من عندنا.

Ships and Boats in The Arabian Gulf
The story of a glorious struggle

السفن والمراكب في الخليج العربي

قصة كفاح مجيدة





ا.د.إبراهيم خليل العلاف
أستاذ ومدير مركز الدراسات الإقليمية
جامعة الموصل - العراق
ibrahim.all@hotmail.com

- **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

إبراهيم خليل العلاف ، السفن والمراكب في الخليج العربي: قصة كفاح مجيدة.-دورية كان التاريخية.-العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص ٦١ – ٦٨. (www.historicalkan.co.nr)

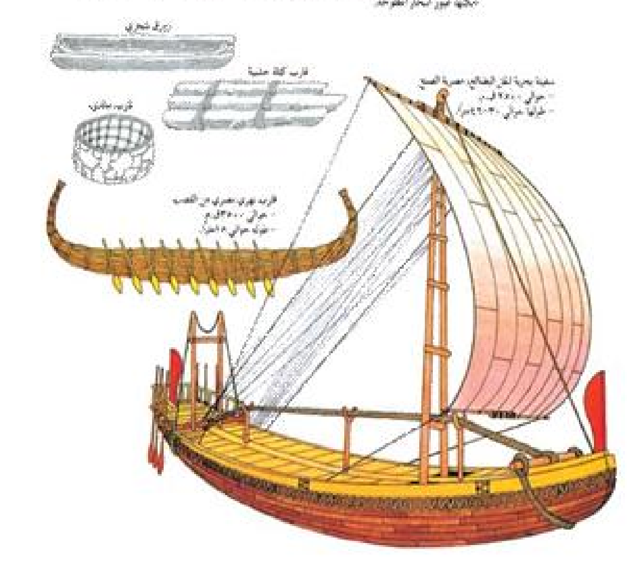
يرتبط تاريخ السفن ، بتاريخ كفاح الإنسان الطويل ، من أجل فك مغاليق أسرار الطبيعة . وللملاحة منزلة رفيعة بين اكتشافات الإنسان المتعددة ، فهي دليل ناصع على جرأة الإنسان وعناده . ولكي نوضح القصة المجيدة لتأريخ السفن والمراكب في الخليج العربي ، ينبغي أن نرجع قليلا إلى الوراء لنصل البحث بأولئك المجاهدين الذين جابوا البحار من أرباب الحضارات القديمة.(١)

وبالرغم من توصل الباحثين ، إلى نتائج مهمة حول الحضارات القديمة ، إلا أنهم ما زالوا في خلاف شديد حول تحديد اسم البلد الذي ظهرت فيه الحضارة لأول مرة . ومعنى ذلك أنهم في خلاف أيضاً ، حول تحديد اسم البلد الذي ظهر فيه فن الملاحة.(٢)

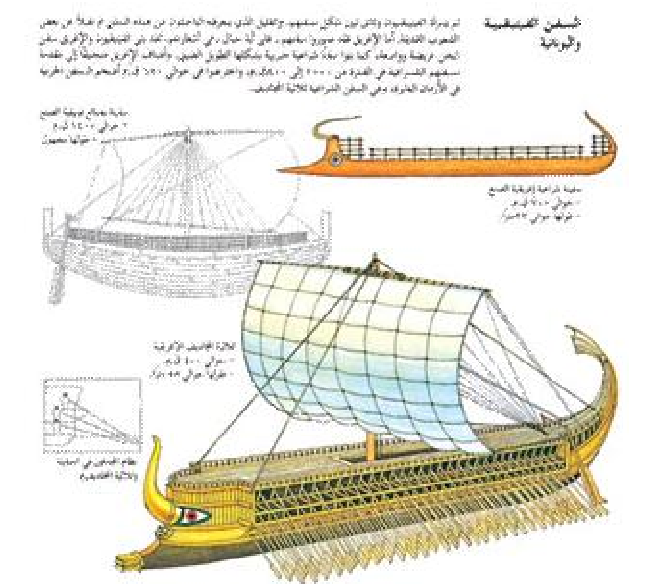
يذهب بعض الباحثين إلى أن الفينيقيين ، ملاحي صور وصيدا ، هم أول من جاب البحار ، وأول من أسس المستعمرات التجارية عبرها. ولكنهم حفظوا سرهم وكتموا ما توصلوا إليه من معلومات في مجال البحار ، فكانوا أول الرواد الذين أبحروا غربا للتجارة والكسب.(٣)

أما كيف تعلموا ركوب البحر ، فثمة أساطير تلقي أضواء على نشاطاتهم الأولى ، ومنها أن الصدف شاءت أن يكون هناك قوم منهم يقطنون سواحل الشام في غابات واسعة الأرجاء ، فضربت صاعقة رؤوس الأشجار ، فاشتعلت ، وامتد اللهب إلى أن التهم كل أشجار الغابة ، ولما لم يجد أهل تلك المناطق نجاة من النار عمدوا إلى قطع أشجار تلك الغابة المحترقة ما أمكنهم والقوها في البحر ، واعتلوا متنها وكان قائدهم أوزوس ، ثم سعى أولئك إلى تحسين هذا القارب البسيط.(٤)

وثمة رواية أخرى تقول بان المصريين ، هم أول من صنع المراكب وقادها في الأنهار والبحار. فقد بدئوا باعتلاء جذوع الأشجار من أحد شواطئ النيل إلى الشاطئ المقابل ، ثم ربطوا الجذوع إلى بعضها ببعض ، وشدوا وثاقها بالأعشاب المتينة كالبردي ، وكونوا منها كتلا من الخشب أمسكوها بأيديهم مستعملين أقدامهم كمحركات ، ثم جعلوا فيها مقاعد واستعملوا أيديهم أو قطعا من الخشب كمجاديف إلى أن أتقنوا صنعها ، فحفروا تلك الكتل الخشبية وجوفوها ، فصارت مراكب أخذت تطفو على سطح الماء . ويرجع تاريخ أول صورة مركب شراعي مصري إلى سنة ٦٣٠٠ قبل الميلاد .(٥)



ولئن أتقن المصريين ركوب البحار ، فقد برع العراقيون كذلك في صنع وسائل لنقلهم عبر دجلة والفرات ، وعلى جدران معابدهم ما يثبت ذلك ، ففي خورسيباد مثلا رسوم تشبه "الكلك" المعروف(٦). ومن منا يستطيع أن ينكر سفينة نوح التي كانت من أحكم وأتقن ما سبق ذكره من سفن ومراكب: ((وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون)).(٧) ثم أخذ فن الملاحة نصيبه من التقدم على يد اليونانيين ، والرومان القدماء ، ومع هذا فقد كان الرومان يستخدمون سفن الفينيقيين في حروبهم وتجارتهم.(٨)



وجاء دور العرب الذين لم يبرعوا في ركوب البحر قبل الإسلام ، باستثناء أهل حمير وأهل سبأ في اليمن. فقد خاف العرب في الجزيرة العربية ركوب البحر ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى امتداد جبال الحجاز التي تفصل بينهم وبين البحر. وهناك من يقول: ((أن العرب ، لبدواتهم ، لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه كالروم والافرنجة الذين لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه واحكموا الدراية بثقافته ...))(٩)

ولما ظهر الإسلام ، وخفقت راياته على سواحل الشام ومصر ، أزمع العرب على ارتياد البحر والركوب فيه. ويتناقل المؤرخون رواية تقول أن أول من ركب البحر منهم هو العلاء بن الحضرمي والي البحرين ، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣ هجرية /٦٣٤-٦٤٤ميلادية) ، والذي توجه بحرا لفتح بلاد فارس في اثنتي عشر ألفا من المقاتلين. لكنه فشل في تلك الغزوة فعادت سفن المسلمين إلى البصرة وقيل انه لم يرجع منها إلا القليل ، وغضب الخليفة عمر على العلاء وعزله.(١٠)

ولما ولي عثمان رضي الله عنه الخلافة(٢٣-٣٥ هجرية /٦٤٤-٦٥٦ميلادية) ، طلب منه معاوية بن أبي سفيان ، وكان يعمل واليا على الشام آنذاك ، أن يسمح له بغزو الروم بحرا فوافق الخليفة على ذلك بشرط أن لا يقسر أحداً من المسلمين على ركوب البحر ، بل يجعل الأمر اختيارا .(١١) ونجح معاوية في هدفه ، وتشجع المسلمين ، وأقدموا على العناية بالقوة البحرية والتي كان لها اثر كبير في اتساع رقعة الدولة الإسلامية. وقد يكون من المناسب أن نشير إلى موقعة ذات الصواري التي حدثت بين الأسطول الإسلامي والأسطول الرومي في البحر المتوسط سنة ٣٤ هجرية-٦٥٦ ميلادية. وكما هو معروف

فأن الخليفة معاوية(٤٠-٦٠ هجرية /٦٦٠-٦٨٠ ميلادية) قد أولع وخاصة ، عندما تسلم الخلافة ، بإنشاء السفن وقد وصل حجم الأسطول العربي الإسلامي في عهده إلى قرابة (١٧٠٠)سفينة. وكانت المراكب البحرية العربية ، أنواعا مختلفة فهناك السفن التجارية ، وهناك السفن البحرية ، والتي منها الصغار الخفاف السريعة ، ومنها الكبار الضخام لقذف النفط المشتعل على الأعداء. وكان في مقدمة المراكب حديده حادة تسمى الفأس أو اللجام إذا صدمت مركب العدو خرقته وأغرقته ، وهذا السلاح الحربي الفتاك يذكرنا برأس الكبش الذي كان يستعمل لثقب الأسوار ، ودك الحصون في المعارك البحرية.[١٢]

كما استخدم المسلمون الأسطول في فتح الكثير من الجزر الكبرى في البحر المتوسط ، أمثال صقلية ورودس وانتزعوها من أيدي البيزنطيين . وقد اهتم العرب بعد ذلك بإنشاء دور الصناعة "الترسانة" ، وأول دار للصناعة بنيت في تونس على عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٥٤هـ (٦٧٤م).[١٣]

وقد سمى العرب مجموع السفن(أسطولاً) مستعيرين اللفظ اليوناني Stolos وكانت السفن العربية أضخم من السفن البيزنطية. إلا أنها كانت أقل منها سرعة ، وسرعان ما تحسنت السفن العربية. ويدين العرب للبيزنطيين ، بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب الذين تعلموا هذه الفنون من البيزنطيين أصبحوا أساتذة بها. وقد انتشرت بعض الاصطلاحات البحرية التي استعملها العرب في أوربا . ومن هذه الاصطلاحات لفظة أمير البحر Admiral وكلمة Coruette المأخوذة عن لفظة "غراب" العربية والتي تعني نوعا من أنواع المراكب العربية. ويبدو أن تأثير العرب في مناطق حوض البحر المتوسط ، كان أكثر من تأثيرهم في أوربا ، فقد استخدم البنادقة الغراب العربي في القرنين العاشر والحادي عشر إبان معاضدتهم للصليبيين.[١٤]



لقد توزعت البحرية الإسلامية توزيعا جغرافيا بين بحرين : هما المحيط الهندي والبحر المتوسط ، وتبعا لذلك تميزت السفن التي تمخر عباب البحر المتوسط عن نظيراتها في المحيط الهندي والخليج العربي. فقد كانت مراكب المحيط الهندي والخليج العربي تخاط بالليف ، بينما كانت مراكب البحر المتوسط تدق بالمسامير. وقد ترك لنا الرحالة العرب والأجانب وصفا لتلك السفن ولعل مراجعة بسيطة لما كتبه ابن جبير في القرن الثاني عشر الميلادي ، وماركو بولو في القرن الثالث عشر الميلادي دليل واضح على ما نقول . ويمكن هنا الإشارة إلى أن ابن جبير قدم وصفا جميلا للخيوط المستعملة في تثبيت الألواح فهو يقول: إن هذه السفن مخيطة بأمراس من القنبار وهو قش جوز النارجيل يرسونه أي صناع السفن إلى أن يتخيط ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب.[١٥]

ومهما يكن من أمر ، فسفائن المحيط الهندي ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر" لا يستعمل فيها مسمار البتة ، إنما هي مخيطة بأمراس من القنباري وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدسر من عيدان النخل فإذا فرغوا من إنشاء (السفينة) على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع ، ويقصد أهل الخليج والمحيط أولئك ، من إنشاء (السفين) على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ...."[١٦] وهدف أهل الخليج والمحيط من إنشاء مراكبهم بتلك الصورة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في (تلك البحار) ، ولذلك لا يصرفون (فيها) المركب المسماري".[١٧]



إن الخشب الذي تعمل منه تلك السفن كان يستورد من الهند ، وهو شديد الصلابة ، ولا يتحمل دق المسمار فيه وكثيرا ما يتصدع من جراء ذلك . وعلى العموم كانت سفن البحر الأحمر ، والخليج العربي ذات قيعان عريضة ، وذات سارية واحدة في الأغلب . ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة في غير البحر المتوسط.[١٨]

ومهما يكن من أمر ، فان السفن المخيطة لم تبدأ بالزوال سريعا إلا حينما غيرت التجارة الأوربية الوضع الاقتصادي كله في المحيط الهندي ، وبصدد تركيب هيكل السفينة وحمايته من عوادي البحر . فانه كان يدهن بمادة صلبة تسمى الجلفطة. وهناك من يقول أن الأمواج كانت تصد بمزيج القار أو الراتينج ودهن الحوت وكان القصد من ذلك حماية قاع السفينة من دودة السفن Worm Ship وكان الطلاء عادة بدهن السمك ، وللسفن العربية في الخليج العربي والمحيط الهندي ظهر ، وثمة سفن كانت تحمل على ظهرها(٤٠٠) رجل ، وكانت دفة السفينة من النوع الوحيد من الدفات التي عرفها العالم ، وكانت دفة كبيرة بين مؤخرة السفينة وجانبها. وكان لابد للسفن من دفة على كل جانب .[١٩]

لقد برع العرب في الخليج العربي بصناعة السفن والمراكب منذ أقدم العصور ويرجع ذلك إلى مهارتهم في الملاحة ومعرفتهم التامة بعلم الفلك. وكان لموقع الخليج العربي الجغرافي ، والاستراتيجي ، دور في تطور الحركة الملاحية والتجارية وارتياد الخليجيين أماكن بعيدة شملت وادي السند وشرق أسيا.[٢٠]

لقد اختصت السفن الخليجية بالشراع المثلث ، وهو شراع سائد حتى يومنا هذا . وكان للخليجيين دور مهم في نقل هذا الشراع إلى البحر المتوسط ، ومما يؤكده الباحثون أنه لولا الشراع الخليجي المثلث لما قام الأوربيون برحلاتهم المحيطية التي استكشفوا فيها مناطق مجهولة من العالم ، وينسج الشراع من أوراق جوز الهند أو سعف النحيل. وفي القرن التاسع عشر رأي أحد البحارة الغربيين أن السفن الخليجية ليس فيها وسيلة لطي الشراع عندما يكفهر الجو . كما لوحظ بان السفينة الخليجية تحمل فوق ظهرها مراكب صغيرة للنجاة وهي على نوعين : القارب ، والدونيج . وقد يحمل القارب (١٥) رجلا مقابل

(٤) في الدونيج. وللسفن صاري يسمى الدقل وهو من جذع النخيل، وقد يصل طوله إلى (٧٦) قدما. أما الانكر Angkor أو المرساة فكان غليظا لادفة فيه، وهو في السفن الخليجية يصنع من الحجر وفي وسطه ثقب للحبال. ومن الطريف الإشارة إلى أن السفن العربية الخليجية، لقوتها ومتانتها، عرفت في الهند باسم (ماداراتا) وفي الواقع، فان ماداراتا تعني (مدرعات) العربية.[٢١]

ثمة محاولات جادة تتم اليوم في بعض بلدان الخليج العربي من أجل تأصيل وتجذير صناعة السفن التقليدية، والاهم من ذلك السعي باتجاه المحافظة على النجارين المهرة القلائل الذين برعوا في بناء السفن والمراكب، والذين يستفاد منهم كذلك في صناعة أبواب البيوت الخشبية الجميلة، وكما هو معروف فان الإمارات العربية المتحدة، كانت من أهم مراكز صناعة السفن في الخليج العربي حتى أنها نالت شهرة ما زالت باقية، ولم تكن هذه الصناعة مقتصرة على الاستخدام، بل كانت معدة للتصدير إلى الأسواق المختلفة.[٢٢]



وقد حمل عدد من الأهالي بجدارة لقب (قلاليف) جمع قلاف، وهو صانع السفينة على امتداد سواحل الخليج العربي. كما تطورت أشكال وأحجام السفن الخشبية حسب تطور المهن البحرية وتنوعها عبر التاريخ، وأساتذة صناعة السفن في الإمارات سعداء بما يصنعون حيث طبقت شهرتهم الآفاق حتى أن الهنود والباكستانيين والصينيين تعلموا منهم بعض أسرار مهنتهم[٢٣]. وللأسف لا تتوفر لدينا قوائم بأسماء صناع السفن الخليجيون، لكن ثمة جهود تبذل لمتابعة ذلك. وقد ورد ذكر بعض صناع السفن المحدثين في الكويت، منهم الحاج سلمان وولده احمد، والحاج صالح بن راشد، وإخوانه جاسم، وعبد الله، والحاج حمد بن بندر.[٢٤]

ظهرت في السنوات القليلة الماضية، بعض المراكز الثقافية الخليجية التي حرصت على استعادة سيناريوهات (مشاهد) صناعة السفن في الخليج العربي، خاصة وأن هذه الصناعة، ارتبطت بالخليجيين كأناس كانوا يرتادون البحر ويمخرون عبابه. ومن الطبيعي أن تختلف صناعة السفن باختلاف استخدامها، فمن البانوش الذي ابتكر في الثلاثينات من القرن الماضي، والذي حور لكي يعمل بالمحركات، وهو في الأصل سنبوك غير شكل مقدمته إلى الشوعي، والبوم، والبغلة وغيرها من الأنواع التي تستخدم في صيد الأسماك والغوص عن اللؤلؤ ونقل البضائع والركاب.[٢٥]

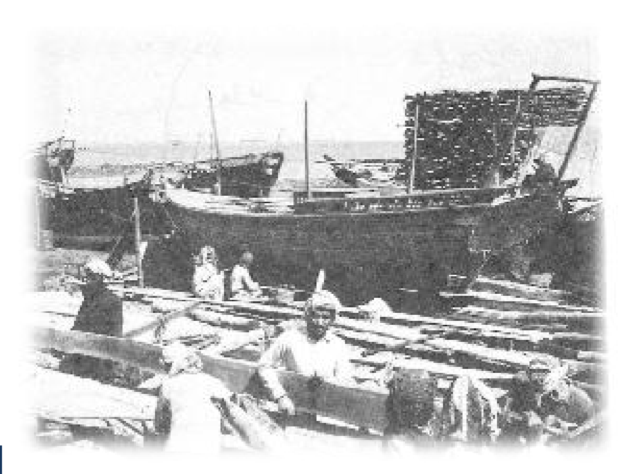
ويمارس القلافون صناعة السفن بعد حصولهم على الأخشاب المستوردة من الهند، وهي أنواع خاصة من خشب الصاج أو النارجيل (الجوز الهندي) والصنوبر المقاوم للرطوبة. ومن الطريف الإشارة إلى أن حكومة بومباي إبان الحملة البريطانية على موانيء القواسم في سنة ١٨٠٩، فرضت حظرا على تصدير الخشب من ساحل الملبار إلى الخليج العربي، في محاولة منها لمنع القواسم من بناء المزيد من السفن.[٢٦]

تبدأ صناعة السفينة في المكان المخصص لذلك على شاطئ البحر، حيث يحدد القلاف حجمها من حيث الطول والعرض والارتفاع، بحسب نوعها، والغاية التي ستستخدم لها، ووفق قياسات متناهية في الدقة لكي تحفظ توازن السفينة عند إبحارها مما يعكس مهارة القلاف الخليجي.[٢٧] وبعد تحديد الحجم يتم تركيبها بدءا من الهيكل الرئيسي لها، والذي يعتمد بناءه على تثبيت (البيص)، ويعد العمود الفقري لها، والذي يحفظ توزانها، ثم تثبت عليه الإضلاع التي تكون متفاوتة في الحجم، وتكون مقوسة، وتمتد من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها، ويكون كل ضلعين متقابلين متساويين في الحجم والوزن.[٢٨]

وبعد الانتهاء من صناعة الهيكل، يبدأ القلافون في تثبيت الألواح الخارجية، ثم يتم تركيب (الفنة)، وهي السطح العلوي للسفينة الذي يبدأ من المقدمة، ويأتي دور الصاري (الدقل) المخصص لتثبيت الشراع، ويشد بالحبال، وبواسطته يقوم الربان بالتحكم بالسفينة. فضلا عن (الكمر) ويوضع في منتصف الهيكل، وهناك (الداعومة) التي توضع في أعلى (البيص) من الإمام للمحافظة على السفينة من الارتطام.[٢٩]

أما المرحلة الأخيرة من بناء السفينة، فتتلخص في وضع (الفتيل) المصنوع من القطن والصل، لسد الفراغات بين الألواح لمنع تسرب الماء. وتبدأ مرحلة الدهان الخارجي للسفينة بزيت الصل التي تشكل مادة دهنية عازلة للماء عن الخشب لحفظها من التآكل بسبب الرطوبة والحشرات. وأخيرا تنزل السفينة إلى البحر حيث تسحب على ألواح خشبية دائرية إلى أن تستقر في البحر.[٣٠]

ومما ينبغي ذكره أن هناك تقاليد ترتبط بصناعة السفن، وقد تحدثت السيدة لؤلؤة عن والدها النوخذة الكويتي المعروف عبد الوهاب عيسى عبد العزيز القطامي (١٨٩٨-١٩٦٧) فقالت أن أحد التجار إذا قرر بناء سفينة، فان عليه أولاً أن يبحث عن القبطان (النوخذة) الذي سيتولى قيادتها، فالنوخذة ليس هو ربان السفينة وحسب بل ،هو المسئول عن تجارتها وأموالها، وهو العالم بأسرار الرياح والأمواج، وهو الأب والأخ لكل بحار على ظهرها.[٣١] وثمة ما يشير إلى أن القوانين السائدة في الخليج العربي والمتعلقة بالعمل البحري، كانت تلزم جميع البحارة بامتثال أوامر النوخذة، وخاصة في موسم الغوص برا وبحرا، وليس لهم الحق في مخالفة أوامره.[٣٢]

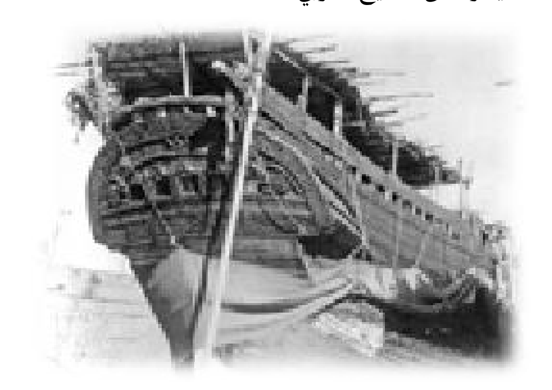


ويسعى الخليجيون اليوم للمحافظة على تقاليد صناعة السفن ، والاحتفاظ بالحرفيين القلائل الذين يبرعون في هذه الصناعة العظيمة ، التي تعكس كفاح الإنسان الخليجي ، واستجابة لتحديات البيئة ، والزمن ، عبر العصور التاريخية المختلفة . وقد يكون من المناسب أن نذكر بان صناعة السفن في الخليج العربي ظلت مزدهرة ، على الأقل ، حتى مطلع القرن الماضي. وقد ورد في مذكرات شاهد عيان عاش في الخليج ، وكان فيه سنة ١٩١٠ ، أن الكويت وحدها ، كانت تملك قرابة ثمانمائة مركب وسفينة ، يعمل على ظهورها حوالي (٢٠٠٠٠) ، رجل ، ولم يكن كلهم من الخليجيين ، بل كانوا من مختلف أجزاء الخليج العربي. ولحسن الحظ تتوفر لدينا بعض الإحصائيات الأولية عن أنواع وأعداد السفن المملوكة لموانيء الخليج العربي ومنها الإحصائية التي وردت في كتاب (دليل الخليج) ، والمتعلقة بالمراكب السائدة في مطلع القرن العشرين .ومما جاء في هذه الإحصائية أن جزر البحرين العديدة (مملكة البحرين حاليا) كانت تمتلك آنذاك (١٣) بغلة و(٦٠) بتيل ، و(٢٢) بوم و(١٦٠) بقارة و(٧٨٩) سمبوك وشويس و (٦٩٤) شوعي وقوارب أخرى خفيفة ويكون المجموع (١٧٦٠) سفينة يعمل على ظهرها (١٨٣٩٠) رجلا.[٣٣]

وفيما يلي وصف لأهم أنواع السفن في منطقة الخليج العربي:

(١) البغلة: وهي سفينة كبيرة ، تتراوح حمولتها ما بين ١٠٠ ..٢٠٠ طن .وتمتاز بان مؤخرتها عالية ومنحوتة . أما مقدمتها فمدببة ، ولها صاري رئيس مثبت في وسطها ، وبها قمرة واسعة واحدة قائمة على سطح مائل ، وبها قاعات ونوافذ بالمقدمة .وقد استخدمها العرب في التجارة بينهم وبين بلاد فارس ، والساحل الهندي ، ويتراوح عدد بحارتها بين ٣٠-٥٠ بحارا . وقد قل استعمالها الآن .[٣٤]

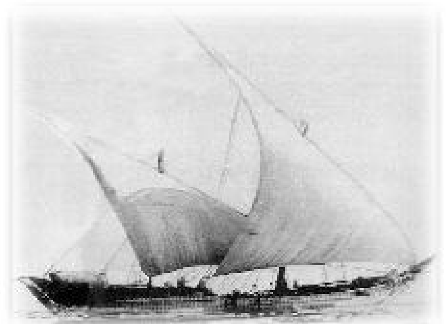
وفي القرن الثامن عشر سلحت (البغلة) بالمدافع ، ولدينا ما يشير إلى أن واحدة منها بنيت عام ١٧٥٠ ، وظلت تمخر عباب البحر حتى عام ١٨٣٧. كما كان جزءا من أسطول القواسم البحري ، يتألف من (البغلات) ، و(الترانكي) حتى أن هناك ما يشير إلى المعركة التي وقعت صباح يوم ٢٥ كانون الأول ١٨١٨ بين الأسطولين البريطاني والقاسمي ، وفيها اعترضت السفن البريطانية تشكيلا بحريا قاسما مؤلفا من سبع سفن من نوع (بغلة) و (ترانكي) لكن التشكيل البحري القاسمي ، استطاع الإفلات ولم يحصل الانكليز على أية نتيجة ، لكنهم ظلوا يلاحقون أسطول القواسم حتى استطاعوا حرق سفينة في الحملة البريطانية الأخيرة والكبرى التي حدثت في السنة ١٨١٩-١٨٢٠ ، وكان من نتائجها أن بريطانيا حققت خطوة رئيسية في سياستها الهادفة للسيطرة على الخليج العربي.[٣٥]



والبغلة تشبه (الداو) العربي وهو عبارة عن مركب كبير تتراوح حمولته بين ١٥٠ . ٢٥٠ طنا . ويمكن التمييز بين الداو والبغلة بوجود دهليز طويل في مقدمة السفينة يختص به الداو من دون البغلة . وكلمة(داو) ، تقترن بالدوانيج وهي كلمة فارسية تعني سفينة صغيرة . وهناك من يقول أن (الداو) اسم سواحلي لم يستعمله العرب ، ولكن الذي أشاعه هم الكتاب الانكليز ، ويطلق على معظم أنواع السفن الشراعية الأهلية ، ويقابل كلمة (داو) في العربية اسم مركب . ولكل بغلة اسم ، فهناك على سبيل المثال ، بغلات عرفت في الخليج منها: المسالمي ، والسلامي ، والبدري ، والمنصوري ، وشط الفرات ، وقطروشة.

(٢) البوم : والجمع أبوام ، وهو طراز قديم للسفن ينتهي بطرف حاد في كلتا المقدمة والمؤخرة ، وتعرف بهذا الاسم العربي. ولأبي البحر جعفر بن محمد الحنطي العبدي المتوفي سنة ١٦١٩ ، قصيدة مطلعها:[٣٦] وان سمعت مقالي فامض متكلا على الهك في الابوام بحارا

ويصلح البوم للمياه العميقة ، وكان يعمل بالتجارة بين الكويت وزنجبار حتى مطلع القرن العشرين . وتختلف سفينة البوم ، من بعض الوجوه ، عن السفن الشراعية العربية في القرون الوسطى بأن ألواحها مسمرة وليست مخيطة ، وان معداتها حديثة الطراز بعض الشيء وان لها صاريين . كما أن لها شراعا مثلثا. ومن البوم ما يتسع لستين أو سبعين شخصا ، ومنها صغيرة لاتسع إلا خمسة أو ستة أشخاص. ويعد البوم سفينة صالحة للمياه العميقة ، وقد ظل البوم يستخدم في عمليات التجارة بين الكويت وزنجبار ، وورد ذكر ذلك في سنة ١٩٣٩ ، ويختلف البوم في بعض الوجوه عن السفن الشراعية العربية التي كانت معروفة في العصور الوسطى فألواحها مسمرة لا مخيطة ، ولها دفة في المؤخرة لا دفتان على الجانبين ومعداتها حديثة إلا أنها لا تزال محتفظة بالطابع التقليدي. وهناك البوم الكبير وهو من أفضل السفن التي كانت تستخدم في الأسفار البحرية ، لمتانته ، وقدرته على نقل الحمولة الكبيرة.[٣٧]



وتشير المصادر المتداولة بان أكبر سفينة شراعية صنعت في الكويت في الحقبة المعاصرة كانت (بوم) كبير اسمه : (فتح الخير) ويسمى الداو ، وكانت ملكيته تعود لحمد عبد الله الصقر ، وهو من أشهر تجار الكويت سنة ١٩١٤ ، وقد صنعه عبد الله بن راشد . أما البوم المسمى (نايف) ، فقد صنع في الكويت كذلك سنة ١٩٢١ ، ويعود إلى عبد الله بن ناصر بورسلي . وتحتفظ الكويت اليوم بسفينة شراعية كبيرة من طراز البوم اسمها (المهلب) يعود صنعه إلى سنة ١٩٣٦ ، وصاحبها الأصلي هو ثنيان الغانم رحمه الله . وقد عرف الخليجيون أبواما عديدة ، لها تسميات لطيفة ، منها فضلا عما ذكرناه ، فتح الكريم ، وسمحان ، وغالب ، وطارق ، وتيسير ، ومنصور ، وسهيل ، ومرزوق .[٣٨]



(٣) الجالبوط : والجالبوط غالبا ما يصل في حجمه لبوم كبير ، أو بغلة ، وحمولته تتراوح بين ٢٠-٥٠ طنا . ويستخدم في الخليج العربي ضمن أسطول صيد اللؤلؤ ، وخاصة في الكويت والبحرين. ويقال أن الجالبوط دخل مع الانكليز إلى الخليج العربي ، حيث يرد اسمه في المصادر الانكليزية باسم "جلواط" وقد يكون اسمه مشتقا من مركب انكليزي قديم يسمى جولي-بوت ، لكن مما يدحض ذلك قول صاحب التحفة النبهانية ، من ان الجالبوت ، والسنبوق كانا من سفن البحرين ، وكان لهم ، أي للبحرينيين في السابق ، ويقصد قبل القرن العشرين ، سفنا متنوعة يسمونها (بغلة) ، و(بتيل) و (بوم) ، و(بقارة) ، لكن هذه قل استعمالها واكتفى البحرينيون بالجالبوت والسنبوق ، وأنهم يعبرون عن مجموع السفن بـ(الخشب) ، وعددها يتراوح بين ٣-٤ آلاف سفينة.[٢٩]



(٤) الغلافة: صنف خاص من السفن ، كان لها دور مهم في الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وقد ظلت هذه السفن شائعة الاستعمال على طول الساحل الغربي للهند ، وفي منطقة الخليج العربي حتى نهاية القرن المذكور. والغلافات ، سفن حربية تتحرك بالمجاذيف عادة ، وتتميز بأنها تستطيع السير في مناطق قليلة العمق ، وأصل كلمة غلافة يعود الى قلافة ، ومنها قلف ، وهو حرز ألواح السفينة بالليف وجعل القارف خلالها . ويبلغ طول الغلافة (٨٤) قدما وعرضها (٢٤) قدما ويركب عليها (١٠) مدافع ومؤخرتها ذات نقوش. أما مقدمتها فنائتة وللسفينة شراع ضخم ، كما أن لها صارية ضخمة ، وفيها أربعة وعشرون مجذافا . وكان أسطول الشيخ سليمان رئيس قبيلة كعب يضم عشرة غلافات سنة ١٧٦٥.[٤٠]

(٥) الغراب : كلمة عربية تطلق على نوع من أنواع السفن التي كانت شائعة الاستعمال خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر على سواحل مالابار ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر. والعادة أن يكون الغراب سفينة ذات ثلاث صاريات[٤١]. والغراب نوع من السفن مشهور في أشعار المحدثين قال ابن الساعاتي:[٤٢]

وركبت بحر الروم وهو كجلبة
والموج تحسبه جيادا تركض
كم من غراب للقطيعة أسود
فيه يطير به جناح ابيض

وقد سمي الغراب بهذا الاسم لان مقدمته تشبه رأس الغراب.



(٦) التكنات : وهي سفن صغيرة تتميز بقعرها المسطح المطلي بالقار ، وهي حربية ، وكانت تؤلف العمود الفقري في أسطول (القابودان باشي أي رئيس الأسطول) العثماني في البصرة ، وقد ظلت التكنات معروفة في الخليج حتى القرن الثامن عشر.[٤٣]

(٧) الترانكي: نوع من السفن كان شائع الاستعمال في الخليج العربي في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد انقرض الآن. وكان يسير بالمجذاف والشراع معا ويستخدم في الحرب والتجارة . وقد ورد اسم الترانكي في كتاب الرحالة نيبور على أنها سفن تحمل البن من الحديدة ويشبهها بالبرميل الكبير الذي ليس له سطح ، فالواحها رقيقة جدا ،وتبدو وكأنها مرتبطة ببعضها ببعض فقط بدون أن تطلى بالزيت ، وأجزاؤها مخاطة ، ولا تستخدم فيها المسامير وتربط فيها الألواح بالحبال.[٤٤]

(٨) السنبوق: ويقال سنبوك أيضا وكتبه ابن بطوطة بالصاد والسنبوك سفينة صغيرة استعملها أهل الخليج ، وسمي السنبوك من سنبك الدابة على التشبيه. وللسنبوك مقدمة طويلة تمتد فوق البحر حوالي (٢٠) قدما ويزيد ارتفاع المركب كلما مضينا نحو المؤخرة حيث مقاصير عالية. وقد قدرت حمولته بـ(١٥٠) طنا ، وترتفع صاريته المصنوع من خشب الساج (٩٠) قدما على سطح البحر. أما الشراع ، فكان يصنع من جذوع أشجار ثلاث تربط أطرافها بقوة بقطع عديدة من الحبال القوية. وتضفي مقدمته على منظره جمالاً ، وهناك من يقول أن اسم سنبوك مشتق من CHINBOX الهولندية ، وتعني الزورق الصغير المخصص لصيد اللؤلؤ . ويقول آخرون أن سنبك كلمة فارسية تعني زورق صغير وقد وردت كلمة صنبوك كناية عن سفينة عمانية سادت في القرن الرابع عشر الميلادي . ويمتاز السنبوك بمقدمته المنحنية . ويبدو أن السنبوك قد تأثر بمجيء الأوربيين ، فحاول الأهالي جعله زورقا بخاريا[٤٥]. وقد خلد الشاعر الخليجي ابراهيم الديحاني رحمه الله السنبوك بقصيدة شعرية مطلعها:[٤٦]

يا راكب من فوق سنبوك أوشار
طرز ومن سواه عاشت يمينه
أهل النظر حوله يديرون الافكار
وأهل الخشب بالسبق مترحينه



(٩) القنجة أو الغنجة ، والجمع غنجات ، وهي من سفن الأسفار القديمة ، وتشبه البغلة في مؤخرتها ، حمولتها تتراوح بين ١٣٠-٣٠٠ طن ، وطولها ما بين ٧٥ ..١٠٠ قدم ، وهي من سفن التجارة ، واشتهر بصنعها ملاحو ميناء صور في عمان والقنجة سفينة مغطاة .[٤٧]

وهناك أنواع أخرى من السفن أهمها :[٤٨] (البتيل) وكان شائعا في القرن الثامن عشر ، وهو أصغر من الجالبوط ، وله نهاية حادة ومقدمة ترتفع إلى الأعلى وكذلك مؤخرته . ويستخدم ضمن أسطول صيد اللؤلؤ ، والبتيل من السفن الكبيرة ، وتستعمل فيه صاريتين وشراعين والبتيل يمتاز بمقدمته الدائرية . وهناك (الشوعي) وهو عبارة عن قارب صغير شائع في الكويت قريب الشبه بالسنبوك ما عدا أنه اصغر حجما ، حيث تقدر حمولته بـ (١٥) طنا ، ويعرف في العراق بـ (الشويعي)[٤٩]. أما (البقارة) فهي دون السفينة وأكبر من القارب ، وأكثر ما تستعمل لصيد اللؤلؤ حيث تنقل فيها معدات الصيادين من مكان إلى آخر .و(الزاروك) وهو ذو مؤخرة حادة كالسنبوك ولكنه أصغر حجما . (والدنكية) التي تتميز بان مؤخرتها أعلى من أي جزء آخر فيها . وهناك (الهوري) وهو القارب الصغير الذي لا يعدو أن يكون جذع شجرة منقورة يجلب من الهند . (والمشحوف) وهو عبارة عن قارب طويل جدا ومستقيم المقدمة والمؤخرة .[٥٠]

أما مراكز صنع السفن في الخليج العربي ، فاهمها الكويت التي كانت من الموانيء المهمة في الخليج العربي في القرن التاسع عشر وما بعد ذلك بقليل . وكان يبنى في الكويت سفنا تتراوح حمولتها بين (٧٥- ٣٠٠) طنا. ويستعمل في بناءها خشب التك الذي يجلب من الهند . ولا تخطط هياكل السفن من قبل مهندسين ، بل يتبع في عملية البناء النماذج التقليدية ، كما تستعمل المطارق والمسامير لبناء هذه المراكب . وهناك من الأساتذة المتخصصين في تصميم وصناعة السفن ، أما بتوجيه بعض التجار ، أو النواخذة (القباطنة). كما ذكرت البصرة كمركز لصناعة المراكب ، وكذلك البحرين التي كان لأهلها مهارة تامة في صنع السفن الشراعية الكبيرة . ومهما يكن فأن الفرق بين السفن التي كانت تبنى في العصور الوسطى ، وبداية العصور الحديثة في الخليج العربي ، هو أن السفن الأولى ، كانت تبنى بدون استعمال المسامير-كما قدمنا- أما المسامير فقد كانت إحدى التأثيرات الأوربية التي دخلت إلى المنطقة.

لقد أخذت صناعة المراكب التقليدية بالتدهور والانقراض. فضلاً عن أن بعض بناة السفن ،اخذوا يعملون على إعادة تحويل مصانع سفنهم بقصد صنع سفن بخارية صغيرة . ومع أن بعض المؤسسات الحديثة في بعض مناطق الخليج العربي تبذل جهودا كبيرة من أجل الاحتفاظ بصناعة المراكب التقليدية ، إلا أن ذلك لم يعد ممكنا أمام مغريات الحضارة والتكنولوجية التي تعم منطقة الخليج العربي في الوقت الحاضر ، ولعل من أبرز ما تم بهذا الشأن ، سعي الدول الخليجية للتلاؤم مع متطلبات الملاحة الحديثة وذلك بإعادة بناء المواني ، وإنشاء الأرصفة الخاصة لما يعرف بـ (الحاويات Containers) ، وهي وحدات تعبئة كبيرة سهلة التحميل ، والتفريغ ، والنقل ، بواسطة الآلات الرافعة ، أو كذلك الشاحنات مباشرة . وثمة خطوط منظمة بالحاويات تمخر عباب الخليج العربي.[٥١]

وفي ختام عرض هذه القصة المجيدة لسفن ومراكب الخليج العربي ، لا يسعنا سوى الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالتراث البحري الخليجي ، وتوثيق أحداثه وشخوصه ، وذلك من خلال إقامة (متحف) يضم أنواع السفن ، وصورها ، وأنواعها ، وأشكالها ،وكيفية بناءها ، وسير أبرز البحارة ، والتجار ، والصناع ، الذين مارسوا هذه المهنة العظيمة عبر التاريخ ، ليكون معلما تهتدي به الأجيال القادمة ، ودليلا على حيوية هذا الشعب العريق.[٥٢]

الهوامش والمصادر

(١) الإبحار أي ركوب البحر على سفينة أو نحوها ، أمر عريق في القدم ، والظاهر أن الذي ساق الإنسان إلى ركوب البحر رؤية الأشجار ، أو جذوعها على ظهر الماء ، فحاول حينئذ صنع شيء يتخذه من الخشب ليركبه ويسير به على الماء تحديا لما رأى: انظر كاظم الدجيلي ، "السفن في العراق" **مجلة لغة العرب** ، بغداد ، ايلول ١٩١٢ ، ص ٩٣ وكذلك إبراهيم خليل العلاف ، الخليج العربي ، **دراسات في التاريخ والسياسة والتعليم**، سلسلة شؤون إقليمية رقم (١١) مركز الدراسات الإقليمية ، دار ابن الأثير للطباعة والنشر ، جامعة الموصل (الموصل ، ٢٠٠٧) ص٢٨٣.

(٢) انظر: جورج فاضلو حوراني ، **العرب والملاحة في المحيط الهندي**، ترجمة وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، (القاهرة ، لا . ت)، ص ١٦.

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ٣٣. ٣٤.

(٤) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥

(٥) حوراني ، المصدر السابق ، ص ص ٢٩ . ٣٠.

(٦) تتحدث النقوش السومرية والأكدية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد عن صلات بحرية بين ارض الجزيرة وبلاد دلمون (البحرين)وماجن (عمان) انظر : حوراني ، المصدر السابق ، ص ٢٧

(٧) **القرآن الكريم**، سورة يس ، الآية (٤١)

(٨) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٨٦

(٩) عبد الرحمن بن خلدون ، **المقدمة** (مطبعة الكشاف ، بيروت ، لا . .) ص ٢٥٣ وللتفاصيل انظر :

حسن إبراهيم حسن ، **تاريخ السلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج١ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٧ ، ا(القاهرة ،١٩٦٤)، ص ٤٨.

وانظر: صبحي الصالح ، **النظم الإسلامية: نشأتها وتطورها**، دار العلم للملايين ، (بيروت ،١٩٦٥) ، ص ٥١٢ وكذلك حسن ، المصدر السابق ، ج١ ، ط٧ ،ص ٤٨٣ .



(١٠) الصالح ، المصدر السابق ، ص ٥١٣ ، حسن ، المصدر السابق ، ص ص ٤٨٣. ٤٨٤.
(١١) المصدر والصفحات نفسها.
(١٢) العلاف ، المصدر السابق ، ص ص ٢٧٨. ٢٨٨.
(١٣) للتفاصيل انظر : ابن الحسين محمد ابن احمد ، **رحلة ابن جبير** ، (القاهرة ، ١٩١٨) .
(١٤) حوراني ، المصدر السابق ، ص ص ١٦. ١٧ ، ٢٤٨. ٢٤٩ ، ٢٥٦. ٢٥٧
(١٥) المصدر نفسه ، ص ص ٢٥٦. ٢٥٧.
(١٦) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٠. ٢٦١.
(١٧) حوراني ، المصدر السابق ، ص ص ٢٥٩. ٢٦١.
(١٨) أبناء الخليج العربي والبحر ، الأرشيف ، منتديات ناعم العود (الالكترونية).
(١٩) حوراني ، المصدر السابق ، ص ص ٢٥٨. ٢٥٩.
(٢٠) أصدر سعيد عبد الله الوايل كتابا نشرته دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) تضمن إشارة إلى أبواب ونقوش الخشب المنتشرة في عمارة الشارقة التقليدية ، وقام محمد مهدي حميدة بعرض الكتاب . انظر : **جريدة الزمان** ٢٨ مايس /مايو ٢٠٠٧
(٢١) معن خليل عمر ، **مجتمع الإمارات والمفاعيل العملاقة**، دار الكتاب الجامعي ، (العين ٢٠٠٠. ٢٠٠١) ، ص ٢٠٠٣
(٢٢) انظر : عبد الوهاب عيسى القطامي ، **دليل المحتار في علم البحار**، جريدة القبس (الكويتية) ٣١ آذار . مارس ٢٠٠٨ وقد اشار ج . ج لوريمر في كتابه : **دليل الخليج** ، القسم الجغرافي ، الجزء الرابع ، طبعة جديدة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر ، (الدوحة ، لا ت) ص ٣١٠ إلى أن (٢٠. ٢٥) قاربا ،كان يبنى في السنة في الكويت ويكسب حوالي (٣٠٠) تاجر معيشتهم ، في مطلع القرن العشرين ، من هذه الصناعة.
(٢٣) www.SA7el.net
(٢٤) صالح محمد العابد ، **دور القواسم في الخليج العربي** ١٧٤٧-١٨٢٠ مطبعة العاني ، (بغداد ، ١٩٧٦) ص ص ٢٢٨.
(٢٥) www.moic.gov
(٢٦) المصدر نفسه
(٢٧) المصدر نفسه
(٢٨) المصدر نفسه
(٢٩) النوخذة ، أصلها كلمة فارسية مكونة من مقطعين نوخدا أي نوا أي سفينة وخدا أي رب ومعنى الكلمة رب السفينة أو صاحبها . انظر : حوراني ، المصدر السابق ، ص ١٩٩ ؛ **جريدة القبس (الكويتية)**، ٣١آذار /مارس ٢٠٠٨.
(٣٠) محمد غانم الرميحي ، **الخليج ليس نفطا : دراسة في إشكالية التنمية والوحدة**، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، (الكويت ، ١٩٨٣) ،ص ص ١٩ ، ٢٤.
(٣١) للتفاصيل انظر : لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي
(٣٢) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٨٩
(٣٣) العابد ، المصدر السابق ، هامش ص ص ٨١ ، ٢٨٧ - ٢٨٨ وكذلك جريدة القبس ٣١ آذار / مارس ٢٠٠٨. ويشير (مايلز) إلى أن القواسم في عز نشاطهم البحري استطاعوا إحداث تغيير في بناء السفن من نوع (داو)، ومن ذلك أنهم أضافوا جزءا جديدا عاليا في مؤخرته مما يسهل عليهم التسلق عند الاشتباك مع السفن المعادية وخاصة في مطلع القرن التاسع عشر .. انظر:
(٣٤) S.B.Milles, **Countries, and Tribes of the Persian Gulf**, (London,1966)p..323
(٣٥) حوراني ، المصدر السابق ، ص ٣٢٨
(٣٦) www.A3J-com
(٣٧) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠. ولأغراض المقارنة انظر : النبهاني ، المصدر السابق ، ص ١٥
(٣٨) انظر :عبد الأمير محمد أمين ، **القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر**، مطبعة اسعد ، (بغداد ،١٩٦٦) ، ص ٥٦.
(٣٩) للتفاصيل : انظر جبيب زيات ، **"معجم المراكب والسفن في الإسلام"** مستل من مجلة المشرق (البيروتية) ١٩٤٩، ص ٢٥٤.
(٤٠) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠
(٤١) أمين ، المصدر السابق ، ص٣١
(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢
(٤٤) C.Niebuhr, Travel Through Arabia and other countries in the East, Translated by Robert Heron, (Beirut,n.d)p.123.vol.11
(٤٥) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٩١ وكذلك جمال الغيطاني ، **"ابن بطوطة"** في: محمد الرميحي وآخرون ، **الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين** ، كتاب العربي (٣٠) ، (الكويت ، ١٩٩٧) ص ٢٩.
(٤٦) شبكة الجش الثقافية ، أضواء على صناعة السفن في الخليج2 www.aljesh.net ايلول / سبتمبر ٢٠٠٧.
(٤٧) صناعة السفن في دولة الإمارات العربية المتحدة ، منتديات برزه عرب ، ٢٤ كانون الأول /ديسمبر ٢٠٠٥.
(٤٨) العلاف ، المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
(٤٩) لأغراض المقارنة ، انظر : محمد خليفة بن حمد بن موسى النبهاني ، **التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية**،ط٢ ، المطبعة المحمودية ، (القاهرة ، ١٣٤٢هـ)، ص ١٥.
(٥٠) www.sa7el.net
(٥١) رياض الابرش ، **الملاحة والنقل في الخليج العربي**، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، (البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ٧.
(٥٢) قدم هذا البحث إلى المؤتمر الثاني لتأريخ الخليج العربي حول (تاريخ البحرية العربية في الخليج العربي) والذي انعقد للمدة من ١٥-١٧ نوفمبر -تشرين الثاني ٢٠٠٨ ونظمه قسم التاريخ والحضارة الإسلامية في كلية الآداب والعلوم في جامعة الشارقة بالاشتراك مع دارة الدكتور سلطان القاسمي للدراسات الخليجية.

صاحب الدراسة في سطور:



مؤرخ عراقي ، وكاتب صحفي ، وأستاذ جامعي متخصص بالتاريخ الحديث ، ولد في الموصل بالعراق يوم ٢٥ من كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٤٥. ولديه كتب وبحوث ودراسات ومقالات في الصحف والمجلات الموصلية والعراقية والعربية.مُنح وسام المؤرخ العربي من اتحاد المؤرخين العرب في ١٥ تموز ١٩٨٦ تقديراً لجهوده في خدمة التاريخ العربي المعاصر. أشرف على قرابة (٣٠) رسالة ماجستير وأطروحة دكتوراه ، ألّف قرابة (٣٥) كتاباً لوحده وبالاشتراك مع عدد من زملائه. نال لقب الأستاذية (بروفيسور) منذ ١٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩١ .

رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحّد



ريهام المستادي
صحفية بجريدة المدينة
ماجستير تاريخ إسلامي
عضو جمعية الآثار والتاريخ الخليجية
المملكة العربية السعودية
riham_almistadi@hotmail.com

■ **الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
ريهام المستادي ، رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحّد.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع: يونيو ٢٠٠٩. ص ٦٩ - ٧٣ (www.historicalkan.co.nr)

من هم التتار (المغول)

لقد عرفوا بأسماء مختلفة منها التتار والمغول ، وهي مسميات عدة لشعب واحد ، فنجد مثلاً أسم التتار أو التتر قد أطلق على عدة قبائل بدوية تسكن شمال جبال أسيا الوسطى ، وتشمل أنحاء من سيبيريا والتركستان وبلاد القرغيز (الستبس) وبعض المناطق المجاورة لشمال الصين.

وأطلق الصينيون اسم التتار على الشعوب البدائية المتنقلة والتي تعيش في شمال أسوارهم ، كما أطلق هذا الاسم في الغرب الأوربي منذ القرون الوسطى على المحاربين من المغول والترك الذين اشتركوا في فتوحاتهم مع جنكيز خان[١] ، ليتبع مدلول هذا الاسم المغول أنفسهم[٢].

أما المغول فقد برزوا على مسرح الأحداث في أواخر القرن السادس الهجري ، وكقوة ذات شهرة واسعة خارج خدود منطقتهم في القرن السابع الهجري[٣].

ونستطيع أن نقول بأن المغول شيء والتتار شيء أخر ، بحيث يمكننا أن نطلق على التتر مغول ، ولا يمكننا القول بأن المغول تتراً ، لأن التتر شعبه متفرعة من المغول وليس العكس ، إذن الأصل هنا هم المغول[٤].

نشأ هؤلاء القوم في صحراء جوبي القاحلة ، وهم يشبهون الترك في اللغة والمظهر العام ويحدهم من الشرق ارض الخطا ، ومن الغرب الأويغوريين ، وشمالاً القرغيز ونهر سلنكا وغرباً قبائل التنكت والتبت[٥].

أشهر قبائلهم

وتنتمي هذه القبائل من الناحية اللغوية إلى مجموعات تركية ، ومجموعات مغولية.

القبائل التركية

قبيلة توركش

وهي إحدى القبائل التركية الشهيرة في الغرب ، وكان رؤساؤها يلقبون بلقب (خان) وظلت هذه القبائل محافظة على استقلالها إلى أن قضى عليها العرب المسلمون.

قبيلة القرغيز

كان أميرهم يلقب بلقب (خاقان) ، واستطاعت هذه القبيلة التغلب على الأويغر ، فساعدهم ذلك على البروز سياسياً ، لكن قبائل الخطا لم تمهلهم إذ هزمتهم وطردتهم من منغوليا ، ليخضعوا بعد ذلك لجنكيز خان[٦].

قبائل الغز

أو (التغزغز) أي القبائل العشرة ، لأنهم كانوا يتألفون من عشرة قبائل ، واليهم ينتمي السلاجقة وأقاموا إمبراطورية امتدت صعدها من تركستان حتى مصر.

قبيلة الأويغر

سكنوا شمال منشوريا وكان لقب أميرهم (التابيز) ثم غير إلى لقب (خاقان) وكانت ديانتهم في باديء الأمر المانوية وهي نسبة إلى (ماني بن فاتك) الذي اقتبس من المجوسية القول بأن العالم مركب من اصلين احدهما نور والآخر ظلمة وانهما ازليان[٧].

قبيلة القارلوق

وتقع بلادهم جنوب مملكة الأويغر ، وكانوا على دراية بالشعر الفارسي ، ويتميزون باستقامة القامة وجمال الوجه[٨].

القبائل المغولية

قبيلة الخطا

رجح البعض أن أصلهم من القبائل التونغوزية التركية ، ورأى البعض أنهم مغول ، لكن ما يهمنا هو معرفة أنهم كانوا أعداء للترك في أقصى الشرق ، وتمكنت قبائل الخطا من السيطرة على أقاليم الصين الشمالية ليوطدوا نفوذهم لجنوبه ، ومن خوارزم غرباً إلى بلاد الأويغر شرقاً[٩]. ولا تلبث هذه القبائل حتى تذوب في تيار المدنية ، فتتأثر بالحضارة الصينية تأثراً شديداً ،وهو الأمر الذي أضعف من قوتهم الحربية فأصبحوا عاجزين عن صد هجوم أعدائهم من الخوارزميين[١٠].

التتار

ويعيشون في المنطقة التي تحدها شمالاً نهري أرقون وسلنجا ومملكة القرغيز ، شرقاً الصين الشمالية ، غرباً ممالك الأويغر ، وجنوباً اقليم التبت ومملكة التانجوت. وتعد هذه القبيلة من أشد قبائل الجنس الأصفر وحشية وجبروتاً[١١] ، ولهم ثلاثة أقسام:

التتار البيض ينزلون خارج أسوار الصين ، وتأثروا بالحضارة الصينية.

التتار السود وهم عبارة عن مجموعة من البدو الرحل الذين سكنوا صحراء جوبى.

تتار الغابة ويعيشون في الغابة يمارسون بالصيد[١٢]

قبيلة كرايت

موطنهم الأصلي الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبى ، وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين ويدينون بالمسيحية على المذهب النسطوري ، وتعد هذه القبائل من أقوى قبائل المغول ، لتمكنهم من اخضاع أغلب الطوائف في الأطراف ، وأشهر ملوكهم طغرل والذي كان بينه وبين والد جنكيز خان حلفاً بالتصدي لأعداء كلاً منهما ، وفي عهد جنكيز خان تغيرت علاقات الصداقة ، اذ اضطر جنكيز خان إلى محاربة ملكهم والقضاء عليه.

قبائل المركيت

ويطلق عليهم أيضا (مكريت) ، ويسكنون شمال بلاد الكرايت ، ولهم جيش قوي ، وعرف عنهم ميلهم للشغب وإثارة الفتن لذلك شن عليهم جنكيز خان هجوما[١٣].

قبائل اويرات أو اويراو

وتختلف لغتهم قليلاً عن لغة القبائل المغولية الأخرى ، ويقيمون في المنطقة الواقعة بين نهر أوتن وبحيرة بايكال ، وكان عددهم كبيراً ويتشعبون الى عدة شعب وعند محاربة جنكيز خان لهم عارضوا في البداية لكنهم سرعان ما خضعوا له.

قبيلة نايمان

وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي ، وديانتهم المسيحية مثل قبيلة كرايت ، لكنهم على عداء مستمر ، وكانوا بدواً رحلاً لهم عادات وتقاليد تشبه المغول ، وتمكن جنكيز خان من السيطرة عليهم[١٤].

قبيلة برجقين المغولية أو المغول

نشأة هذه القبيلة في أواسط أسيا عند هضبة منغوليا ، وتنقسم إلى قسمين:

قسم شمالي غربي: يوجد به جبال وهضاب ووديان.

قسم جنوبي غربي: منخفض يشمل صحراء جوبى وهي عبارة عن سهلاً متسعاً متموجا مغطى بطبقة من الحصباء ، قد جردته الرياح من الطين والرمل ، وفي المنطقة الشمالية الغربية لا يوجد أنهاراً إلا على الحافات ، ويمتاز مناخ هذه المنطقة بشتاء طويل قاسي البرودة ، مع استمرار هطول الأمطار وانخفاض درجات الحرارة فتصل في بعض المناطق إلى تحت الصفر مما يجعل المياة متجمدة ، وإذا حل الصيف اشتدت الحرارة لتصل أحيانا إلى ٦٠ درجة مئوية[١٥].

كانت هذه لمحة سريعة لأهم قبائل المغول التي كانت تتنازع فيما بينها ، إلى أن شاء القدر فخرج من بينهم قائداً موحداً لهم فخضعوا جميعاً إليه ، فأصبحت طاعة هؤلاء القوم لقائدهم سمة تميزهم ، فمكنتهم من اجتياح العالم تحت لواءه.

وعلى الرغم من تعدد القبائل وتشعبها ، إلا أننا نجد أن هناك قبائل كانت معروفة بالمكانة الاجتماعية بين القبائل الأخرى ، وذات نسب قديم وبرز منها أفراداً أصبحوا قادة مثل بسوكاي والد جنكيز خان ، ليصبح أكبر هدف تسعى إليه طبقة القبائل الأرستقراطية والتي منها القادة والأبطال هو إيجاد ارض رعوية خصبة ، بالإضافة إلى عدد كاف من الأتباع والعبيد ليرعوا شؤون مواشيهم وحيواناتهم[١٦].

الحياة الاجتماعية للمغول

غذائهم

كانت حياة المغول غير مستقرة ، تعتمد على التنقل والترحال ، وتنقسم قبائلهم من حيث المعيشة إلى قبائل رعاة بدو يتنقلون طلباً للمرعى ، والى قبائل صيادين يصيدون الأسماك والحيوانات من الغابات.

ومن الملاحظ أن القبائل التي عاشت في الغابات تبدوا أكثر بدائية وتوحشاً وقد يرجع ذلك إلى طبيعة حياتهم وصيدهم للحيوانات ، مما جعلهم بعيدين كل البعد عن حياة التمدن وأقرب إلى عيشة الحيوانات ، فكانوا يأكلون كل ما يعع تحت أيديهم ، سواء كان حيواناً أو طيراً ، فيقومون بتشريح لحمة إلى شرائح طويلة ودقيقة ، أما العظام فكانوا يقرضونها بأسنانهم وما تبقى منها أعطوه لكلابهم[١٧] ، وكان شراب المغول المفضل لبن الخيل فكانوا يشربونه بكميات كبيرة ، وإذا ما تعذر عليهم شرب حليب الفرس ، عمدوا إلى خيلهم أو دوابهم ، فيقطعون بسكينة جزء من احد شرايينها ليمتصون ما يكفيهم من الدم المتدفق منها ، ثم يسدونه بأي شيء[١٨].

ملبسهم

على وجه العموم نجد المغولي يرتدي ملابس بسيطة مصنوعة من جلود الحيوانات ذات الفراء فيجعل فرائها من الخارج في وقت الصيف بسبب الحرارة الشديدة ، وإذا حل الشتاء جعل الفراء من الداخل كي يقيه من البرد ، ولا يختلف لبس الرجل عن المرأة ، وتظل ثيابهم على أجسادهم إلى أن تبلى ، فلا يعرف الماء طريقه إلى تلك الثياب ولا الأجساد[١٩].

مساكنهم

لقد عرفنا أن حياة المغول قائمة على الترحال من مكان لآخر لذلك أقاموا خيامهم على عربات ، كي يسهل نقلها معهم في ترحالهم[٢٠].

ديانتهم

لم يكن للمغول دين واحد يعتقونه ويجتمعون عليه ، فنجدهم على دين:

الشامانية

وهي نوع من الديانة الوثنية ، وتتمثل في عبادة كل شيء يهابه المغول ويخشاه ، فلهم آلهة في النهر والجبل والشمس والقمر والبرق والرعد ، وتقرب المغول من هذه الآلهة دفاعاً لشرها وأذاها ، وجلب رضاها راجين منها الصحة في أجسادهم وعقولهم.

وهذا فضلاً عن عبادة أرواح أجدادهم ، لاعتقادهم بان لهذه الأرواح سلطاناً كبيراً على حياتهم ، بالإضافة لحبهم لإعمال السحر والتنجيم لكشف الغيب والمستقبل ، ويقال أن جنكيز خان كان على دين الشامان كما أنه لم يكن متعصباً لدين بعينه ، بل يحترم جميع الأديان.

البوذية

وقد حلت محل الشامانية ، انتشرت هذه الديانة سريعاً بين طوائف المغول ، خاصة بعد أن استقرت في هضبة التبت ، وأخذ دعاتها يعملون على نشرها في الجزء الشرقي من آسيا. وعندما اعتنق الخان الأعظم (قوبيلاي) هذه الديانة زاد نفوذها[٢١].

المسيحية

قد وجدت لها مجالاً خصباً بين المغول ، فاعتنقوها على المذهب النسطوري المنتشر آن ذاك[٢٢].

الإسلام

عند غزو خلفاء جنكيز خان لأوروبا ، وأوقعوا بأهلها الكثير من النكبات من قتل وأعمال مدمرة أراد أهل هذه البلاد التحالف معهم ضد المسلمين وخاصة بعد ما لاقاه المسيحيون من عطف ورعاية من المغول ، لكن لم يتم ما أراد أعداء الإسلام ، إذ باءت محاولاتهم بالفشل ليتم النصر للمسلمين ، إذ اعتنق زعيم القبيلة الذهبية الإسلام ويسلم بعد ذلك باقي رعيته وتوطدت العلاقات بينه وبين الظاهر بيبرس ، كما اعتنق أبناء هولاكو في إيران الإسلام ومنهم (أحمد تكوادار) الذي اعتنق الإسلام وجعله ديناً رسمياً في البلاد[٢٣].

وصف ابن الأثير حال التتر المغول بقوله:"إنهم لا يحتاجون إلى ميره ومدد يأتيهم ، فإنهم معهم الأغنام ، والبقر ، والخيل ، وغير ذلك من الدواب ، يأكلون لحومها لا غير ، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها ، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير ، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من الخارج ، وأما ديانتهم ، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه"[٢٤].

كما وصفهم القلقشندى فقال: "ويقال أنهم لا يرون غسل ثيابهم البته ، ولا يميزون بين طاهر ونجس"[٢٥].

كان ذلك وصفاً موجزاً لشعب عرف بالهمجية والتوحش والبعد كل البعد عن مقومات الحضارة ، ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم ، وتقلبات مناخهم وبعدهم عن العالم وحضارته ، ولكن حينما اتصلوا بالأقوام الأخرى واقتربوا من حضارتهم تأثروا بها بعض الشيء ، رغم تدميرهم لمعالم الحضارة في البلدان التي يغزونها.

وتظهر معالم حضارتهم في تسامحهم الديني فهم غير متعصبين لدين معين ولا يجبرون أحداً على اعتناق ديانتهم بل إنهم دخلوا في ديانة البلد المغزوة ، فنراهم اعتنقوا المسيحية والإسلام. أما من جانب المعالم الحضارية والمعمارية فنجد أن بهم تناقضا ، فها هو هولاكو يدمر بغداد ويستبيحها ثم يقيم مرصداً[٢٦]. كان الصراع والتنازع يدب بين قبائل المغول ، لتندلع الحروب فيما بينهم لأتفه الأسباب فكانت بحاجة إلى من يوحدها ويخضع قواتها تحت لواءه فقدر أن يظهر جنكيز خان من بينهم.

جنكيز خان

شهدت منغوليا مولد تيموجين بن يوسكاي بهادر في سنة (٥٤٩هـ-١١٥٥م) وكان أبوه رئيساً لقبيلة (قيات) وهي فخذ من قبيلة برجقين ، ودارت حول مولده بعض القصص الأشبه بالخيال منها أنه كان يحمل في قبضته اليمنى كتلة متخثرة من الدم[٢٧].

وسماه والده تيموجين تيمناً بأعراف المغول القديمة إذ لابد أن يرتبط الاسم ببعض الظروف ، ذات علاقة مرتبطة بالإحداث وسمي بهذا الاسم لأن أباه عاد في نفس يوم ولادته منتصراً على إحدى القبائل حاملاً معه أسيراً يحمل نفس الاسم (تيموجن)[٢٨].

لم تطل الحياة بأبيه ، فقد توفي تاركاً حملاً ثقيلاً ومسئولية كبيرة لتيموجين الابن الكبر الذي لم يتجاوز العشر سنوات ، ليقف عاجزاً أمام تحمل مسئولية قبيلة كبيرة مثل قبيلة قيات والتي كانت تحت زعامة والده ، فانفض من حوله حلفاء أبيه ، وانصرف عنه الأنصار والأتباع ، وتظهر له قبيلة التايجيوت العداوة مستغلة ضعفه ، كما استغلت قبيلته صغر سنه فرفعت راية العصيان. فأصبحت أسرة تيموجين فقيرة ومشردة لا تجد من يدافع عنها ولا تعرف إلى أين سيقودها مصيرها المجهول[٢٩].



Genghis Khan

تأسيس الإمبراطورية

بذلت ام تيموجين قصارى جهدها في أن تجمع شتات الأسرة وتحث أبنائها على الصبر والكفاح، خاصة بعد تعرضهم لغارات التايجيوت، فصبر تيموجين وتحمل حتى استطاع إجبار المنشقين من قبيلته بالانطواء تحت قيادته[٣٠].

ليواصل تيموجين خطته في التوسع، وضبط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا، تمتد حتى صحراء جوبي، ليدخل في صراع مع حليفه رئيس قبيلة الكرايت، وكانت العلاقات قد ساءت بينهما بسبب الدسائس، وتوجس طغرل (أونك خان) من تنامي قوة تيموجين وازدياد نفوذه، ليتحول حلفاء الأمس إلى أعداء لا مكان للحوار بينهم سوى لغة السيف فكان النصر حليف تيموجين، ثم توجه لإخضاع قبائل النايمان، لينجح ويفرض سيطرته على كل القبائل.

وأمام هذا الانتصار الساحق عقدت جميع القبائل مجلساً (قوريلتاي) وأعلنت فيه سيادة تيموجين، ليصبح أقوى شخصية مغولية، فنودي به خاقاناً، وعرف باسم جنكيز خان[٣١] ليصبح هذا الاسم بمثابة شبحاً يهابه قادة العالم وخاصة بعد أن قضى على الصين التي كانت تؤلب صدور القبائل عليه فرأى أنه من الضروري زوال هذه الدولة من أمامه فاستطاع كعادته من القضاء عليها ليزيد هذا الحدث هيبته في نفوس الجميع وخاصة العالم الإسلامي[٣٢]، فاتجه غرباً إلى دولة خوارزم شاه وتبدأ بعدها حروب المغول ضد المسلمين[٣٣].

تنظيماته الداخلية

بعد أن استتب له الأمر اتجه إلى إصلاح الشؤون الداخلية، فوضع لشعبه دستوراً محكماً يسمى (قانون الياسا)، لتنظيم الحياة، وأشتمل على الأسس التي يقوم عليها النظام الحربي للمغول القائم على الطاعة العمياء[٣٤].

أما قوانين جنكيز خان المعروفة بـ(ياسا) وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة، وتطلق على الحكم الذي يصدره الملك أو الأمير، وكان هذا الكتاب يحوي أحكاماً تتعلق بالجزاء والعقاب، وغالباً ما يكون ذلك بإعدام المذنب. ويعمل المغول بها في عدة أحوال منها:

١- عند جلوس خان جديد على العرش.

٢- عند يعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

٣- في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال.

وساعدت هذه القوانين في فض النزاعات بين طوائف المغول[٣٥]، كما نظم الوظائف كالتالي:

١- أربعة أشخاص عمل السهام والأقواس.

٢- ثلاثة أفراد للإشراف على الطعام والشراب.

٣- فرد واحد يتولى أعداد المراعي للأغنام والماشية.

٤- فرد واحد يتولى الإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

٥- فرد واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل.

٦- أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيف.

٧- اثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيل.

٨- أربعة أشخاص لتبليغ رسائل الخان.

٩- اثنان من النبلاء للمحافظة على النظام[٣٦].

ونجد أن هذه القوانين مختصرة وبسيطة لكنها شاملة وتقوم على أساس احترام أفراد الشعب المغولي فيما بينهم.

كانت تلك أهم إصلاحات جنكيز خان داخل بلاده ليضمن أمنها واستقرارها ليواصل زحفه بعد ذلك على العالم الإسلامي الذي كان يعيش في موجه من الصراعات الداخلية بين الحكام، وضعف عام يسيطر على المنطقة الإسلامية.

وبعد؛ فقد كان ذلك استعراضاً سريعا لحياة شعب ملأ العالم رعباً بفضل رجلاً عركته الحياة طفلاً ليصبح رجلا صلبا يخشاه من في الأرض بمجرد سماع اسمه، ويعود سبب قسوته تلك إلى البيئة القاسية وما لاقاه من محن في صغره وفي المقابل نجده رجلاً متزناً، كريم سخي، يقدر من يسدي إليهم خدمة، يكره الخداع والخيانة، أخذ على عاتقه حماية الضعفاء[٣٧].

ويصف الذهبي حال التتار قبله فيقول:"خرب البلاد وأفنى العباد، واستولى على الممالك، وليس للتتار ذكر قبله، إنما كانت طوائف المغول بادية بأراضي الصين فقدموه عليهم، فهزم جيوش الخطا، واستولى على ممالكهم، ثم تركستان وإقليم ما وراء النهر ثم إقليم خراسان وبلاد الجبل وغير ذلك، وأذعنت بطاعته جميع التتار وأطاعوه في كل شيء. ولم يكن يتقيد بدين الإسلام ولا بغيره، وقتل المسلم عنده أهون من قتل البرغوث، وله شجاعة مفرطة وعقل وافر ودهاء ومكر"[٣٨].

الهوامش

(١) اسمه تيموجين بن يسوكاي بهادر، ولد سنة(٥٤٩ هـ)، مات والده وهو في سن الثالثة عشر، واضطره ذلك إلى الاعتماد على النفس فنشأ قوي الشخصية، استطاع أن يوحد قبائل المغول ويسن لهم مجموعة من القوانين عرفت باسم(الياسة).
الفقي/ عصام الدين عبد الرؤوف، جمال الدين/ محمد السعيد، موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، (المشرق الإسلامي بعد العباسيين ج٤)، (القاهرة: شركة سفير للطبع والنشر، ط١، د.ت).ص١٦-١٧.

(٢) ابن عبد الظاهر/ علاء الدين علي بن محمد بن عبد الله (ت٧١٧هـ)، الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر وبذيلة المناقب المظرفية، تحقيق: عبد السلام تدمري، (بيروت: المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٦هـ)، ص٧.

(٣) الغامدي/ سعد بن حذيفة، سقوط الدولة العباسية، (الرياض: دار ابن حذيفة، ط٣، ١٤٢٥هـ)، ص٥٣.

(٤) الغامدي، المرجع السابق، ص٥٤.

(٥) الفقي/ عصام الدين عبد الرءوف، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٤٢٠هـ)، ص١٦٨.

(٦) الخالدي/ إسماعيل عبد العزيز، العالم الإسلامي والغزو المغولي، (الكويت: مكتبة الفلاح، د.ط، د.ت)، ص٢٢.

(٧) الخالدي، المرجع السابق، ص٢٣.

(٨) الصياد/ فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ط، د.ت)، ص٣٠.

(٩) الخالدي، مرجع سابق، ص٢٥.

(١٠) الصياد، مرجع سابق، ص٢٤.

(١١) الصياد، المرجع السابق، ص٢٦.

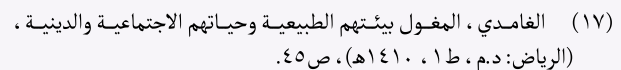
(١٢) الخالدي، مرجع سابق، ص٢٥.

(١٣) الخالدي، مرجع سابق، ص٢٧-٢٨.

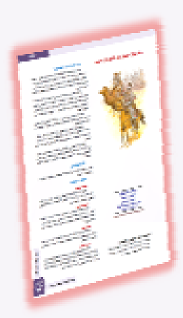
(١٤) الصياد، مرجع سابق، ص٢٩.

(١٥) الصياد، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.

(١٦) ب. يا. فلاديميتر ستوف، حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية، ترجمة أسعد بن محمد حذيفة الغامدي، (ط١، ١٤٠٣هـ) ص١٩.

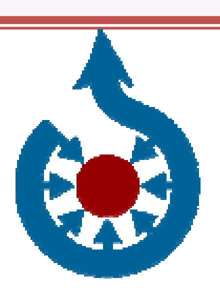


(١٧) الغامدي، المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية، (الرياض: د.م، ط ١، ١٤١٠هـ)، ص٤٥.
(١٨) الغامدي، المرجع السابق، ص٥٣.
(١٩) الغامدي، المرجع السابق، ص٥٥.
(٢٠) الفقي، المشرق الإسلامي بعد العباسيين ج٤، ص١٥.
(٢١) الصياد، مرجع سابق، ص٣٣٥-٣٣٦.
(٢٢) الغامدي/ المغول، ص١٣٣.
(٢٣) الصياد، مرجع سابق، ص٣٣٧.
(٢٤) ابن الأثير/ عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم(ت ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ ج ١٠، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٥هـ) ص٣٥١.
(٢٥) القلقشندي/ أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الانشا مج٤، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت)، ص٣١٥.
(٢٦) العريني/ السيد الباز، المغول، (بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، ١٩٨١م)، ص٢٥.
(٢٧) الغامدي، حياة جنكيز خان، ص٢٥.
(٢٨) الغامدي، المرجع السابق، ص٢٧.
(٢٩) العريني، المغول، ص٤٦.
(٣٠) العريني، مرجع سابق، ص٤٧-٤٨.
(٣١) عمران/ محمود سعيد، المغول وأوربا، (د.م، دار المعرفة الجامعية، د.ط، ١٩٩٧م)، ص٣٢-٣٣.
(٣٢) الصياد، مرجع سابق، ص٥٣.
(٣٣) شبولر/ بروتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، (دمشق: دار إحسان للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٠٢هـ)، ص٣٠.
(٣٤) حمدي/ حافظ احمد، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ)، ص١٣١.
(٣٥) الصياد، مرجع سابق، ص٣٣٨-٣٣٩.
(٣٦) عمران، مرجع سابق، ص٣٤.
(٣٧) الصياد، مرجع سابق، ص١٥١-١٥٢.
(٣٨) الذهبي/ شمس الدين محمد بن احمد (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء ج١٦، تحقيق: خيري سعد، (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ط، د.ت)، ص٢١٧.



الأستاذة ريهام المستادي في سطور:

حصلت الأستاذة ريهام المستادي عضو الهيئة الاستشارية للتحرير "دورية كان التاريخية" على درجة الماجستير بامتياز (مايو ٢٠٠٩) فرع التاريخ الإسلامي الوسيط، وكان موضوع رسالتها حول "أولاد الناس بمصر في العصر المملوكي"، وتعتبر الرسالة الأولى من نوعها في هذا المجال، حيث لم يسبق التعرض لتلك الفئة بدراسة مستقلة. وقد أشرفت على الرسالة لجنة مكونة من وكيلة عمادة القبول والتسجيل بجامعة الملك عبد العزيز الدكتورة نورة باديب، والأستاذ المساعد بجامعة الطائف الدكتور طارق منصور، والأستاذة المساعدة بقسم التاريخ الدكتورة ليلى عبد المجيد، ورئيس قسم التاريخ الدكتور عمر يحيى. وأثنت لجنة المناقشة على الرسالة من حيث موضوعها الذي تناولته ووصفتها بأنها نوع من الإبداع في التاريخ الاجتماعي الذي تعرض لعصر المماليك في مصر.



في إطار فكرة "أضف للبشرية...أضف لويكيبديا"، تتوفر الآن أعداد كان التاريخية بموقع ويكيميديا كومنز Wikimedia Commons أحد مشاريع مؤسسة ويكيميديا. الهدف من ويكيميديا كومنز أن تكون مرجعًا لتخزين الملفات الحرّة مثل الصور وملفات الصوت وملفات الوسائط المتعددة الأخرى بحيث يمكن استخدامها في أي مشروع من مشاريع ويكيميديا كما لو أنها حُمّلت على المشروع المحلي، فالملفات الموجودة في كومنز يمكن استخدامها في ويكيبيديا وويكي الكتب وويكي أخبار وويكي قاموس في كافة اللغات.

http://commons.wikimedia.org



تحقيقًا لأهداف دورية كان التاريخية في الوصول إلى كل متخصص وقارئ في التاريخ، تم إضافة أعداد الدورية إلى أرشيف الإنترنت Internet Archive "الرقمي العالمي" وهو منظمة غير ربحية مقرها في سان فرانسيسكو، وتكرس المنظمة جهودها للحفاظ على الكتب التراثية والموارد المتعددة الوسائط. ويشمل هذا الأرشيف "لقطات من الشبكة العالمية"، والبرمجيات، الأفلام، والكتب والتسجيلات الصوتية. ولضمان الاستقرار والثبات للأرشيف، هناك نسخة أخرى وحيدة منه في مكتبة الإسكندرية في مصر.

www.archive.org




الشهيد
فريق أول عبد المنعم رياض

بقلم
إبراهيم خليل إبراهيم
مدير تحرير سلسلة فرسان السندباد
عضو إتحاد كتاب الإنترنت العرب
vip_e.k@hotmail.com

في التاسع من شهر مارس من كل عام تحتفل مصر وقواتها المسلحة بيوم الشهيد والمحارب القديم تخليداً لذكرى الشهداء الأبرار الذي قدموا حياتهم فداء للوطن وبذلوا دماءهم لترتوي بها رمال سيناء الحبيبة لاستعادة أرض مصر وكرامتها ، وقدموا أروع الصفحات في البطولة والكفاح. الجدير بالذكر أن يوم التاسع من شهر مارس أختير تقديرا لبطولات البطل الفريق أول عبد المنعم رياض الذي أستشهد في هذا اليوم على جبهة القتال.

ويعد البطل الفريق أول عبد المنعم رياض واحداً من أشهر العسكريين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين ، شارك في الحرب العالمية الثانية ضد الألمان والإيطاليين التي جرت بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ و في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ والعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ والذي قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر ، وأيضا حزن لنكسة الخامس من يونيو عام١٩٦٧ فقد نالت إسرائيل نصرا لا تستحقه ، ونالت مصر هزيمة لا تستحقها ، لأن الجندي المصري لم يشترك في الحرب. كما شارك البطل الفريق الأول في معارك الاستنزاف التي بدأت بمعركة رأس العش بعد نكسة يونيو مباشرة بعشرين يوما فقط واستمرت حتى عام ١٩٧٠ ومهدت الطريق لمعارك أكتوبر عام ١٩٧٣.

والبطل الفريق أول "محمد عبد المنعم محمد رياض عبد الله" ولد في قرية سبرباى إحدى ضواحي مدينة طنطا بمحافظة الغربية في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩١٩ ، و نزح مع أسرته إلى الفيوم. كان جده عبد الله طه على الرزيقى ــ رحمه الله ــ من أعيان الفيوم ، أما والده فهو القائمقام العقيد محمد رياض عبد الله قائد بلوكات الطلبة بالكلية الحربية والتي تخرجت على يديه الكثيرين من قادة المؤسسة العسكرية.

درس عبد المنعم رياض في كتاب القرية وتدرج في التعليم ، وبعد حصوله على الثانوية العامة التحق بكلية الطب بناء على رغبة أسرته ، ولكنه بعد عامين من الدراسة فضل الالتحاق بالكلية الحربية التي كان متعلقا بها. انتهى من دراسته في عام ١٩٣٨ م برتبة ملازم ثان ونال شهادة الماجستير في العلوم العسكرية عام ١٩٤٤ وكان ترتيبه الأول وأتم دراسته كمعلم مدفعية مضادة للطائرات بامتياز في إنجلترا عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦وقد أطلق عليه السوفيت " الجنرال الذهبي" برغم انه كان برتبة عميد وقتئذ.

أجاد عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وانتسب وهو برتبة فريق إلى كلية التجارة لإيمانه بأن الإستراتيجية هي الاقتصاد. وفي عام ١٩٤١ عين بعد تخرجه في سلاح المدفعية وألحق بإحدى البطاريات المضادة للطائرات في المنطقة الغربية و اشترك في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا وإيطاليا. وخلال عامي ١٩٤٧-١٩٤٨ عمل في إدارة العمليات والخطط في القاهرة وكان همزة الوصل والتنسيق بينها وبين قيادة الميدان في فلسطين ومنح وسام الجدارة الذهبي لقدراته العسكرية التي ظهرت آنذاك. في عام ١٩٥١ تولى قيادة مدرسة المدفعية المضادة للطائرات وكان وقتها برتبة مقدم. في عام ١٩٥٣ عين قائدا للواء الأول المضاد للطائرات في الإسكندرية. من يوليو ١٩٥٤ وحتى ابريل ١٩٥٨ تولى قيادة الدفاع المضاد للطائرات في سلاح المدفعية.

في التاسع من شهر أبريل عام ١٩٥٨ سافر في بعثة تعليمية إلى الاتحاد السوفيتي لإتمام دورة تكتيكية تعبوية في الأكاديمية العسكرية العليا ، وأتمها في عام ١٩٥٩ بتقدير امتياز وقد لقب هناك بالجنرال الذهبي وبعد عودته في عام ١٩٦٠ شغل منصب رئيس أركان سلاح المدفعية.

في عام ١٩٦١ كان نائبا رئيس شعبة العمليات برئاسة أركان حرب القوات المسلحة وأسند إليه منصب مستشار قيادة القوات الجوية لشؤون الدفاع الجوي. في عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٣ اشترك وهو برتبة لواء في دورة خاصة بالصواريخ بمدرسة المدفعية المضادة للطائرات حصل في نهايتها على تقدير الامتياز وفي عام ١٩٦٤ عين رئيسا لأركان القيادة العربية الموحدة .

في عام ١٩٦٦ تمت ترقيته إلى رتبة فريق وأتم في السنة نفسها دراسته بأكاديمية ناصر العسكرية العليا وحصل على زمالة كلية الحرب العليا. حصل على العديد من الأنواط والأوسمة ومنها ميدالية الخدمة الطويلة ، والقدوة الحسنة ، ونوط الجدارة الذهبية ، ووسام الأرز الوطني بدرجة ضابط كبير من لبنان ، ووسام الكوكب الأردني طبقة أولى ، ووسام نجمة الشرق .

في مايو ١٩٦٧وبعد سفر الملك حسين للقاهرة للتوقيع على اتفاقية الدفاع المشترك عين الفريق عبد المنعم رياض قائدا لمركز القيادة المتقدم في عمان. وصل إليها في الأول من يونيو ١٩٦٧مع هيئة أركان صغيرة من الضباط العرب لتأسيس مركز القيادة ، وحينما اندلعت حرب ١٩٦٧ وعين الفريق عبد المنعم رياض قائدا عاما للجبهة الأردنية .

في الحادي عشر من شهر يونيو ١٩٦٧ اختير رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية فبدأ مع وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة الجديد الفريق أول محمد فوزي إعادة بنائها وتنظيمها. وفي عام ١٩٦٨ عين أمينا عاماً مساعداً لجامعة الدول العربية.



حقق عبد المنعم رياض انتصارات عسكرية في المعارك التي خاضتها القوات المسلحة المصرية خلال حرب الاستنزاف مثل معركة رأس العش التي جرت بين مجموعة من أبطال الصاعقة ضد القوات الإسرائيلية ومنعتها من احتلال مدينة بورفؤاد المصرية الواقعة على قناة السويس ، وهذه المعركة جرت بعد عشرين يوما فقط من نكسة يونيو ١٩٦٧. كما شارك في تدمير المدمرة الإسرائيلية إيلات في ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ وإسقاط بعض الطائرات الحربية الإسرائيلية خلال عامي ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .

كان عبد المنعم رياض يؤمن بحتمية الحرب ضد إسرائيل ويعتقد أن العرب لن يحققوا نصرا عليها إلا في إطار إستراتيجية شاملة تأخذ البعد الاقتصادي في الحسبان وليس مجرد إستراتيجية عسكرية. وكان يؤمن أيضا بأنه "إذا وفرنا للمعركة القدرات القتالية المناسبة وأتحنا لها الوقت الكافي للإعداد والتجهيز وهيأنا لها الظروف المواتية فليس ثمة شك في النصر الذي وعدنا الله إياه". كما كانت له وجهة نظر في القادة وأنهم يصنعون ولا يولدون فكان يقول: "لا أصدق أن القادة يولدون ..إن الذي يولد قائدا هو فلتة من الفلتات التي لا يقاس عليها كخالد بن الوليد مثلا ولكن العسكريين يصنعون ..يصنعهم العلم والتجربة والفرصة والثقة... إن ما نحتاج إليه هو بناء القادة وصنعهم والقائد الذي يقود هو الذي يملك القدرة على إصدار القرار في الوقت المناسب وليس مجرد القائد الذي يملك سلطة إصدار القرار".

تنبأ البطل الفريق أول عبد المنعم رياض بحرب العراق و أمريكا حيث قال: "إن بترول أمريكا سوف يبدأ في النفاذ وستتطوق إلى بترول العراق خلال ٣٠ عام تقريبا" وهاهو التاريخ يؤكد هذا. من أقوال البطل الفريق أول عبد المنعم رياض والتي حفظها التاريخ نذكر قوله: "أن تبين أوجه النقص لديك .. تلك هي الأمانة .. وأن تجاهد أقصى ما يكون الجهد بما هو متوفر لديك .. تلك هي المهارة".

أشرف البطل الفريق أول عبد المنعم رياض على الخطة المصرية لتدمير خط بارليف خلال حرب الاستنزاف ورأى أن يشرف على تنفيذها بنفسه ، وتحدد يوم السبت الثامن من شهر مارس عام ١٩٦٩ م موعداً لبدء تنفيذ الخطة ، وفي التوقيت المحدد انطلقت نيران المصريين على طول خط الجبهة لتكبد الإسرائيليين أكبر قدر من الخسائر في ساعات قليلة ، وتدمير جزء من مواقع خط بارليف وإسكات بعض مواقع مدفعيته في أعنف اشتباك شهدته الجبهة قبل معارك ١٩٧٣. وفي صبيحة يوم الأحد التاسع من شهر مارس ١٩٦٩ قرر أن يتوجه بنفسه إلى الجبهة ليرى عن كثب نتائج المعركة ويشارك جنوده في مواجهة الموقف. كما قرر أن يزور أكثر المواقع تقدماً التي لم تكن تبعد عن مرمى النيران الإسرائيلية سوى ٢٥٠ مترا ووقع اختياره على الموقع رقم ٦ وكان أول موقع يفتح نيرانه بتركيز شديد على دشم العدو في اليوم السابق.

ويشهد هذا الموقع الدقائق الأخيرة في حياة البطل الفريق أول عبد المنعم رياض حيث انهالت نيران العدو فجأة على المنطقة التي كان يقف فيها وسط جنوده واستمرت المعركة التي كان يقودها البطل الفريق أول عبد المنعم بنفسه حوالي ساعة ونصف الساعة إلى أن انفجرت إحدى طلقات المدفعية بالقرب من الحفرة التي كان يقود المعركة منها ونتيجة للشظايا القاتلة وتفريغ الهواء أستشهد متأثرا بجراحه.

وفي جنازة عسكرية مهيبة خرجت جموع الشعب المصري لتودع بطلها إلى مثواه الأخير ، وقالت عنه وكالة اليونايتدبرس: "إن الفريق عبد المنعم رياض ختم حياته على العهد به رجلا مخلصا لجنديته في الخطوط الأمامية .. إن الفريق عبد المنعم رياض شارك في عمل بدا شبه مستحيل وهو إعادة بناء القوات المسلحة المصرية".

وقالت صحيفة الجرديان البريطانية: "إن وفاة عبد المنعم رياض قد رفعت الروح المعنوية للشعب المصري حيث عبر حادث استشهاده بين جنوده عن الروح المعنوية الجديدة التي سادت القوات المسلحة المصرية بعد عام ١٩٦٧.

وقد نعاه الرئيس جمال عبد الناصر ومنحه رتبة الفريق أول ونجمة الشرف العسكرية التي تعتبر أكبر وسام عسكري في مصر ، وأعتبر يوم التاسع من شهر مارس من كل عام هو يوم الشهيد تخليدا لذكراه. وهذا هو بيان رئاسة الجمهورية الذي نعى فيه الرئيس جمال عبد الناصر البطل الفريق أول عبد المنعم رياض في التاسع من شهر مارس عام ١٩٦٩:

"فقدت الجمهورية العربية المتحدة أمس جندياً من أشجع جنودها وأكثرهم بسالة وهو الفريق عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة.. وكان الفريق عبد المنعم رياض في جبهة القتال وأبت عليه شجاعته إلا أن يتقدم إلى الخط الأول بينما كانت معارك المدفعية على أشدها وسقطت إحدى قنابل المدفعية المعادية على الموقع الذي كان الفريق عبد المنعم رياض يقف فيه وشاء قضاء الله وقدره أن يصاب ، وأن تكون إصابته قاتلة...إنني أنعى للأمة العربية رجلاً كانت له همة الأبطال ، تمثلت فيه كل خصال شعبه وقدراته وأصالته... إن الجمهورية العربية المتحدة تقدم عبد المنعم رياض إلى رحاب الشهادة من أجل الوطن راضية مؤمنة واثقة أن طريق النصر هو طريق التضحيات .. ولقد كان من دواعي الشرف أن قدم عبد المنعم رياض حياته للفداء وللواجب في يوم مجيد استطاعت فيه القوات المسلحة أن تلحق بالعدو خسائر تعتبر من أشد ما تعرض له...لقد وقع الجندي الباسل في ساحة المعركة ومن حوله جنود من رجال وطنه يقومون بالواجب أعظم وأكرم ما يكون .. من أجل يوم اجتمعت عليه إرادة أمتهم العربية والتقى عليه تصميمها ، قسماً على التحرير كاملاً وعهداً بالنصر عزيزاً. مهما يكن الثمن ، ومهما غلت التضحيات".



الجنازة الشعبية للشهيد عبد المنعم رياض

وفي مساء الثاني عشر من شهر مارس عام ١٩٦٩ قال سليمان العيسى عبر أثير محطة الإذاعة والتليفزيون من سوريا:



بيضاءٌ شامخة الأسى سيناءُ
تٌسقى بجرحكَ روعةٌ وتضاءُ
بيضاءٌ تغسلُ أرضها وسماءَها
بسنا الرجولةِ دفقةٌ حمراءُ
بيضاءٌ تنفضُ في العراءِ قبورَنا
فإذا الطريقُ شهادةٌ وفداءُ
وأجسُّ عارَ الدهرِ يجلدُ جبهتي
بالنَّار .. يسحقُ رأسي الإغضاءُ
عامان ، ، أمضغُ زفرتي مخنوقة
عامان .. قصة ذلنا الأنباءُ
وأُفيقُ أمس .. يُفيقُ كلُّ مجللٍ
بالموت .. تُتلعُ جيدها الصحراءُ
نصحو على نبأِ الشهيدِ : جباهنا
زهو يُضيءُ ، ودمعنا خُيلاءُ
مسح الدمُ البطلُ الهوان ، وغُيبتْ
في قاعِ نعشك نكسةٌ سوداءُ
يا رافعاً علم التحدي .. بعدما
مات التحدي .. فالعرينُ إماءُ
يا ناثراً مِزقَ الشظايا حوله
والموتُ تحت جراحهِ استخذاءُ
يا صارخاً بالخانعينَ على الذُّرا
حُفرُ القتال ذُوراكمُ الشَّماءُ
أنزلتَ عن صدرِ العروبةِ صخرةٌ
وتزحزحت عن دربنا غَمَّاءُ
صُلبت أمانينا .. وديسَ وجودنا
وتشامخت أسطورةٌ نكراءُ
هُزمت ملاييني .. سُحِقْتُ بضربةٍ
فتراثنا ، وفتوحنا أشلاءُ
القهقهات على دمي محمومةٌ
ودمي يدٌ مغلولةٌ خرساءُ
قالوا : ذرونا أمة مشلولةً
في الريح .. قالوا : وحدنا الأحياءُ
رَكِبت أساطيرَ البطولةِ حفنةٌ
عن كل ساحةِ نخوةٍ غُرباءُ
وزهت صيارفةُ القرون ببأسها
وتململت غُصصٌ ، وعَزَّ بكاءُ
عشرون .. برقعتِ الجريمةُ وجهها
وخيامنا ما تعرفُ الأنواءُ
عشرون .. تُلفظُ في الدروبِ فلا لقى
أجسادنا حُسبت ، ولا أشياءُ
عشرون .. يلهو عالمٌ بجنازتي
والحشرجات على الرمال هباءُ
عشرون .. يُغمضُ عينه عن جثتي
ويمرُّ .. لا خجلٌ ولا استحياءُ
وأدق تابوتي .. بكفي مرةً

وبكفه .. وتلفني رقطاءُ
عشرون .. عشت على الطريق جُزازةً
بَيعٌ مصيري كلهُ وشراءُ
قالوا : ذروناهم ، فتلك قبورهم
لا نأمةٌ خلجت ، ولا إيماء
كَذَبت مزاميرُ الجريمةِ كلُّها
كَذَبت طبولُ جَنَازتي الزهراءُ
لم ننزل الميدان .. كانت أمتي
في القيدِ .. في رئتيَّ كان الداءُ
ما حاربت سُمرُ الرمال ، ولا مشى
للموتِ ، إلا الريحُ والضوضاءُ
نمنا على الفيدِ الهجينِ ، ومَزقت
قيدي الهجينِ شظيةٌ بكماءُ
ألقمتها صدر الرجالِ ، فزغردت
حطين . وافتتحَ الكتابَ (حراءُ)
إقرأ على المتسكعين رسالتي
بدماك فليطَّهَرِ الجبناءُ
إقرأ عليهم سورة الفتح التي
بيعت ، فدفقةُ وهجِها ظَلماءُ
إقرأ على المتراكضين إلى الدجى
يتخبؤون وتخجلُ الأضواءُ
إقرأ علينا من دمائك آيةٌ
تهدر بغير دمارنا الأصداءُ
إقرأ علينا باسم ربك ، باسمنا
باسم العروبةِ .. كلُّنا إصغاءُ
عَرفت ملاييني بصدرك جسرها
فليعبروا ، جسرُ الخلودِ مُضاءُ
جسرُ الحياةِ تمورُ في أعماقنا
لهباً وتُطفِئُها يدٌ شلاءُ
حملت شعار الفاتحين وهَدَّها
تحت النعال رخيصةٌ إغراءُ
يا فارسَ الصحراءِ .. يقتلها الظما
والتبرُ رواحٌ بها غداءُ
يا فارسَ الصحراءِ .. يُطعِمُ رملها
دمهُ ، فحرُّ جحيمها أنداءُ
ما ماتَ تاريخي العظيمُ ، ولا انطفا
وهجُ الشهادةِ فيهِ والشهداءُ
ما ماتَ ، يا صقر السويس ، وإنما
سَرقت نهاري ليلة ليلاءُ
غَطَّت وجودي في الوجود سحابةٌ
سوداءُ كالحةُ الدجى عمياءُ
وتهشمَ الصرحُ المجيدُ .. مروءةٌ
تاريخُه مِلءَ الدُّنى وعطاءُ
ووقفتُ أمضغُ كاليتيمِ مرارتي
إرثي يُباعُ ، ولقمتي استجداءُ
وحملتُ كنزي في لهاتي غُصةً
والسارقون خناجرٌ وعِداءُ

زرعوا الجريمةَ فوقَ قبري مَرَّةً
بَدءُ النُّشورِ جريمةٌ شنعاءُ
زرعوا على الأشلاءِ إسرائيلهم
وتحركت لتقاتل الأشلاءُ
الميْتُ ينهضُ ، والقبورُ قصيدةٌ
والمنشدون إلى النزالِ ظِماءُ
والفريةُ الكبرى التي سلخوا لها
جلدي ليستر ما افتروهُ غِطاءُ
الفريةُ الكبزى تصدعَ ليلُها
وتناقلت بُهتانَها الأرجاءُ
ما ماتَ تاريخي العظيمُ .. ستنتهي
إذ نستفيقُ القصةُ الصفراءُ
يمحو دمٌ صبغَ القناة برشة
ما زورته حِقبةٌ شوهاءُ
يمحو دمٌ صبغَ القناة هزيمتي
ويُطلُّ وجهُ حقيقتي الوضاءُ
الآن افتتحُ النزالَ بأمتي
وتُشعُّ دنيا كالضُّحى عرباءُ
دقَّ الفدائيون بابَ نشورنا
وكآلف بُشرى بالرسالة ، ، جاؤوا
يا فارسَ الرملِ الخضيبِ ... تمزقت
بفمي السلاسلُ فالصريرُ غِناءُ
افتح جراحَكَ ينغمس في وهجها
جيلٌ ، وينبضُ في الصخورِ اباءُ
بدأ الربيعُ يدبُّ فوق دمارنا
الَمٌ يُجددُ أمةٌ ونداءُ
أتموتُ ؟ ينبُتُ الفُ الفِ مُقاتلٍ
من دفقِ جرحك ، تعشبُ البيداءُ
تَلقى بصدركَ أمةٌ مقبورةٌ
مَطرَ القذائفِ ، أمةٌ عزلاءُ
الآن نبتدىءُ النزالَ ، وساحةٌ
وطني الممزقُ ... ساحةٌ ولقاءُ
عَطِشَ التحدي في العروقِ ، ليحصدوا
عَطَشَ التحدي ... إنه نكباءُ
نكباءُ واعيةُ الخطى عربيةٌ
تَسَعُ الوجودَ يمينُها السمراءُ
من نارها (فتحٌ) ومن أسمائها
حطينُ ، لم تتبدلِ الأسماءُ
افتح جراحك وليصبوا نارهم
اني خُلودٌ هاهنا وبقاءُ
الآنَ ابتدىءُ النزالَ بأمتي
وطويلةٌ الباذتي عصماءُ
تسقي شهيدا كل حبةِ رملةٍ
حتى يموجَ العِطرُ والأفياءُ
حتى يَرِفَّ على القبورِ ربيعها
حتى تعودَ ثَرىً لنا وسماءُ
وتزولُ أقدامُ الغُزاةِ وتَمّحِي
ونقولُ : مرَّ بأرضنا دخلاءُ



وفي ذكرى الشهيد البطل (عبد المنعم رياض) قال الشاعر الكبير نزار قباني :

لو يُقتَلونَ مثلما قُتلتْ..
لو يعرفونَ أن يموتوا.. مثلما فعلتْ
لو مدمنو الكلامِ في بلادنا
قد بذلوا نصفَ الذي بذلتْ
لو أنهم من خلفِ طاولاتهِمْ
قد خرجوا.. كما خرجتَ أنتْ..
واحترقوا في لهبِ المجدِ ، كما احترقتْ
لم يسقطِ المسيحُ مذبوحاً على ترابِ الناصرة
ولا استُبيحتْ تغلبٌ
وانكسرَ المناذرة...
لو قرأوا – يا سيّدي القائدَ – ما كتبتْ
لكنَّ من عرفتهمْ..
ظلّوا على الحالِ الذي عرفتْ..
يدخّنون ، يسكرونَ ، يقتلون الوقتْ
ويطعمونَ الشعبَ أوراقَ البلاغاتِ كما علِمتْ
وبعضهمْ.. يغوصُ في وحولِهِ..
وبعضهمْ..
يغصُّ في بترولِهِ..
وبعضهمْ..
قد أغلقَ البابَ على حريمِهِ..
ومنتهى نضالِهِ..
جاريةٌ في التختْ..
يا أشرفَ القتلى ، على أجفاننا أزهرتْ
الخطوةُ الأولى إلى تحريرنا..
أنتَ بها بدأتْ..
يا أيّها الغارقُ في دمائهِ
جميعهم قد كذبوا.. وأنتَ قد صدقتْ
جميعهم قد هُزموا..
ووحدكَ انتصرتْ



من إصدارات الأستاذ إبراهيم خليل إبراهيم:

- ملامح مصرية
- من سجلات الشرف
- موسوعة حلوة بلادي
- قال التاريخ
- البطل الأسطورة
- رجالات وبطولات
- صائد الدبابات



تم افتتاح موقع مجلة المقتطف المصري الإليكترونية (مايو٢٠٠٩) والتي تعد ملتقى شباب المؤرخين العرب على الإنترنت. المقتطف المصري مجلة تاريخية ثقافية تبث عبر الإنترنت للقارئ العربي المهتم بتاريخ بلاده وتاريخ العالم من حوله. من موضوعاتها:

- الكهنة في مصر القديمة.
- منف في كتابات القدامى والمحدثين.
- الأرشيف المصري وثقافة اقتصاد المعرفة.
- السمات الحضارية لفترة الحكم الفارسي لمصر.
- سنة وقرنان على معركة رشيد (١٨٠٧ – ٢٠٠٨).
- التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٢/ ١٣م.
- حديقة الحيوانات بالجيزة "مروج القصور الخديوية".
- تطور الحركة الوطنية الصومالية حتى عام١٩٦١.
- الولايات المتحدة وثقافة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

رئيس تحرير المقتطف: وائل إبراهيم الدسوقي

كاتب وباحث مصري من مواليد القاهرة عام ١٩٧٥. حاصل على ليسانس الآداب (قسم تاريخ) – جامعة عين شمس عام ١٩٩٩. مُنح درجة الماجستير بامتياز من كلية الآداب – جامعة عين شمس عن الأطروحة المعنونة بـ " الماسونية في مصر ونشاطها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ١٧٩٨ – ١٩٦٤". من مؤلفاته:

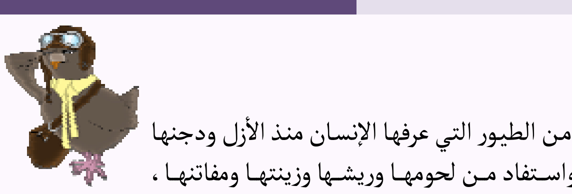
- الماسونية في العالم العربي:(المبادئ–الأصول–الأسرار)، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧.
- الصومال: قصة التحرر من الاستعمار والحرب على الإرهاب، دراسات سياسية تاريخية ٢٠٠٨.
- الماسونية في مصر دراسة وثائقية ١٧٩٨ – ١٩٦٤ (سلسلة مصر النهضة ٢٠٠٨)

موقع المجلة

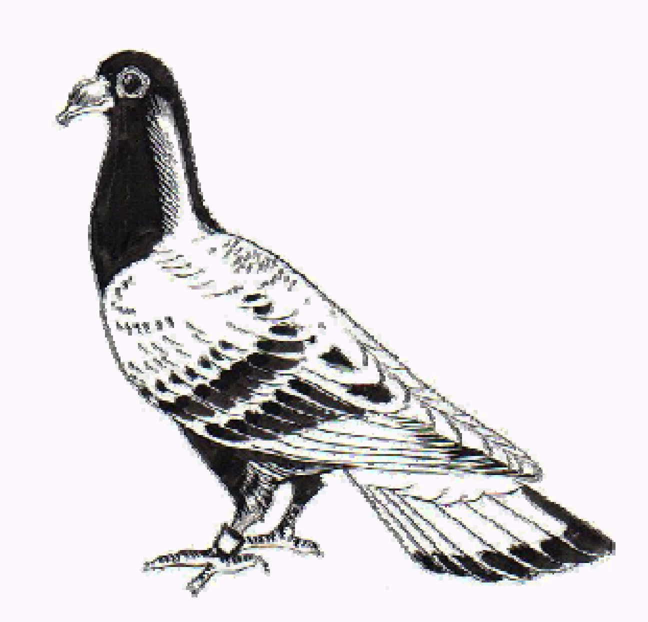
www.almoqtataf.sbilya.com

بريد إلكتروني

waileldesoky@yahoo.com



سيرة الحمام الزاجل التاريخية



Historical Biography of The Carrier Pigeon

أشرف صالح
رئيس التحرير
عضو إتحاد كتاب الإنترنت العرب
كاتب وباحث - جمهورية مصر العربية
Mr.ashraf.salih@gmail.com

▪ الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أشرف صالح ، سيرة الحمام الزاجل التاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص ٧٨ – ٨٣.
(www.historicalkan.co.nr)

الحمام

من الطيور التي عرفها الإنسان منذ الأزل ودجنها واستفاد من لحومها وريشها وزينتها ومفاتنها ، والحمام بشكل عام طير وديع ومسالم ، ومن أنواع هذه الطيور الجميلة الحمام الزاجل الذي لعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان منذ أقدم العصور في كل المجالات الحربية والاقتصادية والتجارية والإعلامية والصحية... الخ.

الحمام الزاجل مخلوق مستأنس ألِفٌ ، وله اسم آخر هو ، حمام الرسائل ، ومنه ما يزيد على خمسمائة نوع ، وهو يمتاز بحدة الذكاء والقدرة الفائقة على الطيران ، ويمتاز بغريزة قوية يهتدي بها إلى هدفه وموطنه. وحول معنى كلمة زاجل يرى بعض أنها كلمة عربية الأصل ، وتعني الرامي أو الدافع ، وهناك رأي بأن أصل الزاجل فارسي ، وهي تعني قائد العسكر أو قائد الجند ، واستخدمت الكلمة للتعبير عن الحمام المستخدم في نقل الرسائل من دون تحديد سلالات معينة ، كما هو جارٍ في الوقت الحاضر ، ثم أصبحت الكلمة تستخدم للتعبير عن الحمام صاحب قدرة الطيران العالية والسلالات المستخدمة في السباقات ، كما أن الغرب عندما نقلوا تربية حمام الرسائل عن العرب قاموا باستخدام اللفظ نفسه ZAJEL ، وأصبح هذا الاسم هو المتداول عالمياً.

ويمثل الحمام مع غصن الزيتون علامتا السلام والوئام في كل أنحاء العالم ، ويرجع السر في ذلك إلى ما جاء في التوراة بأن سيدنا نوح – عليه السلام – أرسله ليبحث عن الأرض التي يستطيع أن يرسو عليها بسفينته ، وقد قام الحمام بتلك المهمة خير قيام إذ عاد وهو يحمل غصن الزيتون دلالة على انتهاء الطوفان.

وقد حفل تاريخ البريد بوسائل نقل عديدة عبر السنون ، كان الهدف الرئيسي من استخدام تلك الوسائل هو الوصول للسرعة القصوى لنقل الإرساليات البريدية ، مع ضمان انتظام وأمان تلك المواد البريدية. وجاءت أول دلالة على استخدام الحمام الزاجل في توصيل الرسائل من الإغريق ، حيث ذكر المؤرخ بلينيوس أن نتائج مسابقات الألعاب الاولمبية - مثل المصارعة- كانت تُرسل إلى المدن البعيدة بواسطته. يقول ول ديورانت في قصة الحضارة "ولم يكن في بلاد اليونان نظام للبريد ، وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدّائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها مَن ينقلها منهم. وكانت الأخبار الهامة تُرسل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل."

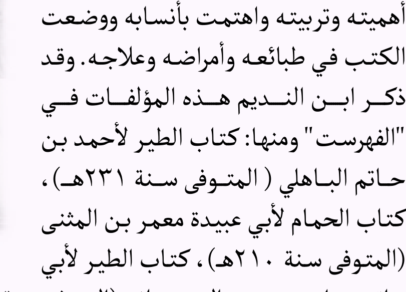
أما التراسل الحربي بواسطة الحمام ؛ فإن الأقدمين كانوا عند حدوث حدث مهم ، يعلقون الخبر بعنق حمامة أو ضمن قارورة صغيرة من الورق الذهبي وهو من الذهب الخالص بلغ الغاية في الرقة والخفة وذلك لتكون مع خفتها على الحمامة حافظة للرسالة من تأثير العوارض الجوية ، وكانوا يضعون ضمن القارورة رسالة من الورق الرقيق ويكتبونه بقلم يسمى الغبار ، ثم يوضحون على ظهر الرسالة وقت سفر الحمامة بالتدقيق التام ، وبعد قليل يطلقون حمامة أخرى حاملة الخبر نفسه على النمط المذكور خوفا من ضياعه.

وقد وصف السيوطي ذلك في كتابه "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" قال: " ورأيت الأوائل لا يكتبون في أوائلها بسملة ، قال وأنا ما كتبتها قط إلا ببسملة للبركة ، وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين ، وينبغي أن لا يكثر في نعوت المخاطب فيها ولا يذكر في البطائق حشو



الألفاظ ، ولا يكتب إلا لب الكلام وزبدته ، ولا بد أن يكتب شرح الطائر ورفيقه إن كانا طائرين قد سرحا حتى إن تأخر الطائر الواحد رقب حضوره أو يطلق لئلا يكون قد وقع في برج من أبراج المدينة ، ولا يعمل للبطائق هامش ، وجرت العادة بأن يكتب في آخرها: وحسبنا الله ونعم الوكيل".

وكان أن أول استخدام للحمام الزاجل في الأغراض الحربية عندما حاصرت قوات مارك انطوني قوات بروتس في مدينة "مودلينا" ، فكان اوكتافيوس الثالث يتصل بقلعة بروتس المحاصرة بواسطة الحمام الزاجل. وقد استخدم الرومان الحمام الزاجل أيضاً بغرض الترفيه ، فكانوا يأتون به إلى روما عند مجيئهم لحضور حفلات سباق العجلات ثم يصبغونه بألوان تشير إلى الفرق الرابحة أو الخاسرة في الرهان ويطلقونه فيعود بسرعة عجيبة إلى أبراجه حيث كان القوم ينتظرونه ليقفوا بذلك على الرابحين. ويذكر أن قورش (٥٩٠- ٥٢٩ ق.م)العظيم مؤسس الإمبراطورية الفارسية أستخدم الحمام الزاجل للاتصال بالأماكن النائية في الإمبراطورية.



وللحمام الزاجل عند العرب تاريخ طويل ، فهم من أول الأمم التي عرفت أهميته وتربيته واهتمت بأنسابه ووضعت الكتب في طبائعه وأمراضه وعلاجه. وقد ذكر ابن النديم هذه المؤلفات في "الفهرست" ومنها: كتاب الطير لأحمد بن حاتم الباهلي (المتوفى سنة ٢٣١هـ)، كتاب الحمام لأبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١٠هـ)، كتاب الطير لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥هـ).

وقد ذكر الجاحظ في كتاب "الحيوان" اهتمام العرب وولعهم بالحمام الزاجل ، فكان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب ، "ولولا الحمام الهدي- الزاجل- لما جاز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في يوم واحد ، حتى أن الحادثة لتكون بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة عشية ذلك".

الجدير بالذكر ؛ أن البريد الذي أسسه الأمويين كان يعتمد على الخيل والجمال والبغال وتبادل الإشارة بالنيران والدخان والمرايا والطبول في إيصال الأخبار والمعلومات العسكرية من وإلى مركز الخلافة ، ومع اتساع رقعة الخلافة الإسلامية وزيادة حروبها وفتوحاتها وكثرة الفتن الداخلية ، والقلاقل ومحاولات انفصال الأقاليم عنها ، ومع ازدياد مصادر الثروة وتنوعها وكثرة مؤسسات الدولة ودواوينها ، صار لابد من وسيلة أكثر كفاءة وسرعة لضمان أقصى فاعلية لعمل ديوان البريد الذي يضمن عمله اتصال إطراف الدولة الواسعة ببعضها وربطها بالعاصمة.

لذلك أدخل الخلفاء العباسيون استخدام الحمام الزاجل في البريد لما يمتاز به من السرعة الفائقة ولسهولة إعادة نقله للاماكن التي ستطلقه مرة أخرى ، بالإضافة إلى انخفاض كلفة التربية قياساً بالجياد والإبل ، ولتكاثره السريع وكذلك لطيرانه دون الحاجة لدليل أو مرشد ، ولدقته في الوصول لهدفه وأيضاً لجمال شكله والفته. ويمكن الرجوع في هذا الباب إلى حادثة تاريخية ، إذ أن خبر انتصار المسلمين على المسيحيين في معركة الذلاقة بالأندلس عام ١٠٨٦م أعلن من طرف المعتمد إلى أبنه في اشبيلية بواسطة الحمام الزاجل ، وقد قُرأت الرسالة على العموم في المسجد الكبير باشبيلية.

وذكر الحميري في كتابه "الروض المعطار" أن خلفاء بني العباس تنافسوا في اقتناء الحمام والعناية به وتوسيع دوره وتحسين نسله وأخضعوه لمراقبة دقيقة ونظموا سجلات بحركته وخصصوا له مربين يتقاضون رواتب عالية. ويذكر المسعودي أن المعتصم العباسي علم بانتصار جيشه على بابك الخرمى وأسره عام (٢٢٣هـ) عن طريق الحمام الذي أرسله قائد جيشه من الجبهة إلى سامراء. فقد "أطلقت الطيور إلى المعتصم وكتب الفتح ، فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح وكتب الكتب إلى الأمصار بالفتح ".

في الحقيقة ؛ لقد اعتنى عدد من خلفاء العباسيين كالمهدي والواثق بالحمام الزاجل ، أما الناصر لدين الله فأعاد العمل ببريد الزاجل عام ١٢٢٥م ولكن ذلك لم يلبث أن اختفى بعد غزو المغول للعراق سنة ١٢٥٨م. ويذكر الحميري أنه بلغ من أهميه الحمام الزاجل أن وصل ثمن الطائر منه أيام العباسيين إلى سبعمائة دينار وقد بيعت حمامة في خليج القسطنطينية بألف دينار. وكان من نتيجة الاتصال بين العرب والروم البيزنطيين في إقليم الثغور على الحدود الشمالية للشام أن انتشرت بين العرب هواية اللعب بالحمام ، وهي هواية سرعان ما تفشت حتى أنها اجتذبت عدداً من الخلفاء العباسين ، ثم بعد ذلك انتشرت هواية اللعب بالحمام في جميع الأقطار الإسلامية ابتداءً من القرن الثامن الميلادي.

ولكن الفاطميين تجاوزوا العباسيين باهتمامهم بالحمام الزاجل ، فقد وضعوا له ديوانا خاصاً كما ذكر القلقشندى في كتابه "صبح الأعشى" ، وجاء في كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري والذي يشتمل على فصل واسع عن مراكز الحمام في مصر ، أن أصل أفضل الحمام الزاجل المعروف في مصر من مدينة الموصل العراقية ، ويضيف أن الخلفاء الفاطميين في مصر بالغوا في الاهتمام بهذا اللون من الحمام حتى أنهم أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام ، وكان لكل خليفة مسئول خبير في شؤون الحمام يُدعى "صاحب الحمام" يعد من كبار مسئولي الدولة.

يذكر القلقشندى في صبح الأعشى عن المقر الشهابي بن فضل الله في " التعريف " أن الحمام أول ما نشأ في الموصل ، وأن أول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل السلطان نور الدين بن زنكي سنة (٥٦٥هـ)، حيث نظمت في عهده أول خطوط سير حمام الزاجل على نسق البريد الاعتيادي بنوع مستوفي النظام من مراكز ومستخدمين ، وأعد له مطارات (محطات) ذات أبراج في كل ١٣ ميلاً (٢١كم تقريبًا). وكان حارس كل مركز حال وصول الحمامة إلى البرج يقيد ساعة وصولها إليه وذهابها على ظهر الرسالة التي تحملها الحمامة.

ومن ضمن إتقان هذا البريد ؛ أنه كان لكل حمامة علامات تُعرف بها تشبيهاً برسل البريد البري ، وهذه العلامات من نقش لطيف (وهو أسم السلطان) على منقار الحمامة (ورقمها) على ساقيها ، وكان فك الرسائل من عنق الحمامة مفوضا إلى رئيس الحرس دون غيره ، وكان الحراس يراقبون الجو على الدوام بالتناوب ليلا ونهارا خوفا من أن يمر عليهم الحمام وهم غافلون. وكان لا يستخدم للرسائل السلطانية إلا الحمام الأزرق اللون ، كما كان هناك البريد المباشر السريع الذي لا يتوقف بالمطارات الفرعية ، وكان ذلك بين عاصمة الدولة وعواصم الولايات ؛ فإذا أراد السلطان مثلاً أن يبعث رسالة من القاهرة إلى

دمشق ، أطلق من أبراجه حمامة من حمام دمشق فتصل إليها الرسالة دون توقف.

وكانت مراكز الحمام التي رتبها السلطان نور الدين تتكون من خطوط ثانوية تتفرع عن الخطوط الرئيسية وأهمها: خط القاهرة .دمشق عن طريق غزة والقدس ، غزة - كرك على البحر الميت ، دمشق — بعلبك ، حلب — الرحبة على نهر الفرات ، برثة — قيسرية ، دمشق — برثة على نهر الفرات ، القاهرة — صفين ، القاهرة — دمياط ، الإسكندرية — القاهرة.

وكان في محطات هذه الخطوط نحو سبعة آلاف حمامة ، وفي كل محطة عدد كاف من الحمام حتى ترسل الرسائل إلى المحطة التالية في حال وصولها وهكذا حتى تصل إلى المحل المقصود ، بحيث يكون سفر الحمامة بين محطتين فقط ، وكان في كل محطة عدد من المستخدمين لمناظرة الحمام وخدمته ، ونقل الرسائل من حمام لآخر ، وتوزيع الحمام في محل اللزوم عند تكاثره في المحطة وغير ذلك. وكانت له إدارة عامة يرأسها رجل من كبار الحكومة ، وقيل أن محطة القاهرة كانت لا تخلو على الدوام من ألفي حمامة.

وقد ابتكر الفاطميين وسائل للتغلب على إمكانية وقوع الحمام الذي يحمل الرسائل بأيدي العدو ، فاستحدثوا رسائل مرموزه لا يستطيع العدو التوصل لمعناها ، كما استحدثوا من أجل الحمام ورق خاص خفيف وصغير الحجم يكتب عليه ويلصق تحت جناح الحمامة. قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (٦٢٠هـ - ٦٩٢هـ) في كتابه "تمائم الحمام": "كان الجاري به العادة أنها لا تحمل البطاقة إلا في جناحها لأمور منها حفظها من المطر ولقوة الجناح والواجب أنه إذا انطلق من مصر لا يطلق إلا من أمكنة معلومة ، فإذا سرحت إلى الإسكندرية فلا تسرح إلا من منية عقبة بالجيزة وإلى الشرقية. فمن مسجد التين ظاهرة القاهرة وإلى دمياط فمن بيسوس بشط بحر منجي ، والذي استقرت قواعد الملك عليه أن طائر البطاقة لا يلهو المالك عنه ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة فيفوت مهمات لا تستدرك ، أما من واصل وإما من هارب وإما من متجدد في الثغور. ولا يقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة أحد فإن كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ ، وإن كان نائماً لا يمهل حتى يستيقظ بل ينبه. وينبغي أن يكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك".

الواقع أن ؛ الإسكندرية والقاهرة أيام الفاطميين ارتبطتا بمدن بلاد الشام حتى حلب بشبكة من الأبراج في حلب وحمص وحماة والشام والقدس إلى غزة ورشيد والإسكندرية والقاهرة. وكانت الطريقة المتبعة هي مثلاً أن يُربى الحمام في مدينة ما مثل دمشق وتبنى له بروج السكن والتفريخ ثم تنقل تلك الطيور إلى القدس مثلاً وتحتجز في أماكن مخصصة ومصنفة. ولإرسال رسالة عاجلة ما ، فإنها كانت تربط برجل الحمامة ويطلق سراحها فتعود إلى دمشق موقعها الأصلي.. وهكذا. وكانت الرسالة تستغرق حوالي يومين من الشام إلى القاهرة ، وتنقل الرسالة من قِبل أربع حمامات في ذلك الطريق.

لقد استخدم الحمام الزاجل في توصيل الأخبار بين الأصقاع النائية ، فكان بمثابة وكالات الأنباء في الحروب الطاحنة بين القرامطة ومركز الخلافة الإسلامية ، حيث كان الحمام يقطع آلاف الأميال يوميا باتجاهات مختلفة في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ، ساعده في ذلك سلسلة من الأبراج مجهزة لاستقباله أو استبداله ، يبعد الواحد منها عن الآخر حوالي خمسين ميلا. وكانت القوافل الكبيرة تحمل معها أقفاص الحمام ترسل بواسطتها رسائل إلى مراكزها في كل مرحلة من رحلتها لكي ترشد القوافل الصغيرة التي تسير على نفس الدرب ، أو لكي تبلغ مراكزها بتعرضها لخطر ما فتطلب النجدة من اقرب مركز عبرته ، أو أنها تخبر المراكز التي تنوى الوصول إليها بمواعيد وصولها ونوع بضاعتها وأثمانها ومالكيها ، ولكي يستقبلها التجار المعنيون بالأمر.

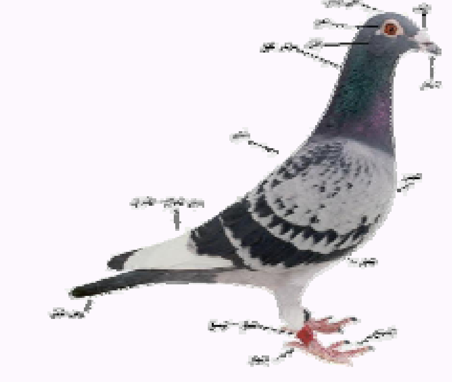
وفي القرن العاشر الميلادي ؛ لجأت الشيعة إلى استعمال حمام الزاجل في المراسلات ، كما استعان به أيضاً زعيم القرامطة في العراق ، وابن حوشب في اليمن ، وأبو عبد الله الشيعي في المغرب.

وفي فترة الحروب الصليبية ؛ كان من جملة ما أخذه الصليبيون عن المسلمين أثناء الحروب الصليبية ونقلوه إلى أوروبا كيفية تدريب الحمام الزاجل واستخدامه في نقل المعلومات العسكرية ، فيذكر السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" أن الإفرنج فطنوا إلى هذا السلاح الجديد "الحمام الزاجل" وذلك عندما تفاجئوا بسقوط حمامة بانقضاض طائر جارح عليها ، فعلموا من الرسالة التي كانت تحملها استعمال العرب للحمام في نقل الرسائل.

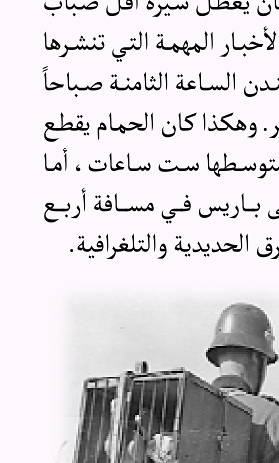
الجدير بالذكر ؛ أن الأيوبيين استخدموا الحمام الزاجل للاتصال بالمسلمين أثناء حصار الصليبيين لهم براً وبحراً في مدينة عكا لمدة عامين كاملين (١١٨٩- ١١٩١) ، حيث حمل الحمام رسائل شديدة الأهمية إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وفي عهد المماليك ازدهر البريد وبلغ ذروته لاسيما زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، حيث ذكر ابن عبد الظاهر أن عدد الحمام المستعمل للرسائل بلغ في آخر جمادي الآخرة من سنة (٦٨٧هـ /١٢٨٩م) ألفا وتسعمائة طائر ، وكان بالقلعة في مصر عدة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم ، وكانت الطيور المذكورة لا تبرح في الأبراج بالقلعة ما عدا طائفة منها فإنها في برج بالبرقية خارج القاهرة يعرف ببرج الفيوم رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل إستادار الملك الكامل محمد بن الملك العادل بن بكر بن أيوب ، وكانت البطائق ترد إليه من الفيوم ويبعثها من القاهرة إلى الفيوم من هذا البرج.

ذكر أحد الرحالة الإنجليز في القرن السابع عشر أن سماء سورية خلت من الحمام لوقت ما في أواخر ذلك القرن ، والسبب في ذلك أن حمامة وقعت في شباك صياد أثناء طيرانها بين الاسكندرونة وحلب ، ووجد الصياد رسالة مربوطة في رجلها كان قد أرسلها تاجر أوربي إلى وكيله الحلبي يخبره فيها بارتفاع أسعار جوز العفص في الأسواق الأوربية ويطلب منه أن يرسل له كميات كبيرة منه ، فقام الصياد بإرسال الرسالة إلى تاجر سوري محلى عمل على شراء كمية كبيرة من الجوز وأرسلها إلى أوربا وحصل منها مبلغاً كبيراً من المال ، حيث كانت لندن وبرلين تصنع من جوز العفص الأصباغ. وعندما شاع الخبر عمد الصيادون إلى اصطياد أعداد كبيرة من الحمام لعلهم يحصلون على غنائم مماثلة.



وفي سنة ١٨٤٠ رتبت شركة هافاس في باريس التراسل بالحمام بين لندن وبروكسل وباريس ، وقد صادف ذلك نجاحاً عظيماً لأنه لم يكن حينئذ سوى باب واحد للمواصلات على وجه السرعة وهو التلغراف الهوائي (على طريقة ساب) الذي كان يعطل سيره أقل ضباب يحدث في الجو ، فبواسطة الحمام كانت الأخبار المهمة التي تنشرها الجرائد البريطانية في الصباح تنقل من لندن الساعة الثامنة صباحاً فتصل إلى باريس الساعة الثانية بعد الظهر. وهكذا كان الحمام يقطع في السفر بين هاتين العاصمتين مسافة متوسطها ست ساعات ، أما أخبار بروكسل فكان يوصلها الحمام إلى باريس في مسافة أربع ساعات ، وبقي هذا الترتيب حتى امتداد الطرق الحديدية والتلغرافية.



وتؤكد الوثائق التاريخية أنه في أثناء الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ - ١٨٧١) ، وعندما تم حصار باريس لعدة أشهر قام الحمام الزاجل بنقل ما يقرب من ١٥٠ ألف رسالة. من داخل المدينة المحاصرة ، ولما فطن الألمان إلى ذلك حاولوا استخدام صقور دُربت على قتل الحمام أثناء تحليقه. وفي عام ١٨٧٨ أنشأ الجيش الأميركي سلاح الإشارة الزاجلي أسوة بنفس السلاح في الجيش الألماني ، ووصل عدد الجنود الأمريكان الذين خدموا في هذا السلاح نحو ثلاثة آلاف صف وعسكري وحوالي ٥٠ ضابطاً.

وقد استخدمت دول الحلفاء زمن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) نحو مائة ألف حمامة موزعة على جيش البر والبحر والطيارات ، وكان معظم ذلك الحمام في خدمة (قلم الاستعلامات) ، وكان بعض الحمام يطير إلى الأقاليم الفرنسية والبلجيكية التي أحتلها الألمان فتلقي رسائل التشجيع والصبر. وقد وقعت عدة رسائل من هذا القبيل في يد الألمان ، وكثيراً ما كانت الدبابات نفسها تحمل أسراب الحمام وتستخدمها في نقل الرسائل في خطوط النار ، وقد لوحظ أن دخان النار ورائحة البنزين والروائح الشبيهة بها كانت تؤثر في الحمام تأثيراً سيئاً يستمر بضع دقائق ثم يزول.

وقد اشتركت في الحرب العالمية الأولى قوة مجنحة مستقلة عن الطائرات مع جنود الحلفاء للدفاع عن بريطانيا ، التي كانت تحتفظ بألوف من الحمام المدرب في مدارس خاصة أنشأت لتعليم تلك الطيور الشديدة الذكاء وإعدادها للمهمة. وكانت البحرية البريطانية قدرت نفع حمام الزاجل حق قدره إذ أنشأت دائرة حكومية تولت استخدام ذلك الحمام لنقل الأخبار من لاقطات الألغام التي لم تكن مجهزة باللاسلكي ، وقد جُمعت مئات من الحمام التي دربت لتلك الغاية خاصةً من الهواة في جميع أرجاء البلاد ونصبت لأجلها البروج الخاصة في المراكز الحربية ، ثم اتسع نطاق استخدام الحمام حتى شمل السلاح البحري الجوي فزودت جميع الطائرات البحرية بطوائف من ذلك الحمام فكان سبباً لإنقاذ كثيرين من قادتها الذين اضطرتهم الحرب إلى الهبوط في البحر على أميال من الشاطئ ، إذ دلت على مواضعهم تلك الرسائل المجنحة.

وتظهر سجلات الحرب شتى الخدمات الحربية المجيدة التي أداها هذا الحمام حتى أطلق على حمامة منه أسم (خط قادة الطائرات) وذلك لكثرة من أنقذتهم منهم ، لقد حمل الحمام الرسائل وطار فوق ميادين القتال ، وكثيراً ما كان يصاب في أثناء طيرانه برصاص الأعداء فلا يمنعه ذلك من مواصلة الطيران حتى يصل إلى المعسكر الذي يقصده ويسلم الرسالة التي يحملها ثم يسقط ميتا. ومن هذه الحمامات التي ذاع أمرها زمن الحرب حمامة تدعى شيرامي Cher Ami وقد أدت خدمات جليلة في عدة معارك ، وفي المرة الأخيرة التي طارت فيها هذه الحمامة وجه إليها الألمان ناراً حامية إلا أنها نجت حاملة رسالة خطيرة من فصيلة من الجنود الأمريكان كانت في حالة يأس شديد بسبب نيران الألمان ، وكانت نتيجة الرسالة أن نجت تلك الفصيلة من المأزق الذي كانت فيه ، إلا أن الحمامة نفسها كانت قد أصيبت بنيران الأعداء فسقطت وماتت بعد قليل من وصولها فاحتفل الفرنسيون بدفنها احتفالاً حاشداً.



وقد أثبتت الإحصاءات التي نشرت أن استخدام الحمام الزاجل خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) قد نجح بنسبة ٩٩% وقد عرفت مصر الاهتمام بالحمام الزاجل منذ منتصف الأربعينيات حين قام عثمان باشا رامز - أحد أعيان مصر وقتها - بشراء أعداد كبيرة من الحمام الزاجل التي كان يقوم بتربيتها أحد الهواة الإنجليز أثناء وجوده في مصر ، وكون في عام ١٩٤٥ ما عرف باسم «الجمعية المصرية للحمام الزاجل» ولهذه السلالة أهمية تاريخية ، حيث يقال إنه عندما أراد سلاح الإشارة للقوات البريطانية التي كانت تتمركز في مصر بمعسكرات منطقة المعادي أثناء الحرب العالمية الثانية إيجاد وسيلة اتصال في نقل الرسائل بين دورياته التي كانت تجوب الصحراء الغربية إلى مقر قيادتها في مصر مع إحاطتها بالحماية من الوقوع في يد المخابرات الألمانية ، وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا إذا ما أرسلت هذه الرسائل بالراديو ، لذلك لم يكن لدى الإنجليز حل سوى الحمام الزاجل لتنفيذ هذه المهمة.





ولكن نظرا لعدم وجود الوقت الكافي لاستيراد الحمام من بريطانيا وإعداده للخدمة في مصر ، فقد اتصل قادة سلاح الإشارة البريطاني بعثمان رامز لشراء ما لديه من حمام زاجل بعد أن تأكدوا من جودة السلالات التي بحوزته ، إلا أن عثمان رامز فضل إهداء كل ما لديه من حمام للجيش الانجليزي كهدية رمزية من الهواة المصريين. وعندما قرر سلاح الإشارة البريطاني التخلص من حمامه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، رأى أن يرد لعثمان رامز هذا الجميل فوضع تحت تصرفه كل ما في معسكره بالمعادي من حمام زاجل ليختار منه ما يشاء ، ومرة أخرى أهدى عثمان رامز كل ما لديه من حمام الجيش الانجليزي إلى جمعية الحمام الزاجل المصرية ، التي باعته بدورها لحسابها في مزاد علني اشترى منه الهواة المصريون هذه الكمية.

وتعود خدمة البريد بالحمام الزاجل في الهند للعام ١٩٤٦م قبل عام من استقلالها عن بريطانيا واستخدم الجيش الهندي الزاجل أثناء الحرب العالمية الثانية وعندما وضعت أوزارها تم تسليم أسرابه إلى الشرطة. ويذكر أن الجنود أثناء الحرب كانوا يخفون الحمام تحت المعاطف مما ساعدهم على نقل رسائل هامة تتعلق بمواقع المدافع الألمانية على شاطئ نورماندي. كما استخدم الجيش الاسترالي الحمام الزاجل على نطاق واسع في الحرب العالمية الثانية في غينيا الجديدة والجزر المحيطة بها ، فقد كانت التضاريس الوعرة والأجواء غير الطبيعية سبباً في فشل الاتصالات اللاسلكية. وعند هجوم الألمان على بلجيكا اصطحب المظليون الحمام خلف خطوط جيوش الحلفاء ، ثم أطلقوه بعد ذلك مع رسائل عن نتائج عمليات التجسس التي نجحوا في الحصول عليها.



وقد كشفت وثائق تاريخية بريطانية تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية ، كيف أن الحكومة البريطانية فكرت في استخدام الحمام الزاجل لنقل أسلحة بيولوجية إلى خلف صفوف العدو ، ونشرها على مسافة تصل إلى ٢٠٠ ميل من مواقعها الأصلية ، وكان الكوماندر وليم راينر رئيس قسم وحدة الحمام الزاجل في وزارة الطيران قد أعد الخطة التي تقضي بوضع حاويات صغيرة في طائرة حربية يمكن أن تحلق على ارتفاع عالٍ فوق أراضي العدو لإلقاء الحاويات التي تفتح أبوابها تلقائياً ، لينطلق الحمام المزود بعلب المواد البيولوجية القاتلة إلى أهدافه. وقال راينر في خطته التي وضعت عام ١٩٤٥: "يمكننا الآن تدريب الحمام ليحط على أي شيء على الأرض ، وان ألف حمامة تحمل كل منها كبسولة من المتفجرات تهبط على أوقات زمنية على هدف محدد ستكون مفاجأة غير ظريفة على الإطلاق. لكن جهاز الاستخبارات الداخلية رأى أن الفكرة مجنونة ، وأن صاحبها مهووس بهذا السلاح العجيب ، وفي عام ١٩٤٨ أعلن جيش المملكة المتحدة أن الحمام الزاجل لم يعد له استخدام بعد الآن.

أما الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) فقد كانت المرة الأخيرة التي يستخدم فيه الحمام لأغراض المعارك والقتال ، حيث حافظ مقر كل فيلق على حمامة بالدور علوي للمقر ، كما أجريت اختبارات للحمام على حمل الرسائل ، ويذكر أنه خلال هذه الحرب أستخدم الآلاف من الحمام الزاجل مع الهابطين بالمظلات لتوصيل ما يزيد عن مائة ألف رسالة ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحمام نادراً ما استخدم في الاتصالات التكتيكية أثناء هذه الحرب.

ونظراً لتقدم تكنولوجيا الاتصالات في أمريكا بعد انتهاء الحرب ، أعلن عام ١٩٥٧ أن خدمات الحمام الزاجل عفا عليها الزمن وأصبحت مستحيلة ، لذا بيعت معظم الطيور في زاد علني وتم التبرع بجزء لحدائق الحيوان في أنحاء البلاد. وبعد وفاة العديد من هذه الطيور تم إعادتها مرة أخرى للجيش ، حيث وضعت في المتاحف العسكرية وفاءً لإنجازاتها وإنقاذها لحياة الكثيرين.



وصفوة القول ؛ أن البريد بشكله الحديث وما لحق به من تطور وسرعة مذهلة في إيصال الرسائل براً وجواً وحتى عن طريق البريد الإلكتروني ما هو إلا امتدادا لدور الحمام الزاجل في نقل الرسائل ، وهو دور لا يغفله أي دارس أو متتبع لمسيرة البريد ومراحل تطوره. وحقاً الحمام الزاجل هو أول وكالة أنباء في التاريخ ، وأول ساعي بريد في التاريخ ، وأول خدمة بريد جوي في العالم ، وأول مذيع للأحداث الرياضية ، والبطل المجهول في المعارك العسكرية ، وهو رسول فوق العادة ، أدى خدمة توصيل الرسائل والمعلومات بجدارة في ساحات المعارك وأثناء القتال ، وكان أول رسول للعشاق ، حمل على جناحه رسائل الشوق والغرام.

وقد ظل أثر الحمام وتاريخه في حمل الرسائل وتوصيلها حياً في نفوس الناس ولا أدل على ذلك من قول أحدهم وأنت تؤكد عليه سرعة إبلاغ الرسالة فيقول لك: حمامة!





المصادر

١. الحميري (أبو عبد الله محمد بن محمد المتوفى سنة ٩٠٠)، الروض المعطار في خبر الأقطار/ تحقيق إحسان عباس.- الطبعة الثانية.- بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠.

٢. السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ٨٤٩ - ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرفية، القاهرة ١٣٢٧هـ

المقالات

١. ابتسام علي ناصر، مقال بعنوان " الحمام الزاجل.. تأريخ وأسرار اكتشفها العرب واحتضنها الغرب "، نبأ نيوز (آراء ودراسات)، منشور بتاريخ ١٧ فبراير ٢٠٠٧، على الرابط: (http://www.nabanews.net/2009/7657.html)

٢. ابتسام علي ناصر، مقال بعنوان "الحمام الزاجل"، الصوت الآخر: مجلة أسبوعية سياسية ثقافية عامة، العدد (٤٣)متاح بتاريخ ٢٠٠٥/٤/١٨، على الرابط: (http://www.sotakhr.com)

٣. أحمد شوقي آل رشي، البريد، المركز الوطني للتوثيق، متاح بتاريخ ٣١ أكتوبر ٢٠٠٨، على الرابط: (http://doc.abhatoo.net.ma/IMG/doc/31_oct_8.doc)

٤. أشرف محمد مجاهد، تاريخ البريد الجوي المصري، مدونة حوارات بريدية، متاح بتاريخ ٢٤ مارس ٢٠٠٨، على الرابط (http://ashrafmojahed.maktoobblog.com)

٥. توفيق الغوينم، مقال بعنوان "البريد عند العرب"، جريدة الرياض، عدد الجمعة ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ - ١٧ يونيو ٢٠٠٥م - العدد ١٣٥٠٧

٦. جريدة الشرق الأوسط، مقال بعنوان "الحمام الزاجل رسول فوق العادة"، متاح بتاريخ ٢٨ يوليو ٢٠٠٦ العدد ١٠١٠٤، على الرابط: (http://www.aawsat.com)

٧. حميد، مقال بعنوان "الحمام أول وكالة أنباء في التاريخ"، ملتقى الأدباء والمبدعين العرب، متاح بتاريخ ٢٤ مايو ٢٠٠٨، على الرابط: (http://www.almolltaqa.com)

٨. بهيج عمار(دكتور)، مقال بعنوان "الحمام الزاجل واستعمالاته في المراسلات بالمشرق العربي"، البيطرة العربية، متاح بتاريخ ٢٠٠٥/٤/١٦، على الرابط: (http://www.arabvet.com)

٩. عادل صبحي، مقال بعنوان "طائر الحرب والسلام"، موقع كلمات، متاح بتاريخ ٣٠مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.kl28.com/books/showbook.php)

١٠. عادل محمد علي الشيخ حسين، حمام الزاجل ؛ قديماً وحديثاً.- الطبعة الأولى.- عمان: دار الضياء، ٢٠٠١.

١١. عدنان غمدان الدقيمي، مقال بعنوان"الحمام الزاجل .. سيد الطيور وأنفعها في الحرب والسلم"، منشور في الجمهورية "يومية . سياسية . جامعة"، متاح بتاريخ الثلاثاء ٢٩ مايو ٢٠٠٧، على الرابط (http://www.algomhoriah.net)

١٢. عزيز باكوش، مقال بعنوان "تاريخ الحمام من التدجين إلى السباق"، الحوار المتمدن، العدد (١٥٧٤)، متاح بتاريخ ٢٠٠٦/٦/٧، على الرابط: (http://www.ahewar.org)

١٣. علي حمود الحسن، مقال بعنوان "الحمام الزاجل أول بريد ووكالة أنباء في التاريخ"، جريدة الصباح : سياسية يومية تصدر عن شبكة الإعلام العراقي، متاح بتاريخ ١٢ مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.alsabaah.com)

١٤. ماهر فرخ، دراسة بعنوان "ديوان البريد المملوكي في بلاد الشام (٦٥٩هـ - ٨٠٣هـ/ ١٢٦١م – ١٤٠١م)"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ١٠٠، الكويت ٢٠٠٧.

١٥. مجلة أمواج إسكندرية، مقال بعنوان " الحمام الزاجل..أول ساعي بريد في التاريخ"، العدد (٩) ٢٠٠١، على الرابط: (http://www.amwague.com)

١٦. مجلة كلمات، مقال بعنوان "الحمام الزاجل عبر التاريخ"، متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (www.alkalemat.com)

١٧. محمد راتب النابلسي، ندوات الإعجاز العلمي: الندوة ٢٢ / ٣٠ (الحمام الزاجل)، متاح بتاريخ٢٥ مارس ٢٠٠٩، على الرابط: www.nabulsi.com/text/10nadwat/913-all/nad-) (elem22.doc

١٨. فيصل خالد، مقال بعنوان "سباق الحمام الزاجل .. هواية جديدة يكتشفها القطريون"، باب (BAB)، متاح بتاريخ أول مايو٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.bab.com/articles/full_article.cfm?id=5928)

١٩. خلدون الحسيني، مقال بعنوان" الحمام الزاجل يربط الشمال بالجنوب من زاخو إلى الفاو"، جريدة بدر: يومية - سياسية - عامة، متاح بتاريخ ٦ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.badrtoday.com/archif/1235/7.htm)

٢٠. عزة بدر(دكتور)، مقال بعنوان "الحمام أول رسول للعشاق قبل المحمول"، مجلة عيون المستقبل: تصدر عن جمعية رعاية أطفال السجينات، متاح بتاريخ أول فبراير٢٠٠٨، على الرابط: (http://eyoun.org/index.php?mod=article&cat=c4&article=193)

المراجع العربية

١. أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس.- طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤.

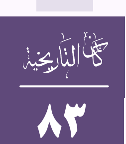
٢. ول ديورانت، قصة الحضارة(حياة اليونان/ العصر الذهبي/ العمل والثروة في أثينا/ التجارة والمال)، صفحة ٢١٢١. (نسخة إلكترونية)

٣. يوسف أحمد الشيراوي، الاتصالات والمواصلات في الحضارة الإسلامية.- الطبعة الأولى.- قبرص: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٢.

٤. عادل محمد الشيخ، حمام الزاجل: قديماً وحديثاً.- الطبعة الأولى.- عمان: دار الضياء ٢٠٠١.

المقالات والمراجع الأجنبية

1. Donald W. Boose, Duncan Anderson, US Army forces in the Korean War(1950-53), osprey publishing, united kingdom 2005.
2. Joe Razes, Pigeons of war, America in WWII magazine: August 2007 issue (www.americainwwii.com)
3. Lawless, Jill. The Associated Press. "Auction Focuses on Pigeon Warriors: Memories of elite WWII animal force included in offerings." January 6, 2008.
4. Osman, Lt. Col. A.H., Pigeons in the Great War: A Complete History of the Carrier Pigeon Service during the Great War, 1914 to 1918 (London, 1928)
5. Reese, Becca "The Flight of the Carrier Pigeon", EzineArticles.comm available in 30 May. 2008 at: (http://ezinearticles.com/?The-Flight-of-the-Carrier-Pigeon&id=1213330)







د.عبد العزيز غوردو
باحث وكاتب
دكتوراه في الآداب تخصص: تاريخ الإسلام والحضارة
المملكة المغربية
ghourdou.abdelaziz@voila.fr

افتراس اللحوم الآدمية

زيارة إلى التاريخ المقارن

وجدة: منشورات جسور ، ٢٠٠٤. (١٣٩صفحة)

الجزء الأول

التاريخ هيكل عظيم وضع الإنسان الأول حجره الأساس، وساهم كل إنسان في إنجاز وتشكيل جزء منه، وعلينا نحن مواصلة البناء وإتمامه (معروف أن الإتمام غير الكمال). خلف لنا أسلافنا، فضلا عن الجزء المنجز حتى الآن، مواد البناء وأدواته التي علينا تطويرها، لكنهم خلفوا أيضا ـ وكما هو الحال عند كل بناء ـ ركاما هائلا من النفايات (المادية والمعنوية) علينا التخلص منها.



عن الافتراس الآدمي

- "وحده افتراس الآدمي يوحدنا ، اجتماعيا ، واقتصاديا ، وفلسفيا." Oswald Andrade
- "في عيون الفيلسوف ، الجريمة ليست أكل الآدمي ، ولكن قتله." Paul Brocca
- "افتراس الآدمي هو أكثر مظاهر الحنان تجليا." Salvador Dali
- "الإنسان طيب ، قال روسو ، إذن فلنأكله." Paul Léautaud

مقدمة

ثمة تنصيب جديد في هذه الدراسة ، يأمل أن يساهم في تحرير التاريخ من قدريته العمياء. قدريته الميكانيكية التي تجعل القارئ البريء يتميز من الغيظ عندما يقدم له المجذفون (أعني هؤلاء المؤرخين العاكفين على تفسير ألغاز التاريخ بالألغاز) خطاطة واحدة ، مكررة ، مبهمة ، مخجلة... يتشابك فيها الاقتصادي بالاجتماعي بالسياسي بالثقافي تشابكا تجزيئيا بليدا أعمى ، يضيفون كل مرة مياها جديدة لطاحونة القرف كيما تزيد من صريرها الناشز ، فيبحثون في التاريخ الإنساني بذهنية لا إنسانية. شيء ما يدور في الذهن ، يردهم دائما إلى مستنقع الرمال المتحركة لنفس العوامل إياها (اقتصادية/اجتماعية/ثقافية...) وكأنها قدرية محتومة ، رغم زعمها اللاّ قدري ، تخونهم في النهاية لكونها لا تتجرأ على اختراق هذه الآلية الاستسلامية ، فتعود إلى الإنسان ، ذي الأبعاد المركبة. صحيح يفعل فيه "الخارج" باقتصاده واجتماعه وثقافته... لكن "الداخل" أيضا يحركه ، لأنه إنسان.

لكل هذا ينبغي نزع الثقة عن هؤلاء المجذفين ، والبحث عن "الرموز" الفاعلة الرائدة عند الشروع في التأسيس لهذا الهيكل ، على أنقاض هياكلهم الورقية الخائبة البلهاء ، تلك التي ينبغي تقويضها بقوة وبلا رحمة ، قبل إعادة التأسيس (ثم التأثيث) بحجم حقيقي متين. ولأن التاريخ هو تاريخ الإنسان ، بغرائزه الخفية ، وتناقضاته المفرحة - المحزنة ، ووعيه المتقلب الخؤون ، فضلا عن إطاره الاجتماعي العام بتفاهاته اليومية العنيدة وروتينه العابر المكبل... لأن التاريخ هو كل هذا ، وجب إذن استحضاره كله عند التفكير في إعادة بناء هذا الهيكل ، حتى يستجمع التاريخ قوته ، أقصد وعيه وانسجامه ، فيستعيد بالتالي غايته.

لكن من منا كان مستعدا للتخلي عن دينه وديدنه الجارف ، عن هيكله المبني الناجز ، ويخوض في مغامرة تأسيسية جديدة غير مضمونة ؟ من منا كان مستعدا للتسليم بما نصّبناه أصناما وأزلاما: الأسباب العميقة ، العوامل غير المباشرة ، البنية التحتية المحركة...؟ الأساليب والعبارات الجذابة التي ما ينبغي على كل مؤرخ "محترف" عاقل ، عارف بأصول مهنته ، أن يخلط بينها وبين السطحي ، والمزيف ، والعابر ، أي التافه. لكننا كنا نشرد بالذهن بعيدا ، وغالبا ، عن التاريخ الحي النابض. نبدأ بالتساؤل: "ما الذي حصل بالضبط ؟" ثم نحلق بأجنحة متكسرة واهية حول أسبابنا العميقة التي لها هذه

القدرة السحرية على تفسير كل شيء، لكننا نكتشف في النهاية تعاستنا، عندما نستفيق مذعورين، بعد كل الجهد والمكابدة، بعد اللأي والمعاناة...، إلى أننا انتهينا إلى حيث ابتدأنا، فنتساءل في حيرة ودهشة: "لكن ما الذي حصل بالضبط؟"

هل على الباحث في التاريخ إذن، أن يستدعي دائما، بأسلوب منمط محنط، قد يتجمل ببعض الجمل البلاغية واللغة المحذلكة، هذه العوامل (الاقتصادية/الاجتماعية/السياسية...) العميقة والتحتية لتحليل وقائعه، حتى يريح ويستريح؟.. ألا يمكن أن نحاكم هذا الموروث، الذي يعمي عن الحق من خلال مسلماته التي لم تترسخ في "الذهنية التاريخية" إلا بكثرة التواتر والاجترار؟.. ألم يحن الوقت بعد لحظة الصدمة/الاختراق، التي حصلت على بقية العلوم، حتى تحدث في مجال التاريخ بغية تثويره؟.. هل لنا أن نركن، ونكتفي، بالتبويب المنصّب سلطانا على سببية تاريخية مزعومة، تستجدي استجلاء الغموض على بعض الوقائع، فلا تزيد على سحب الغموض على الباقي؟ هذه السببية الروتينية (الاقتصادية/الاجتماعية/السياسية...) المقنّعة المفضوحة، إن كانت سببا فعليا لشيء، فإنما لنفور القارئ/الباحث من تصورات تاريخية غير مستساغة، وقد آن الأوان لتأخذ حجمها الحقيقي ضمن "الجينوم" التاريخي.

أكيد أن الخطوة الأولى للطفل - وهو يتعلم المشي - تكون غير ناجزة تماما، لكنها مع ذلك خطوة أولى في طريق الألف ميل، تماما كالخطوة الحذرة هنا، ليس لأن المنهج المقترح مستحدث فقط [١]، لكن لأن موضوع افتراس الآدمي أيضا ليس ناجزا فعلا. فهو موضوع مقرف، نما كالطحالب العفنة على ضفاف مستنقعات الأزمنة الرديئة الآسنة، فانزوى منسيا في هامش الذاكرات الجماعية.

لكن ليس من قبيل الاستحالة على الممارسة التاريخية الحذرة، أن تكشف "العلاقة السرية" المقنّعة التي تربط الواقعة بأسبابها من خلال تضييق الخناق على المنزوي في الذاكرة، على المعتم في "النص"، عبر المساءلة والاستنطاق، خاصة إذا كان النص منكبا على "المنسي" أو "المغيب". عرضا أو غرضا. في هذه المساءلة.

قطعا لا يمكن لموضوع يرد، غالبا، مندسا خجولا في "النص" (في سطر أو عبارة) أن يوفر ثراء نوعيا للمادة الخام المفترض تشكيلها، لذا ركزنا داخل "النص" على "غير المسطور" فيه، وقراءته قراءة مختلفة، نتمنى أن توصل بقراءات غيرها، متممة أو مراجعة لها، بغية تحقيق تراكم كمي نوعي على الموضوع ومنهجه المقترح. أما اختيار "التاريخ المقارن" فهو اختيار مؤسس له منهجيا، كما سيلاحظ القارئ، فضلا عن كونه يسد - نسبيا - ثلمة المادة المعرفية الشحيحة، غير أن المغامرة فيه - كما يعرف كل من امتهن التاريخ - مضنية وشاقة.

نقدم في هذه الدراسة ثلاثة نماذج لرموز السلطة الدافعة لولادة الحدث - والحدث هنا هو فعل الافتراس:

رمز يبدو جوّاني المنزع، ينبع من الداخل، من المشاعر والنفسانيات، ولو ظاهريا على الأقل، ونعني به رمز "اللذة". والرمز الثاني منزعه الخارج البراني، ولو ظاهريا أيضا، يبدو أكثر التصاقا بالمجتمع والثقافة، وهو رمز "الثأر". أما الرمز الثالث فموضوعي فيزيقي محض، هو رمز "الجوع".

هذا لا يعني أن الرموز الدافعة "للافتراس الآدمي" ثلاثة فقط، لكننا أردنا أن نعرض لثلاثة نماذج متباينة، عينة لموضوع الدراسة، على أن نترك بابها مشرعا لمن رام الكشف عن رموز جديدة لذات الموضوع.

الفصل الأول: رصد المفاهيم



- حول التاريخ المقارن.
- الكلبونية أو "افتراس اللحوم الآدمية".
- مفهوم افتراس اللحوم الآدمية.

حول التاريخ المقارن

معروف أن المقارنة تمكن من تحديد الشبه والاختلاف بين الأشياء والمواضيع وهي مقدمة رئيسة للتعميم. والمنهج المقارن عموما يعتمد على بحث وتفسير الظواهر الثقافية والاجتماعية والمعرفية انطلاقا من إبراز الأصول المشتركة أو القرابة التكوينية بين الظواهر.

طبق المنهج المقارن بصفة خاصة أوجست كونت في علم الاجتماع ("دروس في الفلسفة الوضعية" ١٨٣٠-١٨٤٢). وفي الفيلولوجيا (فقه اللغة) المقارنة تطور في ألمانيا على يد ياكوب جريم وأوغست فريدريك وأوغست شلايماخر، كما طوره فرديناند دي سوسير في سويسرا، وأعطاه دفعة قوية علماء اللغة الروس: بودوين دي كورتيني وأ. ن. فيسلوفسكي وأ. ك. فوستوكوف وف. ف. فورتانوف وغيرهم...

من أقدم من نبه للمنهج المقارن في مجال التاريخ الفيلسوف ومحلل اللغة الألماني ك. ف. همبولت (١٧٦٧-١٨٣٥) Karl Wilhelm Humbolt خاصة في مؤلفه "حول مهمة المؤرخ" (١٨٢١)، لكنه ظل أسير نظرية كانط الفلسفية رغم أنه كان يميل للمثالية الموضوعية في تحليله للتاريخ الاجتماعي. (ظل يعتقد بأن تاريخ البشرية لا يمكن أن يفهم من وجهة نظر علمية، بل يمكن استبداله بعلم الجمال).

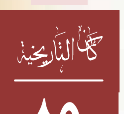
سبق لدوركايم E. Durkheim أن نبه إلى أن التاريخ لا يمكن أن يكون علما إلا عبر التفسير، ولا يمكنه أن يفسر إلا عبر المقارنة. وفي سنة ١٩٠٧ كتب كلوتز G. Glotz بأن المنهج المقارن أتاح للعلوم المختلفة إمكانية تحقيق تقدم شبيه بالمعجزة، فلماذا لا يشمل هذا التقدم مجال التاريخ أيضا؟ بعد ذلك (في المؤتمر العلمي "بأوسلو Oslo" في عشرينيات القرن الماضي) تأسف بلوك M.Bloch على جل المؤرخين لأنهم لم ينتبهوا بعد لفائدة المقارنة في مجال التاريخ، ولأنهم بذلك يستهترون بمستقبل هذا العلم.

وضع التاريخ المقارن في عشرينيات القرن الماضي مصاقبا للتاريخ الوطني الذي نحا خلال الحرب الكونية منحى إثنيا عنصريا يكرس تفوق شعوب على أخرى. وعلى هذا قدم التاريخ المقارن نفسه على أنه نهاية للآلام المترتبة عن التاريخ الوطني، بما أنه يتجاهل الحدود الدولية، فالمؤرخ يعتبر مقارنا إذا كان يتبنى وجهة نظر عالمية.

في سنة ١٩٣٣ قدم شارل سينيوبوس (Ch. Seignobos, Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe, Paris, 1933.) محاولته عن التاريخ المقارن بين الشعوب الأوربية، لكن الطابع الذي غلب عليها كان وصفيا، مما جعلها دون الطموح الذي ينشده التاريخ المقارن.

---

١ - لا نريد في هذا العمل تكرار تفاصيل - بخصوص تفسير الوقائع برموز السلطة - ذكرناها في مكان آخر. (غوردو، التمدين والسلطة، ١٩٩٨ الباب الثالث).



بعد ذلك تعالت موجة المنادين بضرورة إيجاد مكان تحت الشمس للتاريخ المقارن[٢] (P.A. Brunt , H. Metteis, R. Coulborn, R. W.Kaupe. وغيرهم...) إلا أن أشد المنافحين عن هذا النوع من الكتابة التاريخية يظل ، وبامتياز ، مارك بلوك ، من خلال عمله "Rois thaumaturges" سنة ١٩٢٤م ، وكذلك من خلال رسالة كتبها في السنة نفسها لصديقه بير H.Berr حيث ذكر بأن ميوله كلها تجنح نحو التاريخ المقارن. ثم أكد ذلك عندما نشر نصين لمعالجة مفهوم هذا النوع من التاريخ (١٩٢٨ و ١٩٣٠) أعاد فيهما بصياغة متطورة ما كان دوركايم قد قرره منذ مدة طويلة ، حيث ذكر (بلوك) بأن ممارسة التاريخ المقارن تعني البحث من أجل التفسير عبر مقارنة (استخراج نقط الاتفاق ونقط الاختلاف) معطيات لمجموعات اجتماعية متباينة. للحديث عن التاريخ المقارن لا بد إذن من توافر شرطين أساسيين: أولا ، نوع من التماثل والمشابهة بين الظواهر الملاحظة. ثانيا: نوع من التباين والاختلاف بين المجتمعات التي أنتجتها.(Bloch, 1928, 17). هذا المنهج يمكن أن يطبق ، حسب بلوك دائما ، بطريقتين:

- المقارنة بين مجتمعات متباعدة في الزمان والمكان ، بحيث يتعذر تفسير التماثل بوحدة الأصل أو بالتأثير المتبادل.
- مقارنة ، عبر الدراسة المتوازية ، مجتمعات متجاورة متزامنة ، لتقصي ، ولو جزئيا ، الأصل المشترك. (Bloch, 18-19).

إن النتائج التي يمكن الحصول عليها عبر هذا المنهج لا يمكن أن تكون إلا ثرية. إذ فضلا عن الوظيفة الكشفية Heuristique التي تسمح باكتشاف ظواهر لم تكن لتخطر على البال ، لو تمت محاصرة الظاهرة المدروسة في وسط بعينه ، يقدم المنهج قابلية المساعدة على تأويل وتفسير[٣] الظواهر التاريخية ، ومن ثم الحكم عليها ، بكيفية مؤسسة على وقائع من أزمنة أو أمكنة متباينة (أو منهما معا).

رغم ذلك فالواقع أن التاريخ المقارن ما زال يفتقر لمنهجية حقيقية تحدد بدقة أهدافه وصلابته العلمية[٤]. وهو ما يدعو لمزيد من الاجتهاد للدفع "بالمقارنتية" Le comparatisme إلى أبعد الحدود. ونأمل أن يكون هذا العمل خطوة في هذا الاتجاه.

"الكلبونية" أو افتراس اللحوم الآدمية: على سبيل التعريف

Cannibalisme مصدرها "Canis" أي الكلب باللاتينية. كنا نود اقتراح مفهوم "الكلبونية" (من الكلب) للتعبير عن السلوك الذي ننوي معالجته في هذه الدراسة ، إلا أننا ارتأينا استعمال مفهوم "الافتراس الآدمي" للدلالة على كل ما يرتبط بأكل اللحم البشري ، رغم أن ما يقابل هذا المفهوم في لغات أخرى (أوربية) يعتبر أكثر دقة وتخصصا. فما يهمنا ، هنا ، ليس البحث عن ترجمات بديلة ، ولا تدقيق نوعية الافتراس ، بقدر ما نبحث عن "رموز السلطة" التي أدت إليه. على أن ذلك لا يمنع من أن ننبه ، من باب العلم بالشيء ، إلى ما يلي:

Cannibalisme: أكل لحم بشري وفق طقس اجتماعي يوحد المجموعة الاجتماعية ، فهو طقس مدمج ضمن ثقافة المجتمع. (ظاهرة ثقافية)

Anthropophagie : سلوك شاذ عن الثقافة المؤطرة له ، مصدره غالبا انحراف في السلوك السوي ، وقد يرتبط بأعراض مرضية.

ومن هذين الجذرين تم اشتقاق العديد من الاصطلاحات ، منها:

Endocannibalisme (Endophagie) :
أكل لحم بشري من داخل المجموعة الاجتماعية.

Exocannibalisme (Exophagie) :
أكل لحم بشري من خارج المجموعة الاجتماعية.

Autophagie : أكل الإنسان بعضا منه.

Teknophagie: أكل الأطفال حديثي الولادة.

Foetophagie : أكل الأجنة.

Pygophagie : أكل الأرداف.

Pedophagie: أكل الأطفال والمراهقين.

Tanathophagie: أكل جثث الأموات.

Théophagie: طقس يتم خلاله أكل الإله.

Allélophagie:
يتعلق بمجموعة اجتماعية تفترس بعضها بعضا في نفس الآن.

Mini-endocannibalisme:
يتعلق في طقوس معينة ، أكل قطعة اللحم التي تقطع بعد الختان.

مفهوم افتراس اللحوم الآدمية

إذا كان مارك بلوك يقصد "بافتراس اللحوم الآدمية" مركزة البحث التاريخي حول الإنسان[٥]

(M.Bloch, Apologie pour l'histoire ou metier de l'historien, Paris, 1949, 3édit. 1959,pp. 4-5)

فإن ما نعنيه نحن "بافتراس اللحوم الآدمية" هو الافتراس الفعلي/الحقيقي لهذه اللحوم. الافتراس الذي قال عنه فرويد ، ذات يوم ، (Freud, Avenir d'une illusion) بأنه (مع انتهاك المحارم والقتل): من الرغبات الغريزية التي تعمل التربية على كبتها ، لكنها تبقى قاسما مشتركا بين "الحضارة" و"الحالة البدائية الوحشية" ، حتى لو كان هذا القول يثير حفيظة الأنتربولوجي الشهير فريزر (Frazer, Totemism and exogamy,4vol, London, 1910) الذي كان يستهجن أن يكون هناك شبه في بعض الصفات بين المجتمعات الأوربية ومجتمعات آكلي البشر (التي درسها واعتبرها همجية بدائية) ، ذلك أن هذا التشبيه ، في رأيه ، "مقلق وخطير".

---

٢ - من أشهر الدراسات التي أنجزت باعتماد هذا المنهج:
K. A. Wittfogel, Oriental Despotism : A Comparative Study Of Total Power, New Haven, 1957.

٣ - استعمل بلوك فعل Expliquer وكان يود الاستعاضة عنها بكلمة Herméneutique التي تترجم عادة للعربية بالتفسير والتأويل ، لكنها حادة الدلالة في اللغة الفرنسية.

٤ - لمزيد من الاطلاع على التاريخ المقارن (المنهج والمتابعة الكرونولوجية) يمكن الرجوع إلى:
Brève histoire de l'histoire comparée, dans G. Jucquois-Ch, Vielle (Ed), Le comparatisme dans les sciences de l'homme, Approches pluridisciplinaires, Bruxelles, 2000, p.301-327.

٥ - في مقابل لادوري الذي يدعو إلى إقصاء الإنسان عن هذه المركزة وتحجيمه في إطاره الحقيقي داخل التاريخ الطبيعي.
(Le Roy Ladurie, Le territoire de l'historien, Paris, 1977)

في ٤ نوبر ١٤٩٢م كتب كريستوف كولومبس عن هنود الأنتيل بشيء من المبالغة والخيال، عندما سجل بأن بعضهم له عين واحدة وآخر بملامح الكلاب... وأنهم يذبحون الناس ويشربون دماءهم ويقطعون أعضاءهم التناسلية. بعد ذلك (٢٦ نونبر) سماهم "Caniba"، جنود الخان الأكبر Grand Khan الذين يثيرون الرعب في كل ناحية، وحددهم في هنود "الأرواك Arawaks" الذين أثاروا في مخيلته فكرة "Canis" أي الكلب باللاتينية. (وكان الرحالة الإيطالي ماركو بولو Marco Polo قد ذكر شيئا شبيها بهذا في رحلته، وذلك بالمنطقة الممتدة من التبت إلى أندونيسيا).

لم يكن بإمكان كولومبس أن يميز بين الصواب والخطأ من خلال ما سمعه في رحلته الأولى. لكن بعد سنتين من ذلك اكتشف في قرية - من كوادلوبي "Guadeloupéen" - هجرها سكانها دلائل على بقايا افتراس آدمي.

من هنا أصبحت الكلمة Cannibale (والأصل الإسباني Canibal) تعني "الرجل المتوحش"، وفي الإناسة (الأنتروبولوجيا) تعني أكل اللحم البشري ولكن لهدف آخر غير التغذية.

"جون دي ليري Jean de Lery" – مصلح ديني – لاجئ إلى جنيف ومنها إلى البرازيل (مبشرا)، واحد من أقدم من كتبوا عن أكل اللحم البشري. بعد عشرين سنة من إقامته في البرازيل أصدر سنة ١٥٧٨م كتابا شيقا عن الظاهرة لدى قبائل "تيبينامبا Tupinamba"، حيث وصف طقوسها في الافتراس من دون أن يدينها، وأثار بالمناسبة ما كان يجري في القارة العجوز (أوربا) أثناء الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، حيث كان يتم قتل وأكل اللحم البشري بهدف القضاء على الهرطقة.

جون دي ليري Jean de Lery هذا وكغيره من علماء الإناسة (Hans Staden و André Thevet) الذين تطرقوا لظاهرة "الافتراس الآدمي" أكدوا على أن L'Exocannibalisme (أكل آدمي من خارج المجموعة الإثنية)[٦] لا يسمح، تبعا للعادات، بأكل أي كان، في أي وقت كان، أو في أي مكان كان... فالأمر مضبوط بطقوس محددة سلفا، أي أنه مظهر ثقافي لا يدع أي جزئية تنفلت من ضوابط الطقوس. تماما مثل L'Endocannibalisme: (يتعلق الأمر بأكل الأموات من نفس المجموعة الاجتماعية)[٧] المرتبط عادة بالطقوس الجنائزية - المنفعلة بالغيب - داخل المجموعة الإثنية ذاتها، فهو أيضا مقيد بقواعد اجتماعية ثقافية محددة سلفا.

فالغيب عالم لا مرئي، خفي، مسكون بالأرواح، مركز جميع القوى ومصدر جميع الآلام. يجب اتقاء أية حالة وفاة، لأن تحرر روح مشردة، لا يعرف بالضبط نواياها، قد يؤدي إلى الأسوأ. لذا فالافتراس الآدمي أداة وقائية: لأنه للقضاء على الروح ينبغي أكل الجسد.

كتب بيير كلاستر بهذا الصدد (Pierre Clastres, 1982, Au sujet des indiens Guyakis): "إذا لم يتم استهلاك الروح، فإنها تبقى قريبا من الأحياء، مستعدة للتهجم عليهم، للتغلغل في أجسادهم وافتعال مشاكل تنتهي بهم إلى الموت... الموت يحرر الروح من الجسد، الذي كان يبقيها سجينة داخله، عاجزة عن أي إزعاج. لقطع الطريق أمام مشاريعها السيئة، والوقوف حاجزا أمام تيهانها المشؤوم، ينبغي أكل الجسد الذي غادرته... غلافها القديم... محو الجثة عن طريق أكلها، يجعل الروح تعترف بأنه لم يعد هناك من داع لوجودها، لأن وظيفتها انتهت بعالم الأحياء.".

لدى قبائل "كابنكوا Capanaguas" بأمريكا الجنوبية، أو لدى قبائل "تابويا Tapuias" داخل ولاية "باهيا Bahia" – بالبرازيل – أكل جثث الموتى من الأقارب تحمي الأموات من الضياع والتحلل البطيء المتعفن داخل التراب: "من الأفضل أن يسكنوا جسد أحد الأصدقاء بدل دفنهم في الأرض الباردة" هذا هو شعارهم.

على الضفة الأخرى للمحيط الهادي نجد مثيلا لهذه الطقوس عند بعض القبائل الآسيوية، ففي سنة ١٨٤٠م حاول أحد المبشرين اليسوعيين إبداء استهجانه - من الافتراس الآدمي – لأحد زعماء "الباتاك Batak" بجزيرة سومطرة، معبرا له عن مدى التقزز الذي يثيره مثل هذا السلوك. فسأل الزعيم "البدائي" رجل الكنيسة: "ماذا تفعلون بآبائكم بعد موتهم؟" أجاب المبشر: "ندفنهم في التراب حيث يتحلل الجسد من تلقاء نفسه"، فرد عليه زعيم الباتاك: "ماذا لدينا أغلى من أجسادنا؟ لا شيء. إن حب آبائنا هو الذي يدفعنا لتقديم أجسادنا قبورا لهم حتى يحيوا بداخلنا. هكذا لا يتعفن رفاتهم في التراب ولا يصبح فريسة للديدان".

"الافتراس الآدمي" إذن سلوك يخترق العديد من الثقافات العالمية، متخذة صورا ومظاهر متباينة، ما بين الفعلي والرمزي، وهكذا ففيما يأكل عبدة الإلهة الهندية "كالي Kali" المسنين والمرضى اعتقادا منهم بأن ذلك يرضي آلهتهم، تقوم المسيحية على رمزية سلوك "الافتراس الآدمي" - الذي ما يزال متبعا لحد الآن - ذلك أن سر القربان المقدس، في الكنيسة الكاثوليكية، يكمن في الاعتقاد في أكل لحم المسيح وشرب دمه (الخبز والخمر). "قال المسيح: في الحقيقة، إذا لم تأكلوا لحم ابن الإنسان ولم تشربوا دمه، فليست فيكم أية حياة. فالذي يأكل لحمي ويشرب دمي له الحياة الخالدة، وأنا أضمن له الخلاص يوم الدينونة." (Jean 6. 53-54) وقال أيضا: "خذوا هذا - الخبز - إنه جسدي" (1Corinthiens11. 23-24)، ثم رفع كأسه بعد أن ملأه، وقال: "هذا جسدي الذي أعطي لكم." (Luc. 22-19).

في "الإنجيل" أيضا نقرأ بأن المسيح قدم لحوارييه قطع الخبز قائلا: هيا كلوا، هذا جسدي. ثم قدم الخمر قائلا: اشربوه جميعا، إنه دمي. (St.Luc,Chap.22 «17/21» et St Mathieu, Chap. 26« 26/29»)

أن تأكل لحم الإله معناه أن تتوحد معه، تتألّه. الفكر المسيحي إذن قائم حول فكرة مركزية أساسية هي أكل "الإله" الذي هو بشر أيضا، أي "أكل اللحم البشري".

أما في "التوراة" فنقرأ بأن موسى هدد بني إسرائيل بأن الله سيسلط عليهم شعبا يعذبهم إلى درجة أنهم سيأكلون أبناءهم وبناتهم. كما نقرأ في كتاب "الملوك" بأنه أثناء حصار أورشليم والسامرة، دفع الجوع النساء إلى طبخ أطفالهن وتقديمهم وجبات غذائية.

لدى شعوب جزر بانكس Banks (كلود ليفي ستراوس، الفكر البري، تعريب نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٧، ص. ١٠٠) يسود الاعتقاد بأنه

---

٦ - كأكل العدو مثلا من أجل اكتساب فضائله أو الانتقام منه... ومن أشهر من مارسه هنود "تيبينامبا Tupinamba" بالبرازيل. انظر بهذا الصدد أعمال ألفرد ميترو Alfred Métrau.

٧ - وذلك، حسب مارسيل موس Marcel Mauss(١٨٩٦م)، لأجل الحفاظ عموما "على جزء من روح العائلة التي تجنح نحو الهروب" وأشهر من يمثله قبائل Guayaki في البراغواي.



ينبغي على الطفل ألا يأكل "قرينته ، نبتة كانت أم حيوانا ، لأنه يلاقي الموت المحتوم. ولأن هذه القرينة هي ثمرة لا تؤكل ، عليه ألا يمس الشجرة التي تحملها. ذلك أنه من يأكل قرينته كمن يأكل لحمه ". أكل القرينة ، هنا ، وحسب المنظومة الطوطمية ، هو من قبيل "أكل الذات" (Autophages) الذي وسعه الاجتماعي ، الإثنولوجي ، وعالم النفس كوستاس ناسيكاس Kostas Nassikas ، ليشمل الإضراب عن الطعام أيضا: المضربون عن الطعام هم من المفترسين الآدميين (Autophages) إذ "كيف يمكنهم أن يستمروا في الحياة رغم إضرابهم عن الأكل ؟" الجواب الضروري لذلك هو أنهم يأكلون ذواتهم: "بطريقة غير مرئية ، الصائم يأكل ذاته... يتغذى على لحمه الخاص".

في الحالتين (جزر بانكس والإضراب عن الطعام) "أكل الذات" مضمر ، لكنه قد ينكشف في حالات أخرى مثل التي وقعت سنة ١٨٩١م ، مثلا ، عندما عرضت على البروفسور كارنيي Garnier "حالة خاصة" لدراستها: أوجين Eugène ، أجير بسيط ، عثرت عليه شرطة الحراسة على كرسي عمومي وفي يده مقص يقطع به أجزاء من ذراعه اليسرى ويبتلعها بدمها. مشاهدة فتاة جميلة بيضاء البشرة كانت تثير شبقه لدرجة أنه يتمنى أكلها ، لكنه لم يكن ليفعل ذلك أبدا ، فعوضا عن أكلها ، كان يقطع الأجزاء الناعمة البيضاء من ذراعه ويأكلها.

نفهم من كل هذا ، يا سيدي ، أن "الافتراس الآدمي" سلوك موضوعاني Objectal . ما يحكم عليه "بالشذوذ" أو "العادية" هو الثقافة الحاضنة لا غير ، قد يتخذ أشكالا نمطية عديدة ، لكن في دراستنا هذه سنعرض لتحليل الافتراس الآدمي "الفعلي" ، ولن تكون لنا أية علاقة بأشكاله "الرمزية" الأخرى. أما "رموز السلطة" التي تدفع إليه فعديدة ومتباينة ، وسنحاول الكشف عن بعضها من خلال هذا الموضوع.

الفصل الثاني: الافتراس الآدمي بداعي اللذة



حول اللذة

"مستهتر ، متهكم ، عنيف ،
هكذا تريد اللذة* لواحدنا أن يكون.
إنها امرأة ، وهي لن تحب أبدا إلا مقاتلا."
نيتشه: هكذا تكلم زرادشت.

*في الأصل:"الحكمة".

"هيدون" أولغز اللذة

الرغبة عارض من عوارض النفس التي ترنو إلى تجاوز حالة من العوز الداخلي لأجل الوصول إلى حالة مغايرة من الإشباع ، مع ما يصاحب ذلك من انتشاء ومتعة. فهي إذن حالة طبيعية مرافقة للإنسان في ممارساته اليومية. جهاز مركب من تفاصيل وجزئيات تزدهر يوميا وتنمو فينا نزوات عابرة أو ملحة. وككل جهاز عابث لعوب ، فإنه قد يتحول من الطبيعة إلى الشذوذ بما أنه يوقظ داخلنا حالات من التناقض المرير التي علينا أن نحملها كما نحمل السرطانات الحميدة والخبيثة. هاهنا يختفي لقيومنا Lyceum السري الغامض ، الذي يزاوج بين دواخلنا: أحاسيسنا ، مشاعرنا ، طوياتنا... وخارجنا: قيمنا ، عاداتنا ، ثقافاتنا... ولأن الأمر ليس مقصورا على مجرد مشاعر يمكن أن تتحقق بأية طريقة كانت ، بل يتجاوزها للاصطدام بالثقافة ، فمسألة إشباع النهم الداخلي إذن قد تفجر حالات ترفضها "القيم" (نناقشها كحالة تاريخية واقعة دون أن نلتفت إلى زيفها أو صفائها) ، حالات من السفالة والنذالة والانحطاط.

واضح إذن عبر هذا التقديم أن الرغبة نزعة داخلية فطرية فينا تؤطرها وتحكمها ضوابط أو قواعد خارجة عنا. هناك تعارض معقول ، أو لا معقول – ما شأني بذلك – بين شعور بري مفرط في بدائيته ، يريد أن يحلق كالبجع دون قيود ويستمتع في بحيرته كيفما شاء وأنّى شاء ، ورقيب اجتماعي ضابط مهمته ملاحظة ، وملاحقة ، تجاوزات الطائر المحلق السابح ووضع الحواجز من أجل تدجينه وترويضه. وهذا التعارض بالضبط هو ما يثير الشك والريبة بل والرهبة أيضا مما يجيش فينا من رغبات تراودنا باستمرار لتحقيقها. تسائلنا مساءلة حثيثة ، وما همها الحواجز المدجنة ، أما نحن فعلينا أن نلتفت كل مرة إلى هذه الحواجز قبل أن نجيب عبر "لا" آتنا أو "نعم" آتنا ، لكننا ، والحق يقال ، نجيب في مناسبات عدة بنعم حيث يفترض أن نقول لا. نستسلم للرغبة الجامحة – ولو في سرية تامة – نستسلم ونستكين ، لا نتوانى عن وضع رؤوسنا في حجرها وننام ، لأن الغواية كانت أعتى من الحواجز المحيطة ، فتنهار قبل أن تنقلب ضدنا وتطبق علينا عبر عوارض الحزن والكآبة ، أقصد عبر الضمير المتفاني في رفع الحواجز وتقويتها أكثر كل مرة تنهار فيها.

لهذا بالضبط نعتبر الرغبة من أشد العوارض إزعاجا. تنمو غرائزنا وتستفحل يوما بعد يوم ، أو بالأحرى كل يوم رغبات جديدة مضللة تتقمص أشكالا مختلفة ، متباينة ، بل ومتناقضة فينا ومتناقضة من شخص لآخر ، لا يسلم منها أي كان ، حتى الفلاسفة والأنبياء المفرطون في المثل الزهدية لهم رغباتهم الماسة. كل منا مسكون بأفق ممتد من الغرائز والنزوات ، ممتد إلى درجة قد تصيب بالدوار ، وتجعلنا نشك ونرتاب في قدرة الضوابط القيمية ، أقصد الحواجز ، على ضبطنا خاصة وأننا نقوضها باستمرار ، وعلى الضمير أن يعيد ترميمها باستمرار أيضا إذا شاء أن يبقى يقظا زاخرا بالحياة ، في الحالة التي نمارس فيها اللذة بأسلوب مراء مخاتل مضلل ، حين نمارسها في الآنات التي نعيشها دونما استحضار "لحرمة" المستقبل الطارق ، أي حين نخوض في رحم اللذة عبر الذنب. طيب ، وما الذنب في ذلك ؟ الذنب أننا اقترفنا الذنب.

ترنو الرغبات إلى الإشباع ، وترنو القيم إلى التطويق ، وبقدر ما تحاول الأولى الانفلات والتحرر للعودة إلى الحالة الوحشية المنطلقة ،

تطمح الثانية إلى التطويق والتكبيل لنقلها إلى الحالة المدجنة الوديعة. هي لعبة مشاحنة ومشاكسة وتحد إذن، فيها من الجسارة والعناد ما يجشم الفرد والمجتمع عبء ثقيلا كيما يتوصلا إلى توازن نفساني/اجتماعي عصي المنال، لكنه ضروري لتحقيق تعايش — ملغوم في النهاية — حتى لو اقتضى الأمر سحق بعضهما بعضا.

الرغبة المقرونة باللذة، والمتماهية معها، هي المتألق فينا، في صقيعنا الخاوي، في حياتنا الجليدية المتعبة الباردة. علينا أن نكابد طويلا من أجل استراق لحظات منها، لأن من سمات هذا المتألق، المتباهي بتألقه، أنه كلما أوغلت صحارانا الجليدية في خوائها إلا وجشمها مزيدا من المكابدة لملء فراغ صغير فيها، كلما تحققت اللذة عبر السهل إلا واشرأبت النفس إلى الصعب، فالأصعب... إلى ما لا قبل لها به. فالمتعة التي تتحقق بامتياز هي التي تجعل النفس مفتونة بها حتى الثمالة، حتى لو كانت بعيدة المنال، لتخرق الحواجز غير عابئة بها... ربما إلى حين؟

من سمات هذا المتألق المتباهي أيضا — إن كنت لا تدري — أن آناته قصيرة، قصيرة جدا، فهو كالشهب العابرة في ليالينا الشتوية الطويلة، وعلى أعيننا، إن هي أرادت الاستمتاع بهذا المبهج المنير، أن تبقى محملقة طويلا في ديجورها الحالك لاقتناص واحد منها. ولأجل أن تطيل متعتها به، عليها أن ترافق فاتنها المنير إلى أن يتلاشى ويختفي خلف الأفق المعتم السادي.

هاتان الصفتان المميزتان، أشد التمييز، للذة: هي "الضالة" التي ينبغي العثور عليها، وهي "القصيرة" التي ينبغي إطالتها، تنضاف إليهما صفة مؤطرة أثرناها سلفا هي تقاطعها مع الثقافة، مع الأوامر الاجتماعية: فلتبحث عن ضالتك بأي صورة شئت، لتطفئ أوارك المتأجج فيك طالما استطعت، لكن لا تنس أيها اللاهث "الغافل" الحواجز التي رسمتها لك الثقافة، لأنك إن طلبتها عبر نفق الإثم ستجد وحشين ضاريين في انتظارك عند طرفي النفق، أعدا بالضبط لمثل هذه الحالات الآثمة، وليكن في علمك أيها الآثم اللاهي أنهما من أكثر الأوابد قسوة وفظاظة وشغفا بالتعذيب، بل إن سداهما ولحمتهما جبلتا منه...

- لعلك خمنت الآن ما أعنيه؟
- "الضمير" و"العقاب"؟
- ذاك قطعا ما أعنيه.

الأول — الضمير — وحشك المتحفز داخلك، المستعد لنهشك وتمزيقك من الداخل عبر عذابات تحيلك عصفا مأكولا، إن مارست لذتك "الحرام" في سرية. والثاني — العقاب — وحشك الخارجي المتوثب المستعد لابتلاعك وهصرك دونما رحمة إن افتضحت الأعين إثمك الممنوع.

اللذة لغز الألغاز وسر الأسرار المبهم المنغلق على العقل، والجلي المنفتح على الحواس، الغريزة التي تجهد نفسها لتحقيرنا والحط منا وتذكيرنا، كل مرة، بضعفنا. في ضعفنا قوتها، وفي انصياعنا جاذبيتها. عليها أن تشحذ لهفتنا وتزين كل ما هو شاذ وغريب حتى لو كان بشعا كريها ما دامت تمسك عنان عواطفنا وتسوسها إليه دون احتراس ودونما مراعاة لانحطاطه أو رفعته، قدسيته أو دنسه، فهذا شأن الآخرين، شأن "الضمير" و"العقاب". هي الوسواس الجامح الذي لا يستنكف عن ترديد لازمته العابثة، وهما الديدبان الكابح الذي لا ينفك يذكر بأحكامه المرعبة، والإنسان البائس الشقي ساحة هذه الملحمة الطاحنة.

وحده "المباح" الخالص النقي، الشفاف، المصقول... يتيح له هامشا يضيق ويتسع، هامشا محفوفا بالحذر يرتع ويتلهى فيه ما شاء له أن يتلهى، شريطة أن يحترس من كل ردة تشده إلى "النجس" المحظور، أي أن يعرف كيف يكتم نشاطه المتدفق الأهوج، ويكبت عواطفه المتفجرة المحتالة حتى لا يقع في فخ النهم المنصوب. هذا "المباح" وحده المسموح به، كمقدار الدواء، وكل تمرد جشع مشؤوم، يهوي به أسفل سافلين، حيث الكفر واللعنة والجحيم.

ليست الرغبة دائما انطلاقا ومرحا ونشاطا جسديا مفعما بالحيوية، إذ بئس الرغبة هذه عند آخرين يجدون متعتهم في كل ما يغذيه الكسل والعزلة والارتخاء والنزوع إلى خمول "الذيذ"، ليس ساذجا مبتذلا دائما كما يتخيلن البعض، بل فيه من الإبداع والأصالة والسمو الفلسفي ما يعجز الغواية المتجسدة المقدسة عن كل مضارعة، فتنكسر أمامه مفلولة منكسة، أقصد خمول "ديوجين" الحكيم[8] المستمتع تحت أشعة شمسه الدافئة في بهاء وسمو. هذا الذي تعرف على ذاته فلم تزده المعرفة إلا بهجة وتمردا وظفرا، يحقق متعته بنقيض ما يمتعنا، بنظرة متعالية مترفعة إلى غنج "الإباحية" التي تثير كل خلية فينا: فهل من "عراف" مراوغ يدلني على طريق واحد، وحيد، للذة؟

تهوى اللذة، وهذه هوايتها المفضلة الوقحة، شق ألف طريق وطريق: مسالك معوجة، دهاليز مقفرة، سبل خفية... تفتح كل حين في أدغال النفس البشرية، تزعم كلها أنها تهدي إلى الغبطة، حبلى "بالسعادة". كل منا يرى سعادته في مسلك، سبيل، أو دهليز... مختلف عن الآخرين. يسلك البعض طريق التعفف، والحمية، والتأمل، والتطلع "للحلول" أو "النرفانا"... بينما يسلك آخرون طريق الدعارة والإدمان وافتراس اللحوم (البشرية؟)... للوصول إلى هستيريا تفجر النشوة... غرائز مكارة، واعية/لا واعية، تسكننا، تعشش فينا، تستهوينا وتأسرنا، لكن هل علينا أن نحمل كل هذه الغرائز على محمل الجد؟

لا تتعجل بالجواب، لكن قبل أن تجيب التفت إلى الأفق الممتد خلفك، أقصد التاريخ المديد بمد البصر، هذه الآلاف المكومة من الأعوام، كل لحظة فيها تؤكد لك بالضبط ما تعرفه بالعيان، أي هذا الذي يجري أمام ناظريك الآن. التفت إلى التاريخ وستجد فيه ما تشاء، وما لا تشاء، من الغرائز المسطورة فيه على قدر أعداد البشر الذين شيدوا هيكله وما زالوا يشيدوه.

هل تقبل أن تكون عشائي؟

(شهادات معاصرة)

في ٣ دجنبر ٢٠٠٣م أعلنت عدة قنوات فضائية - من بينها قناة "العربية" - خبر المهندس الألماني الذي نشر، قبل سنة من ذلك،

٨ - ديوجين الكلبي (٤٠٤-٣٢٣ق.م) مؤسس المدرسة الكلبية (القائمة على احتقار العادات والثقافة ونبذ الثروة والجاه وكل المتع الحسية...). تجري الأسطورة أنه عاش داخل برميل. يحكى أن الإسكندر وقف أمامه يوما وقال: "أنا الإسكندر الأكبر"، فرد عليه الحكيم: "وأنا ديوجين الكلبي". فقال الإسكندر: "تمنّ عليّ ما تشاء"، فرد الحكيم: "تنحّ من أمامي، فأنت تحجب عني أشعة الشمس".

صفحة على الإنترنيت يطلب فيها إن كان هناك شخص يعرض جسده للأكل. وفعلا لبّى أحدهم الدعوة وزار المهندس في بيته، حيث وجده منهمكا في إعداد وجبة بشرية لمدعو آخر. التهم المهندس، وضيفه، الوجبة البشرية قبل أن يلتفت للضيف ويبدأ في افتراس جديد.

كاد أن يمر كل شيء "بسلام" لولا أن "ريمة عادت لعادتها القديمة": الإعلان على صفحات الإنترنيت. وفي هذه المرة تقدم خمسة أشخاص كلهم مستعدون لعرض أجسادهم للافتراس، إلا أن الشرطة التي انتبهت للعملية تمكنت من إيقافها قبل التنفيذ، كما تمكنت من اكتشاف آثار افتراس آدمي في بيت "المهندس".

المشكلة التي اتضحت أثناء المحاكمة تمثلت في أن القانون الألماني لا يتوفر على نصوص تجرّم "الافتراس الآدمي"، فاضطر الادعاء العام لتوجيه تهمة "القتل" للمفترس، لكن محامي الدفاع أصر على أن موكله لم يقتل ضحيته (أو ضحاياه) مستدلا بظروف القضية وحيثياتها التي تؤكد بأنهم قدموا أنفسهم، وعن طيب خاطر، لموكله... وبعد جدل حاد حكمت المحكمة على المفترس الألماني ب١٥ سنة سجنا، يوم ٢٩ دجنبر ٢٠٠٣.

هذا، حسب علمنا وإلى حدود تحرير هذه الدراسة، آخر ما جد في موضوع "الافتراس الآدمي"، لكنه لن يكون الأخير على ما نظن، كما أنه ليس الأول على كل حال. فهذه الحالة لا تشكل استثناء في تاريخ القضاء، لأن أرشيفات المحاكم تغص بعشرات القضايا المماثلة، وفيما يلي نماذج عنها:

- جزار "ميلووكي "Milwaukee": جيفري دامر Jeffrey Dahmer، ٣١ سنة، حكم عليه ب ١٠٧٠ سنة سجنا عن ١٥ جريمة قتل ارتكبها بين ١٩٧٨م و١٩٩١م، في ميلووكي، وقتل في سجن بورتاج Portage من طرف سجين آخر، سنة ١٩٩٤م.

اتهمته السلطات الألمانية بخمس جرائم قتل أخرى ارتكبها خلال الثمانينات عندما كان يعمل مساعدا طبيا بإحدى القواعد الأمريكية بألمانيا.

كان يفضل قتل المراهقين خصوصا الزنوج والآسيويين. يخدرهم، يمارس عليهم الجنس، ثم يخنقهم. بعد ذلك يقوم بقطع أجزاء منهم وأكلها. عندما اقتحمت عليه الشرطة مخبأه، عثرت على العديد من العظام والجماجم البشرية وقطع من اللحم البشري معلب في الثلاجة، وأجزاء أخرى قيد الطهي. (عثرت الشرطة أيضا على أياد مقطوعة وأرجل مجتمعة في دلو واحد)، أما الأعضاء التناسلية (وهي المفضلة لديه) فعثر عليها مجموعة قرب السرير حيث كان يخلطها بالنبيذ الأبيض، وقد جهز أحدها مع السلطة... مجموع ما عثر عليه: أحد عشر جثة مقطعة.

اعترف المجرم أثناء المحاكمة بأنه كانت تدفعه لذة الحفاظ على عشاقه بالقرب منه، وقال: "قتلتهم لأني وجدتهم جميلين، وأكلتهم لأني أردت الحفاظ على أجزاء منهم حية بداخلي".

- المفترس الياباني إيسيي ساكاوا Issei Sagawa، ٣٢ سنة، طالب آداب ياباني بباريز.

قتل وأكل، يوم ١١ يونيو ١٩٨١م، طالبة هولندية (رينيه هارتفلت René Hartevelt ٢٥ سنة)، تعرف عليها في الكلية وأحبها بجنون، كانا يتبادلان الزيارات، لكنها كانت ترفض ممارسة الجنس معه، لأنها لم تبادله الحب نفسه، بل مجرد بعض الملاطفة والمجاملة. في اليوم المشؤوم زارته في مسكنه حيث قتلها ببندقيته، وبعد نصف ساعة بدأ في التهامها. اعترف قائلا: "عندما بدأت بفصل العظام عن اللحم أكلت الشفتين، واللسان، ثم أرنبة الأنف." أكل هذه الأجزاء وهو يحمل منشارا كهربائيا ويقطع الجثة حسب ما سيهيء من وجبات، وكان بين الفينة والأخرى يتوقف عن التقطيع ويلتقط بعض الصور. بعد اعتقاله اعترف في تعبير مثير ودقيق بافتراسه الآدمي، قال: "كنت سعيدا، كان معي كل الحق، لأن ذلك كان لذيذا ... منذ مدة طويلة كان ينتابني شعور غريب: الرغبة في أكل إحدى الفتيات... أكل هذه الفتاة كان تعبيرا عن ولهي الشديد بها. أردت أن أستشعر بداخلي حضور الإنسان الذي أحببته."

- جزار روستوف Rostov: أندري تشيكاتيلو Andrei Tchikatilo، ألقي القبض عليه سنة ١٩٩٠م عن عمر يناهز ٥٦ سنة.

تم تصنيفه من أخطر مجرمي القرن ٢٠م، اتهم بالقتل والاغتصاب والافتراس الآدمي، ما مجموعه ٥٥ جريمة قتل، لكن نظرا لغياب الأدلة تم الاحتفاظ ب ٥٢ فقط: ٢١ ولدا، ١٤ بنتا، أعمارهم ما بين ٨ و١٦ سنة، و١٧ امرأة بالغة. تطلب الأمر من الشرطة الروسية ١٢ سنة من البحث والتحقيق المضني. الرجل كان يقتل ويفترس كل سنة بين ٤ و٥ أشخاص. اشترك في التحقيق ٥٠ خبيرا وبضع مئات من رجال الشرطة وتم استجواب أكثر من ١٠٠ ألف شخص و٥٠ ألف مختل عقليا مع مئات التحاليل الدموية والسوائل المنوية... دون جدوى.

- الرجل – أندري تشيكاتيلو – كان يحيا حياة مزدوجة، لا تثير أدنى شبهة: من جهة الزوج المخلص، والأب الحنون، والجد الطيب، الدكتور في الفلسفة وأستاذ اللغة والأدب الروسي، (تخلى عن ذلك سنة ١٩٨٠م والتحق بالخدمات التقنية للسكك الحديدية). ومن جهة ثانية، القاتل، آكل البشر، الذي يريق الدماء عند كل فرصة سانحة، في كل مدينة يزورها.

له طقوس معينة في التعامل مع ضحاياه: يطعنهم بالسكين عدة طعنات ثم يغتصبهم، وبعد ذلك يقتلهم، ثم يفصل الأطراف عن الأجساد، ويفرغ الأحشاء قبل أن يقطع اللحم. الأجزاء المفضلة لديه هي العينان واللسان الذي كان يبتلعه في الحال. من عادته أيضا أن يترك جثث ضحاياه في الغابة، لكن قبل ذلك كان يقطع الأجزاء التي ينوي أكلها، بعضها كان يأكله نيئا، بينما كان يفضل البعض الآخر مطهيا بالبهارات، هذا كان شأن الأعضاء التناسلية مثلا.

كان هادئا طيلة أيام المحاكمة، بل كثيرا ما كان يطالع كتابا – بلا مبالاة – في الوقت الذي كان فيه الادعاء العام يعرض الجرائم، ويتحدث عن الدماء والاغتصاب والافتراس... في إحدى المرات تناول الكلمة، انتظر حتى خيم الصمت على القاعة، وقال: "شاهدت الفتاة وسط الجموع، قدمت إليها نفسي فقبلت أن نتجول على ضفة النهر، ثم وجدنا أنفسنا لوحدنا. أخذت السكين ومزقتها، ثم شققت بطنها. قطعت اللسان – مع الأسنان – وابتلعته..." قال هذا في هدوء، قبل أن يواصل بعد برهة صمت: "على العموم، في مثل هذه الأوقات فقط، كنت أصل إلى كامل النشوة الجنسية". أثبتت المحكمة جرائمه، وقتل رميا بالرصاص سنة ١٩٩٤م.

- هاملتون ألبرت فيش Hamilton Albert Fish، تم إيقافه سنة ١٩٣٤م. أب لأسرة من ستة أبناء، وجد لخمسة أحفاد، عمره ٦٤

سنة. اعتبره الأخصائيون حالة غريبة، شاذة، في تاريخ الإجرام، لأنه طبق على ضحاياه كل ما يمكن أن يخطر، أو لا يخطر، بالبال. لا يعرف بالضبط عدد ضحاياه، هو نفسه اعترف للمحققين، بمائة جريمة، رغم أنه لم يحاكم إلا على ١٦ أثبتها التحقيق. طبيبه النفساني الدكتور Frederick Westham الذي كانت له معه اعترافات حميمة، يقول بأن الجرائم تتعدى ٤٠٠ جريمة، مما يجعل هذا المجرم، آكل لحوم الأطفال، في مصاف أخطر المجرمين عبر كل الأزمنة.

كانت له طريقة واحدة يكررها عند كل جريمة: يغري الأطفال بقطع الحلوى والنقود، ثم يقتادهم إلى دهاليز المنازل المهجورة، أو إلى بيته إن سمحت الظروف، ثم يشلهم عن الحركة ويقوم باغتصابهم قبل الإجهاز عليهم. في أحيان كثيرة كان يعذبهم عدة أيام قبل قتلهم. اعترف قائلا: "كنت أنتشي عندما أسمعهم يصرخون من الألم".

عن إحدى الحالات - حالة الطفل Billy Gaffney - يقول المجرم: "ضربته حتى سال الدم من رجليه، جذعت أنفه وأذنيه، وقطعت الفم عبر دائرة كبيرة من الأذن إلى الأذن، اقتلعت العيون من محاجرها... غرزت الخنجر في البطن ثم وضعت فمي في الشق الذي أحدثته وشرعت في امتصاص الدم وهو ما زال دافئا. بعد ذلك قطعت الأطراف، ثم فصلت الجسد والأرجل عن المؤخرة، قطعت الرأس والأطراف وعدت إلى بيتي وأنا أحمل اللحم معي. الأعضاء المفضلة لدي هي: العضو التناسلي، والكلى، وجزء من المؤخرة صالح للشواء في الفرن قبل الأكل. حضرت يخنة Ragout بالأذنين والأنف وقطع من الوجه والبطن، وضعت البصل والجزر واللفت والمتبلات. كان شهيا...".

كان يحمل معه دائما حقيبة يسميها "أدوات الجحيم": منشار، وساطور، وسكين جزار لفصل اللحم عن العظام. وكان يقول بأنه يحب أكل اللحم البشري عندما يكون القمر بدرا. وقد حكم عليه (ب USA بعد أن أفقد الناس الثقة بعلم النفس عدة شهور) بالموت بالصدمة الكهربائية في ١٦ فبراير ١٩٣٦م.

- "ملك الشعير" هكذا لقبته الصحافة، Nicolai Djoumageliev أكثر "المفترسين" شراسة. ضحاياه أكثر من خمسين، من بينهم أخته الصغرى، استخدمهم لإعداد وجبات تقليدية كازاخستانية.

في موسكو (إحدى ليالي يناير ١٩٨١م) عاد عاملان ثملان، من كثرة ما تناولاه من الفودكا، إلى مقر سكناهما. فدخلا إلى ما ظنا أنه غرفتهما حيث وجدا قدرا كبيرة تغلي فوق نار المدفأة. اقترب أحد السكارى من القدر لينظر بداعي الفضول ما بداخلها، فلم يلبث أن صرخ وسقط مغميا عليه. اقترب زميله بدوره ثم أطل داخل القدر فوقف جامدا كأن ليس به قطرة دم واحدة: فداخل القدر كان هناك رأس امرأة تحيط به بعض الأشلاء البشرية تسبح في حساء دام... "نيكولاي" كان ينتظر أصدقاءه للعشاء.

حضرت الشرطة بعد عشر دقائق، فتشت الغرفة لتجد، دون عناء، بقايا بشرية، الكثير من العظام، داخل علب كرتونية، بعضها ما زال به بعض اللحم.

الرأس داخل القدر كان لامرأة لقيها في الحديقة، شربا الشاي وصعدت معه لغرفته لممارسة الجنس، لكن لم يكن له رغبة في ذلك، قتلها وبدأ في طبخها لأن اللحم البشري، يقول نيكولاي، ينتن بسرعة. "عندما أذبح امرأة، أبدأ أولا بشرب الدم، لأنني سمعتهم يقولون بأن ذلك يطهر النفس. بعد ذلك أقطع النهدين وأقليهما، فذلك يعطيهما مذاق الخنزير البري. ثم أطبخ القطع الأخرى بالتدريج... أنا لا آكل أي امرأة، فقط العاهرات... لكن كلهن عاهرات... ويجب تخليص العالم منهن...".

"ملك الشعير"، "جزار روستوف"، "المفترس الياباني"، "جزار ميلووكي"... هذا مجرد غيض من فيض (راجع ملاحق هذا الفصل) مما تختزنه أرشيفات المحاكم في هذا الإطار، تتكشف عبرها نماذج لمفترسين آدميين لا يجدون متعتهم القصوى، لذتهم (أو هيدونهم)، إلا بغرز أنيابهم في اللحم البشري. لا شيء غيره يشعرهم بالانتشاء، وأحيانا أجزاء معينة فيه هي التي تحقق لذتهم. هاهنا "هيدونية" بأكثر مما صاغها أبيقور Epicurus وطورها لوكريتيوس Lucretius، وعبر عنها "التشاي" الكونفوشي: الجوهر الغارق في الرذيلة والمستسلم لكل إغراء حسي. هاهنا "اللذة"، اللذة فقط ولا شيء غيرها.

هيدونية الافتراس: وصل بالماضي

من يتتبع ابن بطوطة في رحلته، يتوقف عند محطات، منزوية، من "الافتراس الآدمي". أولاها، فيما رصدنا، في وصف الغلاء الواقع بأرض الهند، حيث يقول (ص.٥٠١): "حدثني بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكرورة... فوجدوها خالية، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا فيه، فوجدوا في بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا، وبيده رجل آدمي وهو يشويها في النار ويأكل منها، والعياذ بالله."

بعد ذلك يحكي لنا (ص.٥٤٢-٥٤٣) عن السحرة الجوكية الذين يأكلون الآدميين ويشربون دماءهم ببلاد الهند، وكذا الساحرة "الكفتار" التي أحضروها له وهو في منصب القضاء "وقالوا: إنها كفتار، وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها، وأتوا بالصبي ميتا"(ص.٥٤٤).

يذكر ابن بطوطة أيضا قصة مانسا موسى مع قاض له من البيضان، يكنى أبا العباس، غضب عليه مانسا موسى "ونفاه على بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين، ثم رده إلى بلده، وإنما لم يأكله الكفار لبياضه لأنهم يقولون إن أكل البيض مضرّ لأنه لم ينضج، والأسود هو النضج بزعمهم."(ص.٦٩٣): "أكلة بني آدم" هؤلاء هم الذين سيفصل المستكشف البرتغالي "باتشيكو" في وصف وحشيتهم لاحقا (في رحلته ١٥٠٦/١٥٠٨م).

(Duarte Pacheco Pereira, 1508, Esmeraldo de situ orbis, Edit. Lisbone, 1892, Livre II, Chap. 7.)/Trad. Fr. R. Mauny, Bissau, 1956. .

كما ذكرهم أبو الفدا من قبل (ق.١٣م) عندما وصف بحيرة كورة (بحيرة تشاد حاليا) التي كان يقطن حولها قبائل البيدي Bidys المشهورة بافتراس اللحوم الآدمية (جغرافية أبي الفدا، ج.٢، القسم الأول). ويشبههم سكان ساحل الأنياب (ساحل العاج)، الذين وصفهم "لوايي"، خلال القرن ١٨م، وذكر بأنهم "أكثر قبائل الزنوج وحشية... إنهم يقتنصون كل من يمر بأرضهم من البيضان ويفترسوه، كما لا ينجو منهم جيرانهم السود أيضا..." (G.Loyer, Relation du voyage au royaume d'Issyny, Paris, 1714, p. 97-99) رواية "لوايي" صدى لما اختصره ابن عبد ربه الحفيد عندما ذكر في وصف المنطقة: "ومن سار من مدينة كوكو - ببلاد السودان - على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم، يأكلون من وقع إليهم من البيضان." (الاستبصار، ص.٢٢٥)

لا ينفرد ابن بطوطة إذن برواياته عن "الافتراس الآدمي"، لكن شهادته، مع ذلك، تبقى متميزة بالنظر إلى التفاصيل الغزيرة التي قدمها عن الظاهرة، وخصوصا عن الطقوس المرافقة لها، والتي تشبه إلى حد بعيد ما يرد في ملفات القضاء التي عرضنا نماذج عنها سلفا.

يذكر (ابن بطوطة) بأن "جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم (قدموا على منسا سليمان) ومعهم أمير لهم، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا... ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب، فأكرمهم السلطان، وأعطاهم في الضيافة خادمة، فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأُخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك، وذكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي." (ص.٦٩٣)

إن الإصرار الممنهج على "الأكل" هنا، مع ما يرتبط به من طقوس (تلطيخ الأيدي والوجوه بالدم/ قارن ذلك مع ما كتبناه عن الأعضاء المفضلة للمفترسين وكذا شرب دماء الضحايا في المبحث السابق) يخفي نوعا من الحساسية المكبوتة/المتفجرة في نفس الآن، لأن أطيب ما في "الآدميات": الكف والثدي؟ فهذا السلوك، يجرفنا نحو منطقة مظلمة تحتاج إلى بعض التوضيح ورفع اللبس، لأنها تورطنا في "هوية" المأكول؟

لا يعود الأكل هنا - رغم اختلاف محطاته - لرمز الانتقام، لأن هوية الفريسة ليست من الأعداء. كما أن رمز الجوع لا يمكنه تبرير مثل هذا السلوك "الاحتفالي". فالسلطان، وإكراما للضيف، يقدم فريسة بشرية (أنثى). والضيف يفرح بهذا المستوى المرموق من الحفاوة، فيلهج لسانه بشكر السلطان. تماما كما لو أن الأمر قد انصاع لضوابط اجتماعية/نفسانية محبوكة تحدد لكل طرف اختياراته وواجباته: اللذة هنا متعة متبادلة تؤطرها الرغبات والواجبات، فالسودان "أكلة بني آدم" قد أدوا ما عليهم من التزامات تجارية (جلب الذهب للسلطان) ورغباتهم الاستمتاعية تتلخص في احتفال أكل الآدمي. رغباتهم هذه بالنسبة للسلطان التزامات: واجب الحفاوة بالضيف يعني تقديم وجبة "الآدمي"، ومتعته تكمن - فضلا عن العائد التجاري الذهبي - في رؤية هذا المشهد الغريب/الطريف، الذي يعجز هو وقبيله عن فعله، والذي يتلخص في الآدمي الذي له هذه القدرة الغريبة التي تشذ عن سنن الخلق، قدرة الآدمي على "افتراس" آدمي آخر، فقط للمتعة. (تماما كما كان يجري في حلبات المصارعة الرومانية: القتل من أجل القتل، أو بالأحرى من أجل متعة الأسياد).

الدافع المحرك المنصوص عليه هنا - ضمنيا في المحيط الذهني للإخباري - مختلف تماما عن الدافع في الظرف الآخر الذي يستوجب، أو بالأحرى يجيز، افتراس الآدمي، ونقصد به ظرف المجاعة (الذي سنعرض له لاحقا). وكما أن الدافع مختلف "فاللحظة" التاريخية للسلوكين مختلفة، رغم أن فعل الأكل واحد، "اللحظة" التاريخية هنا (في حال اللذة) سريعة، قصيرة، تعبر عن سلوك آني/دموي/حاسم/عنيف/متغطرس/عدواني... بينما "اللحظة" هناك (في حال الجوع) بطيئة، طويلة، تعبر عن سلوك متأن/ متردد/ مضطر/ كاره....

واقعة الافتراس في الحالة الأولى اختيار، وفي الثانية اضطرار، وفائض عن الحاجة القول بأن الحالتين، ومن ثم الإحساس المشخص المتوثب عنهما، يقفان على طرفي نقيض. هذا التفاوت المسجل على مستوى الإحساس الداخلي:

إغراء ⟵ لذة ⟵ راحة من جهة، وانتباذ ⟵ اقتراف ⟵ عذاب

من جهة ثانية، يحيلنا على منظومة سلوكية/ثقافية لدى كل مجموعة بشرية، هي القادرة، وحدها، على فك شيفرة هذا التناقض الغامض.

المعروف أننا نتحدث عن "الأكل" – فعلا وممارسة – ونحن نعني به عملية المضغ والبلع وإفناء الطعام من أجل بقائنا نحن، دون أن نقف في الغالب على فعل الأكل كممارسة مرحلية دقيقة إلا فيما ندر. وحالة "الما ندر" هاته هي التي تهمنا في موضوعنا هذا. فإذا استحضرنا المقصود من "الأكل" فهمنا المغزى من هذا التمييز، وتجنبنا الوقوع في الخلط بين وضعيتين متباينتين رغم أن "الفعل" واحد.

الوضعية الأولى تتكون من حالتين متعاقبتين مترابطتين، تترتب إحداهما عن الأخرى بالقوة الجبرية للطبيعة: ففعل البقاء يترتب عن فعل الأكل، العملية فيزيقية متلازمة وإلزامية في آن واحد، بينما الوضعية الثانية تتكون من حالتين متزامنتين بينهما ارتباط حسي متلازم لا إلزامي، ففعل المتعة والانتشاء أو "اللذة" يتزامن مع فعل الأكل، والعملية شعورية متلازمة لا إلزامية قطعا.

اتضح الآن، فيما نعتقد، أن موضوع افتراس الآدمي (نموذج أكلة بني آدم) لا علاقة له بالوضعية الأولى، الفيزيقية، بل يدخل ضمن الوضعية الثانية في قاموسنا التصنيفي للأكل ورموزه.

الأكل المنوه به هنا فعل افتراس بامتياز، شبيه إلى حد ما بافتراس إناث بعض العناكب للذكور بعد عملية التزاوج. يسجل الرحالة المغربي، على لسان أحد رواته، أن الجنس المفضل لهؤلاء السودان، هو الأنثى الناهدة، لأن المتعة – متعة الافتراس – لا تتحقق كاملة إلا بافتراس الكف والثدي، لا وصول لحالة الانتشاء القصوى، حالة الوجد التام، دون افتراس الأعضاء المنشودة، أو جزء منها على الأقل. محظوظ من تتهيأ له فرصة افتراس آدمي، أنثى، كفها أو ثديها بالذات... هل هي حالة من الإدمان؟ وهل هذا يساعدنا على فهم سلوك "المفترسين الآدميين" الذين يعيشون بيننا في الوقت الراهن، والذين قدمنا نماذج عنهم في المبحث السابق؟

ربما، لكن من الصعب أن نقطع، بكامل الثقة، بالجواب. رغم أن الاعتبارات الشمولية على الأرجح تجنح نحو الإجابة بالموافقة، تماما كمدمن نوع معين من المخدرات أو السجائر... قد يقبل على أي نوع في حالات معينة، لكن متعته الكاملة لا تتحقق إلا بحضور نوعه المفضل. ويمكن طبعا وضع الحالة في بعدها الزمني المتكرر، مما يتطلب تكرار السلوك كلما تكرر التوتر والرغبة، وكلما ألحت حالة القلق، أو ما نسميه "الجوع النفسي" الذي، بحكم ماهيته، يستدعي افتعال جملة من الطقوس والسلوكيات (تلطيخ الأيدي والوجوه بالدم)، بالإضافة إلى شحنة الافتراس المادي لتحقيق "شبع نفسي" أيضا.

تتأجج الرغبة وتتقد، بازدياد ما نعتناه "بالجوع النفسي"، وكلما ازدادت الرغبة تأججا وتوقدا كلما كانت النكهة ألذ عند حصول الافتراس.

تقدم قضية الافتراس هنا – في مشروعنا المستند إلى مجموعة من الرموز – على أنها أداة لتحقيق "اللذة"، أو إذا عكسنا الموقف، للحصول على سبب ومسبب نقول بأن رمز "اللذة" تم تنصيبه في تحليل هذه الواقعة التاريخية بالذات – وغيرها مما تشابه معها – لكي

يكون مسؤولا عن تفسيرها، وهي مسألة قد تستعصي على الخطاب التاريخي التقليدي في صورته المكثفة المثقلة بالعناصر الفاعلة مما يؤدي إلى تعويم التفسير في النهاية وبالتالي سيادة الإيحاء على الملموس.

أجل، "رموز السلطة" أيضا قد تتفاعل لإنتاج حدث تاريخي ما، لكن تفاعلها يختلف عن تفاعل التعميمات السياسية/الاقتصادية/الاجتماعية... التي درج التحليل التاريخي التقليدي على استعمالها كميكنزمات لتفسير الأحداث والوقائع التاريخية. تفاعل "الرموز" الذي نعنيه يشبه تفاعل الجينات من أجل إنتاج البروتينات في المادة العضوية، بصورة محكمة البناء متقنة الهيكلة، تبدو —لشدة إتقانها— مستعدة لاستيلاد أو تكرار ذاتها في ظرفيات ووضعيات مختلفة، هكذا فاللذة مثلا تخترق الزمان والمكان لاستعادة فعل الافتراس في أزمنة وأمكنة مختلفة.

ليس من قبيل الصدفة أن يروي الرحالة المغربي —ابن بطوطة— قصة القاضي المنفي ببلاد "أكلة بني آدم"، قد تكون القصة كلها ملفقة مختلقة، لكن ما يشدنا إليها هو جزء القصة الذي يحكي عودة القاضي، بعد أربعة أعوام، من منفاه حيا يرزق؟

عبر تدقيق الخط البياني للرواية يفضي التحليل في النهاية إلى رمز "اللذة": الأبيض (يساوي) غير اللذيذ (أي) الذي لا يؤكل لحمه، أكثر من ذلك هو مضرّ بالأبدان؟

قلنا بأن "اللذة" تخترق الزمان والمكان لاستعادة فعل الافتراس في أزمنة وأمكنة مختلفة، تتجسد مرة في بلاد السودان (بلاد الغابات) في كف وثدي وأنثى، بينما تسطو في التلنك (ببلاد الهند) على قلب صبي. كلما تعلق الأمر باللذة، تعلق بالخصوص بمنظومة "عضوانية" قائمة بذاتها لا مناص من افتراسها حتى تكتمل النشوة: كف وثدي وأنثى بالسودان، قلب وصبي بالهند (نثير هنا للمقارنة مفهوم "التأثير" Affectivitéعند كانط E Kant ("نقد ملكة الحكم" ١٧٩٠م) بمعنى الصفة التي تملكها الأشياء للتأثير على الحواس).

سلوك الافتراس ممنهج إذن في الحالتين (جماعة السودانيين "أكلة بني آدم" وطائفة السحرة "الكفتار") فهل من معنى لهذه الاختيارات المدققة حول الفريسة وأعضائها المفضلة بالدرجة الأولى؟

واضح، بما فيه الكفاية، ألا علاقة نوعية بين الصبي (بإطلاق) والأنثى (بإطلاق أيضا)، بين القلب والثدي... أي أن الأعضاء، أو حتى الفرائس، ليست مفضلة لذاتها، لميزة فيها، بمعنى آخر أن الأنثى، ولا حتى كفها أو ثديها، يعني شيئا "للكفتار"، كما أن الصبي، بقلبه، لا يعني شيئا "للسودان"، صحيح هو فريسة، تؤكل نعم، لكنها ليست مفضلة هنا، كما أن الأنثى ليست مفضلة هناك.

نخلص إذن إلى أن نوعية الفريسة، ونوعية أعضائها المحققة لأكبر قدر من اللذة، مصاقبة لمنظومة ثقافية ترتبط "بالذوق الجماعي العام": فكما تفضل بورجوازية هونغ كونغ رؤوس القطط، يفضل علية الأتراك مخ القردة الطازج، وبينما يفضل الفرنسيون فخذ الضفادع، تفضل بعض ساكنة شمال أفريقيا أكل الحلزون، وهكذا... فما يصح هنا لا يصح هناك بالضرورة، رغم أن الرمز الموحد الجامع واحد هو "اللذة"، والفعل واحد أيضا هو "الافتراس".

على أن الأمثلة المقدمة هنا، لا تعدو أن تكون أمثلة لإبراز شكل الذوق الجماعي العام، ولا مجال لمقارنتها بموضوع بحثنا، ليس لأن نوع الحلزون يختلف عن نوع الضفادع أو القردة أو القطط... فقط، بل وأيضا، وهذا هو الجوهري والأساسي، لأن الآدمي هو الفريسة والمفترس في نفس الآن.

الحاصل إذن أننا نتموقع أمام سلوك تأقلم مع منظومة ثقافية انتقائية. يبدو الافتراس في حالة التلنك ممارس في سرية تامة، رغم أن طائفة "الكفتار" معروفة لدى عموم سكان الهند بهذا السلوك، بينما يبدو في حالة السودان علنيا ومفضوحا، بل وبتواطئ وتأطير من السلطة ذاتها، فيجاهر الأكلة بسلوكهم ويشددون على الأعضاء المفضلة لديهم. فالعملية هنا معتادة ومتكررة ومتواترة حسبما نص عليه الرحالة المغربي. وبما أن نفس الرحالة هو الذي قص علينا، وهو قاض بالهند، خبر المرأة "الكفتار" ومن قبل قصة الرجل الذي يأكل الآدمي أثناء مجاعة، فلعلنا لن نبعد عن الصواب إذا استنتجنا أن سلوكيات الرحالة قد تعدلت مع الوقت وكثرة التجوال. شاهدنا على ذلك التغير الذي طرأ عليه في أسلوب الحكي، فبينما يختم قصته عن الرجل أثناء المجاعة —وهو القاضي كما سننصص على ذلك لاحقا عند تحليل رمز الحاجة— بالاستعاذة بالله من سلوك الافتراس، يعرض علينا بعد ذلك قصة "الكفتار" وقد تحولت في ذهنه إلى ما يشبه "المألوف"، ثم —وبعد سنين عديدة وفي مجال آخر— يروي لنا ما شاهد، وما قص عليه، ببلاد السودان عن أكلة بني آدم، والأسلوب هذه المرة أميل إلى الطرفة والاستفاضة في الإمتاع.

لا يتعلق الأمر إذن بمجرد افتراس آدمي، بل هناك تطلع مشرب بالانتقائية لتحقيق اللذة الكاملة، لذا ينفرد السلوك بالإحالة على ما يمكن نعته "بأخص الأخص" المنبث عبر الثدي والكف، والمرتكز على طقوس معينة تعكس هذه الخصوصية. "فالأعم" هو افتراس الآدمي، و"الأخص" هو أن يكون هذا الآدمي أنثى، و"أخص الأخص" هو افتراس ثديها أو كفها بالذات، مع ما يرافقه من تلطيخ الوجوه والأيدي بدم الفريسة. فماذا يعني هذا التسلسل في المراتب؟ وعلى أي منطق يستند ليتحقق على أرض الواقع؟

إذا عدنا إلى الوراء قليلا، في قراءة استطلاعية لما سجلنا بخصوص واقعة الافتراس ببلاد السودان، أمكننا رصد عناصر الإجابة، أو لأجل توخي الدقة، عنصري الإجابة:

أولا: في مدلول ما نعتناه "بالذوق الجماعي العام" نكتشف خطاطة التسلسل في مستويات اللذة. وسنرى عند حديثنا عن "الثأر" أن هناك مستويات للشعور تحقق وترصد من خلال السلوك.

ثانيا: لا يتعلق الأمر بافتراس استثنائي أو ظرفي كحالة المجاعة أو الثأر مثلا، بل بحالة متكررة متجددة حصلت على اعتراف رسمي وتزكية سلطانية، فأصبحت تنعم بالتموين والحماية، وهي لذلك لا تتورع عن المجاهرة بالافتراس، ولا يفتأ المفترسون يطالبون، أو على الأقل ينتظرون "الوليمة" عند كل زيارة. أما المجتمع الذي يقع فيه الافتراس فلا يعبأ بالتبرؤ منه أو رفضه مع ما يواكب ذلك من "لا مبالاة جماعية".

هذه ثنائية الجواب الثابتة، التي شرعت ونفذت للسلوك ببلاد السودان، بينما يختلف الأمر قليلا ببلاد التلنك، بحكم أن الافتراس غير مشرعن له من طرف السلطة، لذلك فهو المضمر/المكشوف في آن واحد، المستتر عبر ممارسات "الكفتار"، المتكثّر بكثرتهم، وهو لأجل ذلك مكشوف للعموم، مستعص على البتر رغم انكشافه، جاثم على المجتمع، متربص بقلوب أطفاله، كأنه قدر محتوم، وأقصى ما يمكن أن يقوم به المجتمع كرد فعل، هو اللجوء للقضاء، بعد وقوع "الافتراس" وليس قبله، لإنزال العقاب على "الجاني". وبما أن هذا

الجاني ليس نشازا، حالة شاذة، بل طائفة معروفة – تزاحمها أحيانا على السلوك نفسه طائفة أخرى معروفة أيضا هي "الجوكية" – فإن المجتمع يقنع نفسه "بالنسيان"، في انتظار افتراس جديد.

"أكلة بني آدم" في بلاد السودان لا يتورعون عن المجاهرة بسلوكهم أمام الجميع، فسلوكهم اكتسب الشرعية من المجتمع والسلطة الرسمية. "طائفة الكفتار" في بلاد الهند، معروفة لدى الجميع، إلا أنها لا تجرؤ على المجاهرة بسلوكها، فهي لا تملك الشرعية لإظهاره على الملأ. من هنا، علينا أن ندرك أن ما يمنع "المفترسين" المعاصرين - الذين يعيشون بيننا - على الظهور (تنظيم أنفسهم في جماعات معروفة) هو خوفهم من العقاب لا غير: فسلوكهم غير مشرعن له من طرف مجتمعاتهم الحاضنة.

لكن في الهند كما في السودان، كما في وقتنا الراهن، ورغم الاختلافات الهيكلية في تشييد السلوك، فإن السمة القارة الدالة على الدافع أو الحافز، تحيل على رمز "اللذة". اشتقاق السلوك في جميع الحالات واحد، رغم اختلاف المجتمع الحاضن، رغم اختلاف التوترات الظرفية، رغم النفور الجماعي المترائي، كالسراب، خلف الفعل المتطرف الدامي، رغم المضاعفات التي تنجم عن الصمت المتواطئ، الرسمي أو الشعبي، إزاء هذا السلوك... فالحافز واحد أوحد، لا يكاد يقلق راحته أحد، يرتقي فوق الجميع، دون أن يكلف نفسه حتى القليل من المناورة أو المداراة، يختبئ في الأعماق النفسانية خلف منشطات عاطفية وجدانية، يحتفظ بصفاء مواصفاته "الهوهوية" كمحفز مرجعي أولي قابل للتكيف مع وضعيات مختلفة، متوثب باستمرار، في انتظار أن يُفجّر فعل "الافتراس".

للمزيد من الاطلاع

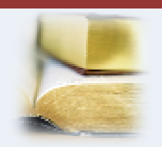
- صنف الأطباء السيد كرايو Garayo معتوها ومختلا عقليا – في ق.١٩م – نتيجة صدمة في دماغه وزواج تعس. كان "كرايو" يخنق النساء، غالبا العوانس، ويأكل أشلاء من أجسادهن، وكانت الحالة تنتابه خصوصا في فصلي الشتاء والربيع.
- أندري بيشيل André Bichel، كان يغتصب الفتيات، يضربهن حتى الإغماء ثم يقوم بشق صدورهن: "أثناء العملية كان ينتابني شعور عنيف بقطع بعض الأجزاء وأكلها" اعترف قائلا.
- السيد Léger - ٢١ سنة – اغتصب فتاة عمرها ١٢ سنة، ثم مزق أعضاءها التناسلية، وانتزع قلبها وأكله، ثم شرب دمها قبل أن يقوم بدفنها.
- الراهب والأب الإيطالي Giuseppe Cravero اعترف سنة ١٩٧٣م بأنه أكل مع هنود برازيليين في ريو نيكرو Rio Negro لحما بشريا مطبوخا، وعلل ذلك بقوله: "عندما يكون لنا أصدقاء يجب أن نتقاسم معهم أفراحهم وأحزانهم"، بل إنه قدم وصفة لما أكله: "يطبخ اللحم الآدمي لمدة طويلة حتى يفصل عن العظام، ثم يفرم بعد ذلك ويترك جانبا. تحضر عصيدة من الموز تخلط مع الرماد الآدمي. تخلط جميع العناصر لتكون عجينة تدلك جيدا وتقدم للأكل."
- في سنة ١٦١٠م ضبطت "كونتيسة باتري La Comtesse de Bathory" وهي تستمتع داخل حمام من الدم. هذه "السادية" نحرت ٦٥٠ فتاة من خادماتها لتأكل بعض لحمهن وتشرب بعضا من دمهن قبل أن تستمتع داخل حوض "حمامها الدموي"، هذه كانت هوايتها المفضلة، وكانت تقوم بها كل مرة تحن إليها.
- في عام ١٩٨٩م، بضواحي نيويورك، أكل دانييل روكوفيتز Daniel Rokowitz صديقته مونيكا بيرل Monika Beerle، بعد قتلها: "طبخت الرأس ونزعت المخ وحضرت منه حساء، كان طعمه لذيذا".
- في ١٩٩٦م أوقفت شرطة بنوم بين Pnom Penh (كمبوديا) طباخا اتهم بقتل مواطنة سويسرية وصنع من لحمها حساء تقليديا، وتم العثور على أرجل الضحية في مكان الزبالة.
- في يناير ١٩٩٤م أعدمت السلطات الصينية المفترس هاو كاي Hao Kai بتهمة قتل ثمانية أفراد وانتزاع أمخاخهم وأكلها، وهو ما اعترف به المتهم أثناء التحقيق مضيفا بأنه أكلها مع بعض التوابل.
- دمبا أبو Demba Abou، غيني في الثلاثينيات من العمر، قبض عليه في شتنبر من سنة ١٩٩٥م لأنه قتل فتاة وصنع من لحمها شواء. آكل البشر هذا أصله من كينديا Kindia (١٥٠ كلم شمال غرب العاصمة كوناكري). احتجز ضحيته عندما كانت في طريقها إلى السوق (المقام بقرية مجاورة)، اغتصبها، ثم أكل خديها نيئين. بعد ذلك بقر بطنها وانتزع الكبد وقطعه على شكل مكعبات صغيرة بهدف شوائها، لكنه لم يستسغ الطعم، فأخذ ساطوره واقتحم على بعض الجيران منازلهم وطلب منهم بعض الملح والمتبلات، ثم عاد إلى وجبته والتهمها عن آخرها قبل أن يمسك به الأهالي ويسلموه للشرطة.
- كيوم بوتيي Guillaume Potiez شاب بلجيكي (٣٢ سنة) من أصل بورندي، قتل في دجنبر ١٩٩٤م صديقه فيليب فان دير شتارتن Philippe Van der Starten (٣٨ سنة) وقطع من الجثة قطعا ابتلعها نيئة.
- أوقفت الشرطة (١٩٨٩م) في لوساكا (بزامبيا) رجلا قام بشيّ رضيع (أربعة أشهر) وأكله بعد أن اختطفه من أمه. بعد التحقيق معه تبين أنه خرج من السجن توا بعد أن قضى فيه خمسة أعوام لأنه كان قد أكل أحد أطفاله.
- في الكوت ديفوار حكم بثلاث سنوات؟[٩] نافذة على مفترسين آدميين في سنة ١٩٩٧م، حسب زعمهم هم لا يأكلون الحم الآدمي أبدا، لأنه قبل الأكل كانت لهم قدرة غريبة على تحويل ضحاياهم (الخمسة والثلاثين) إلى "أغوطيات" (الأغوطي حيوان شبيه بالأرنب).
- بسوازيلاند (جنوب أفريقيا) أمسك أحد السحرة طفلا عمره ١٢ سنة وربطه إلى جذع شجرة عند بحيرة بحيث يغوص كل الجسد إلى العنق. كان ذلك ليلة رأس السنة (عام ١٩٤٩م)، واستمر يطعمه لمدة تسعة أشهر، "حتى يصبح الجلد أبيضا" – كما اعترف الساحر أثناء التحقيق وفي نهاية شتنبر ١٩٥٠م قام بذبحه وتقطيعه إلى أجزاء لتحضير يخنة Ragout سحرية، قدمت لأحد عشر ثريا اشتروها بثمن باهظ.

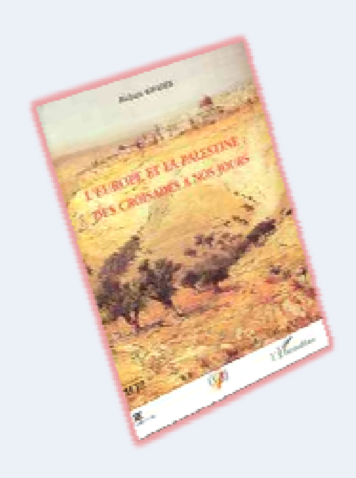
د. عبد العزيز غوردو في سطور:

باحث وكاتب مغربي من مواليد بوجدة عام ١٩٦٤. أستاذ المناهج والتوثيق بكلية الآداب_وجدة. عضو معهد التاريخ والحضارة. عضو مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. عضو المكتب التنفيذي لمركز الأبحاث والدراسات في المجتمع المدني والمناهج التربوية.



٩ - ثلاث سنوات في الكوت ديفوار، خمسة عشر سنة في حالة المهندس الألماني: ترى ماهي العقوبة المثلى للافتراس الآدمي؟





أوروبا وفلسطين: من الحروب الصليبية إلى العصر الحديث

L'EUROPE ET LA PALESTINE DES CROISADES A NOS JOURS

المؤلف : بشارة خضر *Bichara Khader*
أستاذ بجامعة لويفان (لوزان) الكاثوليكية – بلجيكا
منشورات لاهرماتان Coédition L'Harmattan سلسلة فهم الشرق الأوسط ،(٥٧٤) صفحة



عرض
د.صفوت حاتم

مقدمة

تحكي الأسطورة القديمة الموغلة في القدم أن الملك الفنيقي " آجينور" (ملك بلاد كنعان وفلسطين) أنجب من زوجته " تليفاسا " صبية رائعة الجمال أسمياها " أوروبا". وحدث ذات يوم أن رأى الإله الإغريقي " زيوس " أوروبا وهي تلعب مع قريناتها على شاطئ البحر فوقع في حبها على الفور وقرر أن يحتفظ بها لنفسه . وفكر "زيوس " في أن يجذب انتباه الفتاة الجميلة إليه فتنكر في شكل ثور أبيض وأختلط بالبنات اللاهيات على شاطئ البحر. وما لبثت " أوروبا" أن وجدت في هذا الثور الأبيض كثير من اللطف والنعومة ما أغراها بالصعود على ظهره . وما أن استقرت على ظهره حتى هب واقفا وخاض بها البحر حتى وصل إلى جزيرة " كريت " حيث كشف لها عن حقيقته وأعلن لها عن هيامه بها. وهكذا تزوج " زيوس" من " أوروبا " تحت شجرة دلب ستبقى خضراء طول العمر .

وأنجبت " اوروبا " من " زيوس " ثلاثة ذكور هم : " مينوس " و "رادامانتا " و " ساربيدون". ويقرر الملك " آجينور " الملتاع على أبنته الجميلة " أوروبا " أن يرسل في البحث عنها أولاده الثلاثة : " سيلكس " و " فينيقوس " و " قدموس " وسترحل معهم في رحلة البحث عن " أوروبا " أمهم " تليفاسا" . وينجح " قدموس " الذي يعني أسمه " الشرق" في الوصول إلى شبه القارة اليونانية حاملاً معه من أرض كنعان " الألفا باء " ويتوج ملكا ويطلق على الأرض الجديدة أسم أخته التائهة " أوروبا".

وهكذا ستعطي أرض فلسطين للقارة الجديدة أسم أميرتها المخطوفة " اوروبا " . ولكنها تعطيها في نفس الوقت شيئا آخر أتي به "قدموس" من أرض فلسطين ، حيث سينقل معه للأرض الجديدة المعرفة العلم ممثلً في الأبجدية "الألفا باء"

بهذه الأسطورة يبدأ بها " بشارة خضر " كتابه عن علاقة أوروبا بفلسطين منذ فجر التاريخ.. وهي أسطورة تلخص في مجملها العلاقة العجيبة التي ربطت منذ زمن موغل في القدم بين أوروبا وهذه القطعة الصغيرة من أرض الشرق التي سميت فيما بعد بأرض " فلسطين" .

هدف الكتاب

ورغم أن فصول الكتاب ومنهج التناول وطريقة السرد تمت صياغتها بشكل يخاطب بشكل أساسي القارئ الأوروبي الذي يجهل كثير من التفاصيل المتعلقة بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني. إلا أن هذا المنهج وذلك السرد لم يمنعا من كون العديد من فصول الكتاب وكثير من المعلومات التي ذكرها تظل جديدة على القارئ العربي المهتم بفصول الدراما الفلسطينية ، فضلاً عن أهميتها للباحث المتخصص في الشئون الفلسطينية و صانع القرار السياسي لفهم الخلفيات التي تحكم الأطراف التي تتعامل مع هذه القضية .

ويبدأ الكاتب عمله التوثيقي عن العلاقة بين أوروبا وفلسطين بالتأكيد على مفهوم " عقدة الخوف " التي ربطت منذ قرون بين العرب والأوروبيين والكامنة في وعي كل منهما تجاه الآخر . ويرى الكاتب أن التاريخ الملتبس والدامي بين الطرفين سيظل محكوما حتى يومنا هذا بتاريخين معينين كان لهما السطوة الكاملة على اللاوعي الغريزي للعرب والأوروبيين. التاريخ الأول هو عام ٧١١ ميلادية وهو تاريخ بداية الوجود العربي في الأندلس ، والتاريخ الثاني هو عام ١٠٩٩ : تاريخ تأسيس الإمبراطورية اللاتينية في القدس بعد الحملة الصليبية الفرنجية.

ورغم أنه لا يمكن مقارنة الوجود العربي في الأندلس بالوجود الصليبي في الأرض العربية من الناحية الحضارية . إلا أن "عقدة الخوف" المتبادلة بين الطرفين ظلت مستعرة حتى يومنا هذا. ففي الجانب الأوروبي ظلت بعض الدوائر السياسية والفكرية من اليمين إلى اليسار تغذي هذه العقدة خصوصا بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران وصعود التيار الإسلامي شعبيا في العديد من البلدان الإسلامية. وهذا يفسر – على حد قول الكاتب - الانتشار غير العادي لمقالة " صامويل هنتجتون" عن صدام الحضارات في عديد من الأوساط الفكرية والثقافية الغربية رغم تهافت منهجه العلمي وتبسيطه المبتذل للعلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية . ورغم هذا فقد تبنت الأوساط السياسية الغربية مقولات " هنتجتون " في صياغة مفاهيم سياسية وأهداف إستراتيجية للتعامل مع الدول الإسلامية بشكل خاص وبلدان الجنوب بشكل عام.

أما في الجانب العربي فقد ظلت ذكريات الحروب الصليبية هي المغذي لرؤية العرب للغرب. بل أن كثير من العرب لا يرون إنشاء دولة إسرائيل إلا من خلال منظور الحرب الصليبية وإنشاء أول إمبراطورية صليبية على أرض فلسطين عام ١٠٩٩ ميلادية .

والكتاب يبدأ بوضع الصورة العامة التي كان يعيش في ظلها العرب والأوروبيين عشية الحروب الصليبية. وفيما يمكن استخلاصه من هذا السرد أن المواجهة السياسية بين الطرفين كانت فيما يبدو " حتمية " نظرا للأوضاع السياسية التي كان يعيش في ظلها الطرفان ، فالعالم العربي كانت تتقاسمه ثلاثة قوى سياسية : الدولة العباسية ومركزها بغداد .. الدولة الأموية ومركزها قرطبة .. الدولة الفاطمية ومركزها القاهرة. ولا ينسى الكاتب أن يذكرنا أن هذه القوى الثلاثة كانت تتنازع

فيما بينها لقب " الخلافة الإسلامية " وتدعي كل منها أحقيتها بقيادة المسلمين دون الآخرين مما جعل من الإسلام والدين الإطار التبريري للصراعات السياسية خصوصا عندما فرض الفاطميون على المناطق التي يحكمونها المذهب الشيعي في مواجهة المذهب السني الذي كان سائدا في بقية أنحاء العالم العربي.

أما أوروبا المسيحية فقد كان يتنازعها إمبراطوريتان سياسيتان تعتمد كل منهما على مرجعية دينية مختلفة. فالإمبراطورية البيزنطية في الشرق وكانت تابعة للكنيسة البابوية في القسطنطينية. الإمبراطورية الثانية هي الإمبراطورية اللاتينية الجرمانية في الغرب والتي كانت تابعة للكنيسة البابوية في روما.

هل كان لهذه الصراعات السياسية المتخفية بالدين دور في الصدام الحتمي بين شاطئ المتوسط والذي سيكون الدين هو تبريره الأعلى والحروب الصليبية هي أداته المباشرة ؟ يبدو أن الكاتب يميل لهذا الاعتقاد. فهو يرى أن هزيمة الإمبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة الأتراك المسلمين عام ١٠٧١ واستيلائهم على كل آسيا الصغرى كان بداية التفكير العملي في الحروب الصليبية. ففي أعقاب هذا الاجتياح التركي طلب الإمبراطور "ميشيل السابع"عام ١٠٧٣ دعم البابا " جريجوار السابع " لنجدة مسيحيي الشرق. ولكن انشغال البابا بالحرب ضد الإمبراطورية الجرمانية لتكريس سلطته عمل على عدم تحقيق مشروع الحرب الصليبية. ولكن ما تلبث أن تنتعش الدعوة مرة أخرى مع عام ١٠٨٩ عندما بدأت المفاوضات بين البابا " أوربين الثاني " والإمبراطور البيزنطي " الكسيس " للحصول على دعم كل منهما للآخر. فالبابا كان يواجه الإمبراطور"هنري الرابع" ، والثاني كان يواجه التوسع النورماندي .

وبمجرد أن تدعمت سلطة البابا " أوربين الثاني " في مواجهة "هنري الرابع" حتى انفتح الباب على مصرعيه للحملات الصليبية. الحملة الأولى عام ١٠٩٦ ، الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧ (كونراد الثالث و ولويس السابع) ، الحملة الصليبية الثالثة عام١١٨٩(فردريك باربروس وفيليب أوغست وريتشارد قلب الأسد) ، الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٢ (بودوان التاسع وبونيفاس دو مونتفيرا ولودوج داندولو) ، الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٧ (ملك بلغاريا ندريه الثاني وجان دو بريان) ، الحملة الصليبية السادسة عام ١٢٢٨ (فردريك الثاني) ، الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٤٨ (سان لويس) ، الحملة الصليبية الثامنة عام ١٢٧٠ سان لويس وإدوارد ملك إنجلترا .

نهاية الحملات الصليبية ١٢٩١

ويذكر المؤلف في تقييمه للحروب الصليبية كيف كان الدين هو الإطار التبريري الذي أستخدم في تبرير ما هو سياسي واقتصادي وعسكري . بل إن المؤلف يكشف في هذا الفصل عن الاضطهاد الذي لاقاه اليهود والمسيحيين الشرقيين والمسلمين بالطبع على يد الصليبيين . ورغم أن الإمبراطورية البيزنطية المسيحية كانت هي التي طلبت النجدة من الإمبراطورية اللاتينية المسيحية أيضا ، لكن الحملات الصليبية ستدور في عكس مصالح المسيحيين الشرقيين في القسطنطينية . وتذكر " سيسيل موريسون " في كتابها : " أن الحملات الصليبية لم تسفر إلا عن تردي في العلاقات بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الأرثوذكس". ومع بداية عام ١٢٦٠ ستتولى المماليك حكم مصر وفلسطين وسوريا . ولن يلبث أن يظهر من بينهم المملوك " بيبرس " الذي سينتصر عام ١٢٩١ على سان جان ملك عكا لتنتهي بذلك الموجات الصليبية على فلسطين والعالم العربي التي استمرت لمدة قرنين من الزمان ، وسينجح المماليك في فرض حكمهم على كل من مصر وسوريا وفلسطين لمدة قرنين ونصف كوحدة إدارية وسياسية واحدة (هل هي مجرد مصادفة تاريخية ؟) حتى ينتزع منهم العثمانيون حكم الشرق العربي.

حلم نابليون الإمبراطوري

من الشائع أن الهدف الأول للحملة الفرنسية على مصر هو قطع طريق المواصلات البحرية بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند. في هذا الفصل يوضح الكاتب أن حلم " نابليون " في تكوين إمبراطورية شرقية هو امتداد للحلم الصليبي الأوروبي الذي كان يرى في السيطرة على الشرق مبعث للمجد والقوة . لقد كان "نابليون" يعتقد في ضرورة تأسيس إمبراطورية برية لمواجهة الإمبراطورية البحرية المترامية لعدو فرنسا اللدود إنجلترا ، وأن هذا لن يتحقق إلا بغزو مصر والشرق العربي أما من الناحية الاقتصادية الاستعمارية فقد أرادت فرنسا تعويض مستعمراتها التي خسرتها أمام الإنجليز في كندا والقارة الأمريكية.

نداء بونابرت لليهود

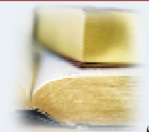
الجزء المهم في هذا الفصل هو الخاص بالجدل الذي أثير حول صحة نداء " نابليون " ليهود أفريقيا وآسيا الصغرى للاصطفاف تحت قيادته لاسترداد "إمبراطورية القدس القديمة ". وأول من كتب في هذا الموضوع - كما يقول المؤلف - هو الكاتب الصهيوني " ناحوم سوكولو " في كتابه " تاريخ الصهيونية " المنشور عام ١٩١٩ مؤكداً صحة هذه الدعوة ومستندا في هذا إلى خبرين تم نشرهما في الجريدة الرسمية " مونيتور يونيفرسل " ويرجع تاريخهما إلى ٢٢ مايو/ آيار و٢٧ يونيو / حزيران من عام ١٧٩٩ عن دعوة " بونابرت " لليهود بإقامة دولة لهم في القدس وفلسطين.

بينما يدعي كاتب صهيوني آخر هو " فرانز كوبلر " انه عثر على النص الكامل لدعوة" نابليون " وأنها كانت بتاريخ ٤ ابريل / نيسان عام ١٧٩٩ أثناء حصاره لمدينة عكا الفلسطينية. ويذكر المؤلف أن عددا من الباحثين الجادين قد شككوا في صحة هذه " الدعوة " لأسباب عدة منها : أن خطاب الدعوة يقول أن " بونابرت " كتبه وهو في القدس بينما تاريخ الحملة الفرنسية على فلسطين يقول أن " نابليون" لم يطأ أبدا هذه المدينة.

الأمر الثاني أن أسم الحاخام الذي حمل نداء " بونابرت " إلى اليهود وهو الحاخام " هارون بن ليفي " هو اسم وهمي ليس له أي وجود في تاريخ يهود القدس أثناء هذه الحقبة. الأمر الثالث أن أرشيف الحملة الفرنسية يخلو تماماً من أي ذكر لهذه النداء فضلاً عن عدم ذكره من شهودها الذين رافقوها وأرخوا لها .

الأمر الرابع أن "نابليون" نفسه لم يذكر شيئا عن هذه "الدعوة" في مذكراته الشخصية التي كتبها في المنفى في " سانت هيلانة " . الأمر الخامس أن " نابليون " ذكر في حديث له يوم ١٥ يناير ١٨١٧(والذي سجله " جوروجو ") أن اليهود يرغبون في إعادة هيكل سليمان وأن تقديره هو شخصياً أن هذا أمر غير ممكن الحدوث.

ويعقب المؤلف على هذا الخلاف بقوله : " سواء كان دعوة " نابليون " لليهود صحيحة أم لا — كما يحاول الإدعاء الكتاب الصهاينة



ـ فإن دلالة ذلك الأمر أن دور اليهود في المشروع الاستعماري للإنجليز والفرنسيين كان قد بدأ يداعب خيال القوتين الاستعماريتين مع نهاية القرن الثامن عشر.

قيام الدولة العبرية ١٩٤٨

يناقش المؤلف في هذا الفصل الظروف التي صاحبت نشأة الدولة العبرية وظهور المأساة الفلسطينية. ويرى المؤلف أن الدول الأوروبية حاولت إحداث نوع من التوازن بين المصالح اليهودية والمصالح العربية من خلال قرار التقسيم، إلا أن الحرب وتوازنات القوى بين العرب واليهود جاءت كلها لصالح إسرائيل. ويرى المؤلف أن أوروبا لم تقدر - آنذاك - حجم المأساة الفلسطينية المترتبة على التهجير القسري الذي مارسه الإرهاب الإسرائيلي. ولكن الجدير بالذكر في هذا الفصل هو ما كتبه المؤلف عن أشكال المعارضة للمشروع الصهيوني الذي أظهرته بعض الدوائر الأوروبية وبشكل خاص الدوائر المسيحية. ويذكر المؤلف في هذا الصدد مواقف الحزب الاشتراكي المسيحي في بلجيكا، جماعة الشهادة المسيحية في فرنسا، وصحيفة الصليب الفرنسية وبدرجة أقل صحيفة "الفيجارو" وقد أدانت هذه الأخيرة على لسان "فرانسوا مورياك" الأعمال الإرهابية لعصابة "شترين".

ويذكر الكاتب أن وضع القدس والأماكن المقدسة كانت هي الموضوعات التي احتلت الاهتمام الأكبر من الدوائر المسيحية الكاثوليكية ومعارضتها الأساسية.

ومن المعلومات التي يذكرها الكاتب في هذا الفصل أن عددا من الدول الأوروبية ظلت مترددة في الاعتراف بالدولة العبرية بسبب الوضع غير الواضح للأماكن المقدسة وهو يفسر تأخر اعتراف الدول الأوروبية بالدولة اليهودية. فلقد اعترفت فرنسا - مثلا - بإسرائيل في ٢١ مايو/ آيار ١٩٤٩ واعترفت بها إنجلترا في ٢٧ إبريل / نيسان ١٩٥٠ (رغم أنها هي التي مهدت لنشأة الدولة اليهودية ومسؤولة بالكامل عن مأساة الفلسطينيين). وينصح المؤلف الباحثين العرب بالتدقيق في مواقف الدول الأوروبية من مسألة الاعتراف بالدولة العبرية والمسألة الفلسطينية آنذاك. ويأخذ الكاتب مثالاً على ذلك موقف بلجيكا، وبشكل خاص رئيس وزراءها "بول هنري شباك" (المجهول في الدراسات الفلسطينية والعربية على حد قول المؤلف) والذي كان معارضا لقرار تقسيم فلسطين وصرح في مناقشات البرلمان البلجيكي أن إنشاء دولة يهودية في المنطقة يشكل "مشكلة جدية وخطراً على العالم العربي.. فهذه الدولة ستكون على حساب الفلسطينيين في البدء ثم على حساب البلدان العربية فيما بعد".

وستظهر المعارضة البلجيكية في مواضع مختلفة من تاريخ الصراع آنذاك. ورغم أن بلجيكا اضطرت للاعتراف بإسرائيل كأمر واقع de facto في ٢٩ يناير / كانون الثاني عام ١٩٤٩، إلا أنها ستنسحب من التصويت على انضمام إسرائيل للأمم المتحدة في ١١ مايو / أيار ١٩٤٩ وسيعلن المندوب البلجيكي أن وضع الأراضي المقدسة ووضع اللاجئين الفلسطينيين وحدود الدولة اليهودية هي أمور لازالت بدون حلول عملية.

ويذكر المؤلف أن أشد المتحمسين لهذا الموقف كانت الدوائر الكاثوليكية وبشكل خاص صحيفة "بلجيكا الحرة" بينما كان الاشتراكيون والشيوعيون هم أشد المنتقدين لموقف حكومتهم !! وعندما اعترفت بلجيكا بالدولة اليهودية اعترافاً قانونياً de jur في ١٦ يناير / كانون الثاني ١٩٥٠ لن تتردد وزارة الخارجية البلجيكية في إصدار تصريح يقول أن الاعتراف بالدولة اليهودية لا يعني الاعتراف بالحدود التي تمارس عليها سيادتها الوطنية ولا موقفها من وضع الأراضي المقدسة". وهو ما كان يعني عدم الاعتراف بالخطوات التوسعية التي فرضتها إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨.

ومما يذكره الكاتب في هذا الفصل أن الأحزاب الاشتراكية، وبدرجة أكبر الأحزاب الشيوعية الأوروبية كانت هي أكثر الأحزاب تحمسا للدولة الإسرائيلية وأكبر داعية للاعتراف بها !!ويرى الكاتب أن تفسير ذلك يعود لارتباط الأحزاب الشيوعية الأوروبية بمواقف الإتحاد السوفيتي الذي كان أول دولة تعترف قانونيا بالدولة اليهودية فور قيامها. بل أن الإتحاد السوفييتي وضع من نفسه محاميا للدفاع عن إسرائيل وداعية للاعتراف بها !!

حقبة الحرب الباردة ١٩٤٨-١٩٦٧

في هذا الفصل يذكر المؤلف أن الظرف التاريخي الذي أعلنت فيه الدولة اليهودية كان ظرفا مثاليا. إذ ترافق نشوءها مع دخول النظام الدولي في مرحلة الحرب الباردة وانقسام القطبية بين أمريكا وروسيا. ونتيجة لهذا حصل المشروع الصهيوني على أكبر دعم له من ثلاث قوى عظمى هي الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا. في الوقت الذي كانت تواجه فيه حركة التحرر العربي هذه القوى الثلاث في مصر والمشرق والجزائر وباقي بلدان المغرب العربي. ولكن الملاحظ لوقائع هذه الحقبة سيرصد أيضا التغير الذي حدث في مواقف الإتحاد السوفييتي من مؤيد متحمس للدولة اليهودية إلى مؤيد متحمس لحركة التحرر العربي. ويرى المؤلف أن تغير موقف الإتحاد السوفييتي لا يمكن فهمه على أساس أنه تغير في عقيدة الأحزاب الشيوعية السوفياتية من المسألة اليهودية بقدر ما يمكن فهمه في ضوء الصراع مع الكتلة الرأسمالية واستخدام هذه الأخيرة للدولة اليهودية كرأس رمح في مواجهة الوجود الشيوعي في الشرق الأوسط.

ولكن الدعم الغربي والأوروبي بالذات للدولة اليهودية سيعمل على فقدان الغرب لمصداقيته في الشرق العربي وستظل الشكوك تحيط بموافقته حتى هذه اللحظة. ولن ينجو من هذه الشكوك سوى فرنسا التي كانت قد بدأت تخرج في أواسط الستينات من عقدة الجزائر وتعاظم مصالحها الاقتصادية والجاسوسية في منطقة البحر المتوسط وظهور الانشقاق بينها وبين دول حلف الأطلنطي في حقبة الرئيس شارل ديجول" أو بداية ما سُمي "بسياسة فرنسا العربية". ورغم أن فرنسا حاولت دفع اوروبا لتبني طريق خاص فيما يتعلق بالصراع العربي الصهيوني أكثر توازنا، إلا أن اللامبالاة ظلت هي السياسة السائدة في التعامل مع الحقوق العربية حتى نكسة يونيو ١٩٦٧ حيث بدأت المأساة الفلسطينية تكسب اهتمام أوروبا.

ولا ينسى المؤلف هنا أيضا إلى التنويه بموقف الأحزاب الاشتراكية والشيوعية الداعم للمواقف الإسرائيلية تحت تأثير النموذج الاشتراكي وتجربة الكيبوتزات التي كان يقودها حزب العمل الإسرائيلي.

حرب أكتوبر ١٩٧٣

بعد حقبة من الغياب الأوروبي عن الساحة العربية خلال حقبة الحرب الباردة التي ترك أثناءها المسرح خاليا إلا من لاعبين أثنين هما: أمريكا وروسيا وحتى عام ١٩٧٣. ففي هذا العام بالذات أفاقت

أوروبا على حرب عسكرية حقيقية تهدد مصالحها في البحر المتوسط . وبعد قطع البترول العربي تأكد لدي الأوربيين الشعور أن الصراع العربي الإسرائيلي هو أحد المؤثرات الهامة على تطور المجتمعات الأوروبية وأنه من غير الصحيح ترك حقيبة الشرق الأوسط كاملة في يد الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها .

وهكذا جاء رد الفعل الأوروبي مبكرا في ٦ نوفمبر ١٩٧٣ ، حيث طالبت دول الإتحاد الأوروبي التسع (في هذا الوقت) بعودة المتحاربين لخطوط القتال القائمة قبل ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ وعدم ضم الأراضي بالقوة واحترام سيادة كل دول المنطقة . وكان من الطبيعي أن يستقبل هذا الإعلان بشكل سلبي من الدولة اليهودية والولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن رصد مسالتين تميزان حقبة السبعينات فيما يخص الصراع العربي الإسرائيلي . المسألة الأولى أنه رغم اقتراب الموقف الأوروبي من الموقف العربي بعض الشيء إلا أن أوروبا ظلت ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني وترفض دعوتها للمشاركة في الحوار العربي الأوروبي .

المسألة الثانية هي معارضة الولايات المتحدة الأمريكية لجهود الحوار العربي الأوروبي ومطالبتها الدول الأوروبية بضرورة مشاورتها قبل اتخاذ إي تدابير مع الدول العربية . ووصل الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧٤ إلى حد الدعوة إلى تكوين جبهة من الدول المستهلكة للبترول للوقوف في مواجهة الدول العربية البترولية خوفا من حدوث اتفاقات منفردة بين الدول الأوروبية والدول العربية البترولية .

ويذكر المؤلف أن هذه الحقبة تميزت بمحاولات وزير الخارجية الأمريكي " هنري كيسنجر " إقصاء أوروبا عن كل المناورات السياسية والجهود الدبلوماسية التي كان يقوم بها في المنطقة . ووصل الأمر بالرئيس " نيكسون " في خطاب ألقاه يوم ١٥ مارس ١٩٧٥ إلى حد رفض الحوار العربي الأوروبي واعتباره " مؤامرة أوروبية " موجهة ضد المصالح الأمريكية . وقد أثمرت الضغوط الأمريكية عن سحب موضوع الطاقة والبترول من الحوار العربي الأوروبي من ناحية . ومن ناحية ثانية عن إنشاء الوكالة الدولية للطاقة عام ١٩٧٥ التي ضمت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية فيما عدا فرنسا التي رفضت الانضمام لها ؟ !

حقبة ما بعد كامب ديفيد ١٩٨٠-١٩٨٩

هذه الحقبة تتميز — كما يقول المؤلف — بدرجة أعلى من التبلور والوضوح في مواقف أوروبا من القضية الفلسطينية ، مثلا : الدعوة لحكم ذاتي للفلسطينيين .. إدانة العنف الإسرائيلي في الأراضي المحتلة .. تنمية العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية معارضة إجراءات التهويد التي تمارسها إسرائيل في القدس .. إدانة المستوطنات..الخ .

ويرى المؤلف أن الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت عام ١٩٨٧ وما رافقها من قمع إسرائيلي وحشي ثم الحصار الاقتصادي على البضائع الفلسطينية ومنع تصديرها للخارج وإغلاق الجامعات الفلسطينية كان له دور كبير في بلورة المواقف الأوروبية باتجاه دعم الأماني المشروعة للشعب الفلسطيني وصلت إلى حد اتخاذ الإتحاد الأوروبي لتدابير عقابية بحق إسرائيل التي كانت تعتبر دولة فوق العقاب ولا يمكن المساس بها .

هذه الحقبة ستنتهي بالحدث الأكثر جذرية في العلاقات الأوروبية الفلسطينية وهو دعوة السيد ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى زيارة مدريد وباريس واستقباله كزعيم دولة عام ١٩٨٩ . ولا ينسى الكاتب أن يشير في استعراضه لتاريخ هذه الزيارة أنه كان عام انهيار الكتلة الشيوعية وتحسن الوضع العربي بعودة مصر للعالم العربي وتكوين مجلس التعاون العربي والإتحاد المغاربي .

انتهت حقبة الثمانينات - إذن - بالحدث الأكثر دراماتيكية في السياسة الدولية وهو سقوط الإتحاد السوفييتي والمعسكر الشيوعي وسقوط حائط برلين ونهاية الحرب الباردة .

ويرى الكاتب أن المميز الحاسم للسياسة الأوروبية في هذه الحقبة هو إنعتاقها أو تحررها من القوالب السياسية التي فرضتها على العالم القطبية الثنائية التي ميزت حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد فرض سقوط الكتلة الشيوعية ونهاية الحرب الباردة مواجهة الأسئلة المؤجلة حول الهوية الأوروبية والعلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومستقبل القارة الأوروبية .

حرب الخليج المشئومة ١٩٩٠-١٩٩١

يذكر المؤلف هنا أن أوروبا فشلت في أول أزمة دولية بعد نهاية الحرب الباردة لتأكيد استقلالها عن الولايات المتحدة الأمريكية . فهذه الأخيرة قادت الأزمة واحتكرت بدون منافسة سياسية جدية القرارات الإستراتيجية فيها من أول قرار إرسال جنودها للمنطقة انتهاء بالمناورات السياسية الجانبية .

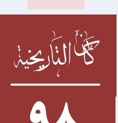
وكالعادة حاولت فرنسا في بداية الأزمة أن تلعب دورا مستقلا عن الدور الأمريكي والبريطاني برفع شعار " حل الأزمة داخل المؤسسات العربية" إلا أن الضغوط الأمريكية نجحت في جر الدول الأوروبية كلها إلى الحرب . أن التحليل الأخير لهذه يؤكد أن أوروبا كانت الخاسر الأكبر في هذه الحرب . لقد فازت الولايات المتحدة بكل جوائز الحرب بينما تحملت أوروبا كل النفقات المادية وخسرت رصيدها السياسي في العالم العربي .

لقد كشفت هذه الحرب - بشكل غير مسبوق - عن الخلل الداخلي الخطير الكامن في الجسد الأوروبي وبشكل خاص في جهازها الدبلوماسي والعسكري لأور. وهو الخلل الذي سيصفه فيما بعد الكاتب " هورست كيلر " بقوله : قد تكون اوروبا عملاقا اقتصاديا ولكنها قزم سياسي ودودة عسكرية . "

الشيء الذي لاشك فيه أن هذه الحرب قد أضاعت سمعة أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص في المغرب والمشرق العربيين . لقد كانت حرب الخليج الثانية ردة بكل المقاييس في المشاعر الإيجابية التي نمت بين العرب والأوروبيين خلال حقبة الثمانينات . فلقد أعادت هذه الحرب مرة ثانية إلى السطح ذكريات الحروب الصليبية لدى الطرفين.

مؤتمر مدريد وإعادة تهميش أوروبا ١٩٩١-١٩٩٦

في هذا الفصل يذكر المؤلف أنه كان هناك ثلاثة دوافع وراء إسراع الولايات المتحدة الأمريكية بعقد مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ . هناك أولا : محاولة أمريكا معالجة الآثار النفسية التي سببتها حرب الخليج في الشارع العربي . وهناك ثانيا : تجنب انسداد الطريق أمام عملية السلام بشكل نهائي بسبب حرب الخليج الثانية من نتائج على الأرض



وأهمها عدم الاستقرار السياسي والهيكلي لأنظمة المنطقة . وهناك ثالثا : سرعة تطويق الأنظمة المعارضة لأمريكا في الشرق الأوسط (العراق وليبيا وسوريا) قبل أن تستفيد من حالة العداء الشعبي التي خلقتها الحرب في مواجهة أمريكا .

ومرة ثانية ستعود أوروبا إلى الظل لينفتح المسرح على ممثل واحد فقط هو الولايات المتحدة الأمريكية التي ستمسك في يديها بكل خيوط المفاوضات بين العرب والإسرائيليين.*

رغم ذلك ستستمر أوروبا في دفع فاتورة السلام في صورة معونات للفلسطينيين (٥٤ % من المعونات الدولية) أو للشعب العراقي المحاصر . ويمكن اختصار هذه الصورة بما كتبه المؤلف : " ستدفع أوروبا ثمن تبعيتها للولايات المتحدة الأمريكية سياسيا وعسكريا . "

حقبة نتنياهو ١٩٩٦-١٩٩٩

مع صعود الليكود للحكم في إسرائيل عام ١٩٩٦ وتولي " بنيامين نتنياهو " رئاسة الوزارة ومع تصاعد أعمال العنف والإستفزاز الإسرائيلي بدا واضحا أن الإدارة الأمريكية عاجزة عن المسك بحزم بأطراف المفاوضات السياسية . هذا من ناحية ، من ناحية ثانية بدأت الدبلوماسية العربية تفكر في ضرورة استدعاء أوروبا لعملية التسوية بعد أن جربت لفترة طويلة الاعتماد على لاعب وحيد هو الولايات المتحدة الأمريكية .

وكالعادة أتت المبادرة من فرنسا . ففي ٢٦ أكتوبر / تشرين ١٩٩٦ دعا الرئيس الفرنسي " جاك شيراك " إلى مشاركة أوروبية في جهود السلام بجانب الولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم الرفض الأمريكي والإسرائيلي الحازم لأي مشاركة أوروبية (كالعادة أيضا) إلا إن عام ١٩٩٦ سيشهد بداية المبادرات الأوروبية والرغبة في العودة لساحة التأثير السياسي في الشرق الأوسط وفلسطين : تعيين وسيط أوروبي في عملية السلام (١٩٩٦) .. توقيع اتفاقية شراكة بين الإتحاد الأوروبي والسلطة الفلسطينية (١٩٩٧).. الخلاف التجاري بين الإتحاد الأوروبي وإسرائيل حول عدم شرعية تصدير إسرائيل لمنتجات الضفة الغربية والمستوطنات إلى السوق الأوروبية واعتبار هذه المناطق مناطق فلسطينية مستقلة وأن المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة غير شرعية (١٩٩٨) .. المساعدة الأوروبية في مفوضات " واي بلنتيشن " من خلال نصح الرئيس عرفات بعدم التسرع بإعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد.

خاتمة

هذا الكتاب الثري بمعلوماته والغني بوثائقه يكشف عن العلاقة التاريخية ، التي ربطت منذ فجر التاريخ بين أوروبا التي ولدت في أحضان أرض فلسطين ، كما تقول الأسطورة .

إن الدبلوماسية العربية مطالبة بعد انكشاف الموقف الأمريكي المنحاز لإسرائيل على هذا النحو أن تغير من خططها من أجل عمل توازن جديد ومفيد للمصالح العربية وهو في الظروف الحالية التوازن الذي ترغب فيه أوروبا وتطمح إليه والذي تقوده فرنسا والذي نما سريعا منذ أحداث مذبحة " قانا " في أبريل ١٩٩٦. (*)

(*) راجع : صفوت حاتم ، الأعمدة السبع للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، جريدة القاهرة ، ٥ سبتمبر / أيلول ٢٠٠٠.

إن كل المؤشرات التي خرجت عن الاتحاد الأوروبي وعن فرنسا بالذات تعبر عن رغبة هؤلاء لعب دور كبير في عملية التسوية ، وكان الاتحاد الأوروبي قد أرسل للحكومة الإسرائيلية على لسان وزير الخارجية السابق " هيرفيه دي شاريت " رسالة واضحة من ثلاث نقاط

(١) أن الاتحاد الأوروبي يعلن تمسكه بالاتفاقيات التي تم التوقيع عليها بين الأطراف وليس من حق أي طرف التخلي عنها من طرف واحد.

(٢) أن أوروبا هي الممول الأساسي حتى هذه اللحظة لعملية السلام (وليس أمريكا) ومن حقها أن تلعب دورا مميزا في الوساطة بين الأطراف يتناسب مع هذا الدعم.

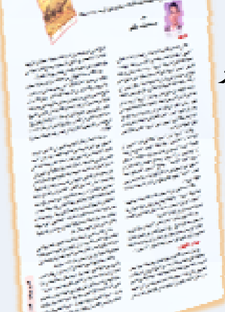
(٣) أن التفوق الإسرائيلي على العرب لا يعطيها الحق في تقرير شكل عملية السلام منفردة.

ثم تطور الموقف الفرنسي مرة أخرى مع وزير الخارجية في حكومة الاشتراكيين" هيبر فيدرين " الذي نادى وهو في إسرائيل بحق الفلسطينيين في إقامة دولتهم القومية وشن أعنف هجوم يمكن أن توجهه حكومة فرنسية لإسرائيل. وتوج كل هذا المبادرة الفرنسية التي تشارك فيها الرئيسان مبارك وشيراك لعقد مؤتمر دولي لإنقاذ عملية السلام بعد فشل المبادرات الأمريكية المتواضعة. كل هذه التحركات تفصح عن نية أو رغبة أوروبية (مدروسة) للمشاركة في عملية التسوية في الشرق الأوسط رغم المعارضة الإسرائيلية والأمريكية .

ولكن ما لذي يمنع أوروبا الآن عن المشي قدما في عملية التسوية السياسية ؟ أنهم العرب أنفسهم .. كيف ؟

المشكلة كما يقول المحلل الفرنسي " آلان جريش " تكمن في العرب أنفسهم .. فالعرب هم الذين لا يريدون اتخاذ أي تدابير حقيقية لمواجهة التحالف الأمريكي الإسرائيلي وفتح الطريق أمام الآخرين لممارسة أدوار أكثر اتوازنا وأقل انحيازا لإسرائيل.. ويضيف : ... مادام العرب لا يتحركون فلماذا يجب أن تقلق أمريكا أو تغير من سياستها ؟ وهو نفس السؤال الذي نسأله في نهاية هذا العرض .

بشارة خضر
مدير مركز دراسات العالم العربي المعاصر
بجامعة لويفان الكاثوليكية – بلجيكا



من أعماله:

١- المغرب الكبير وأوروبا ١٩٩٢.
٢- أوروبا والعالم العربي: أبناء عمومة وجيران ١٩٩٢.
٣- أوروبا وبلدان الخليج العربية: شركاء من على بعد ١٩٩٤.
٤- أوروبا وبلدان المتوسط: الجغرافية السياسية للقرب ١٩٩٥.
٥- الشراكة الأوربية المتوسطية بعد برشلونة ١٩٩٦.

جانب من أراء القراء في العدد الثالث

دورية كان التاريخية تشي بأبناء حريصون على العلوم النافعة ، وعلم التاريخ من أجل العلوم وأجملها ، فسنن الله تعالى في الكون دوّارة ، وهناك من يسخرها ويعيها وهناك من يحلم! والعاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين.

أسامة الشاهين - نائب رئيس تحرير
مجلة الاتحاد الوطني لطلبة الكويت



شكراً على العدد الثالث وعلى جهدكم الحضاري المتميز .لكم الحياة.

د.بشار خليف
باحث في تاريخ العالم العربي

العدد الجديد أكثر من رائع... يثبت فعلاً أن المجلة تتطور دائما للأفضل .

الباحث وائل الدسوقي
رئيس تحرير مجلة المقتطف المصري

تحياتي الطيبة الصادقة وأهنئكم على صدور العدد الثالث من مجلة كان التاريخية ، هذا العدد المتميز ، أنتم يا أخي تسهمون في تقديم المعرفة الإنسانية لعالمنا العربي المظلم ، وأنتم تسهمون في تنويره وتثقيفه ، أبارك لكم جهودكم الكبيرة ،ولن ينساكم التاريخ يوما ما لأنكم تعيدون كتابته. وشكرا لكم

د. محمد عبد الرحمن يونس
باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي

دورية كان.. عمل رائع بكل ما تحتويه ، كما أنها تنم عن مجهود حقيقي مبذول في الإعداد والتقديم

محمد توفيق
مؤسس جروب نيل كافيه (فيس بوك)

مجهود رائع ومتميز ، مجلة كان التاريخية أصبحت بالفعل رائعة في الإخراج الفني وكذلك متميزة في موضوعاتها التاريخية ، وفقكم الله في إصداراتكم القادمة.

الشاعر أحمد أبو بكر
رئيس تحرير مجلة رؤى



الحمد لله أني عشت حتى رأيت دورية "كان" التاريخية. والشكر الوافر ... لإرسال هذه التحفة النادرة. ليتنا نرى اليوم الدوريات الرصينة مطبوعة بهذه الطريقة الجيدة. فهذه المطبوعة تجذبك بإخراجها الملون الغني بالصور ، وبوجود التشكيل في معظم نصوصها فتريحك من التخمين وتعب القراءة. ثم هي تعتني بالتوثيق وذكر المراجع. تحية لكل من عمل بهذه الدورية وساهم بإخراجها وترويجها والكتابة بها.

د. محمد سعيد الملاح
كاتب وباحث - الإمارات العربية المتحدة

حتى الآن نشرت
دورية كان التاريخية

٢٤ مقال
١٩ دراسة
٦ عرض كتاب
٣ تقارير

ألف مبروك ، وأعانكم الله تعالى على مواصلة المشوار ، مع رغبتي الأكيدة في المؤازرة الفعلية ، عبر تواصل علمي دائم إن شاء الله ، مع خالص محبتي.

د.عبد القادر سلامي
جامعة تلمسان

جهد كبير ورائع ، نسأل الله لكم التوفيق والسداد ، ونسألكم المزيد من هذه الدراسات فهي مهمة جدا لكل باحث ومهتم .... جزآكم الله جزاء المحسنين الصالحين.

د. لؤي
عضو الألوكة "المجلس العملي"

شكرا جزيلا.. وأرجو أن تستمر مثل هذه الأعمال التي تفيد الدارسين والمؤرخين الجدد ، و شعب لا يعرف تاريخه هو شعب جاهل

عابد السوري
عضو منتدى التاريخ الإسلامي

دورية كان التاريخية.. إضافة نوعية ثرية للمهتمين بالشأن التاريخي ، في عالم عربي كان يفتقر حقا لمثل هذه الإضافة.. واصلوا ، فأنتم على الطريق الصحيح ، محبتي لكل الساهرين على إنجاح هذا المشروع.

د.عبد العزيز غوردو
كاتب وباحث - المملكة المغربية



شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم

د.بشار محمد خليف
باحث في تاريخ العالم العربي
دمشق – الجمهورية العربية السورية
dr-khlif@scs-net.org

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
بشار محمد خليف ، شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩.ص١٠١-١١١ (www.historicalkan.co.nr)

Rituals and Beliefs of Death in Ancient Arab Mashreq Civilization

ثمة شيئان لا يمكن للمرء أن يحدق فيهما، الشمس والموت، والموت ضمن المنظور الإنساني يبدو أنه غير محبذ، لا بل يتم تجاهله كونه يشكل مصدر الخوف من المجهول. ومعلوم أن للخوف أذنين كبيرتين وعينين أيضاً.

ولعل أول صدمة جابهت الإنسان في وجوده على الأرض /لاسيما حين تطور القشرة الدماغية والقسم الطرفي من الدماغ/، هي صدمة الموت، ولم يكن هذا ليتحقق لولا توافر مجموعة من الاشراطات والمعادلات الفيزيولوجية والبيولوجية، على صعيد الدماغ الإنساني والجسد البشري، ثم تداخلات المناخ والبيئة الطبيعية.

والموت همّ فردي، وتجمّع الهموم الفردية أدى إلى نشوء هموم للتجمعات الإنسانية القديمة، ولكن مع تقدم عمل الدماغ وتطوره ومن ثم نشوء المجتمعات الأولى، لم يكن ثمة هم مجتمعي من الموت، لأن المجتمعات تبقى بينما الأفراد يزولون. وبذا صار المقياس الأوحد في دراسة المجتمعات وظواهرها، هو مدى انعكاس حياة الفرد في الجماعة، ومدى انتمائه لها، وبذا يستمر المجتمع ويزول الأفراد، ولا يبقى منهم إلا ما قدّموه للمجتمع من تطوير وإبداع. ولعل قمة الإبداع تكمن في التضحية من أجل المجتمع.

وبهذا يصير الموت في المستوى الاجتماعي، ليس نقيضاً للحياة بل جزءاً منها. ولعل الانشغال بظاهرة الموت، اقتضى مرور ملايين السنين من الوجود البشري على الأرض، حتى غدا دماغ الإنسان قادراً على وعي هذه الظاهرة، واستنباط الحلول التعويضية /لا شعورياً/ تجاهها. وهذا ما سنحاول رصده من خلال تاريخ الوجود البشري في المشرق العربي القديم، والذي يرقى إلى حوالي المليون سنة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الوثائق هنا /لعدم وجود الكتابة بعد/ تعتمد على اللقى والأدوات التي تركها ذلك الإنسان القديم، بالإضافة إلى بعض البنى والكثير من المدافن والقبور ومحتوياتها، ولاسيما مع ظهور إنسان النياندرتال (١٠٠٠٠٠) سنة.



ظهور الإنسان على الأرض

وفي المشرق العربي القديم

حددت دراسات علوم ما قبل التاريخ وجود الإنسان على الأرض بحدود ثلاثة ملايين سنة من الآن. وذلك في أفريقيا «هذا حتى الآن». أما في المشرق العربي فدلائل أول وجود إنساني تعود إلى حوالي مليون عام «سلطان محيسن» [١] وبعضهم يعيدها إلى مليون ونصف المليون عام «زيدان كفافي» [٢] وأيضاً هذا حتى الآن.

وتذكر الدراسات أن الإنسان القديم الذي أتى إلى المشرق العربي جاء عبر طريقين من أفريقيا:

الأولى: ساحلية على امتداد البحر المتوسط.

الثانية: على طول الانهدام السوري ـ الأفريقي الممتد من جنوب وشرق أفريقيا مروراً بالبحر الأحمر ثم وادي عربة ثم وادي الليطاني فوادي العاصي شمالاً. [٣]

وحتى الآن يبدو أن أقدم آثار لإنسان ما قبل التاريخ خارج أفريقيا عثر عليها في سورية، في موقع «ست مرخو» قرب اللاذقية. كما عثر على آثار لهذا الإنسان في موقع خطاب قرب حماة على العاصي وموقع العبيدية في فلسطين الذي يؤرخ بحدود ٧٠٠٠٠٠ سنة حيث عثر هنا على أجزاء من هياكل عظمية إنسانية هي الأقدم في المشرق العربي.

كانت حياة ذلك الإنسان تعتمد على الصيد والتقاط الثمار، وكان يتنقل خلف مصادر غذائه الحيواني والنباتي. ولم يكن ثمة خصوصية حضارية، بل أن صفات إنسان تلك المرحلة كانت متقاربة في كل أنحاء العالم. وفي موقع اللطامنة في سورية والذي يؤرخ بحدود ٥٠٠٠٠٠ سنة عثر على دلائل مبكرة لاستعمال النار والشروع في البناء. وباطراد كانت تلك التجمعات الإنسانية تتطور، وكانت تعتبر نفسها جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة، لا بل أن إنسان تلك المرحلة كان يظن نفسه أنه واحد من خصائص الطبيعة، وهذا لم يكن إلا نتيجة لعدم تطور الدماغ لديه ولاسيما قشرته الدماغية. ما اقتضى مرور مليونين وتسعمائة ألف سنة على صعيد الإنسان الأفريقي، وتسعمائة ألف سنة على إنسان المشرق العربي كي تحصل طفرة في بنيته الدماغية تدفعه نحو الأمام في وعي ظاهرة الموت لأول مرة منذ وجوده على الأرض. وما قبل لم يقدم الدماغ له أوليات الدفاع عن موتاه فتركهم نهباً للوحوش المفترسة والجوارح، حتى كان تطور الإنسان القديم المنتصب إلى إنسان النياندرتال، وذلك في حوالي ١٠٠٠٠٠ سنة حيث يؤكد فرنسيس أور «أن بلاد الشام تشكل مكاناً أصيلاً لإنسان النياندرتال». [٤]

النياندرتال المشرقي ١٠٠٠٠٠ ـ ٤٠٠٠٠ سنة

مقاربة أنثروبولوجية

تدل الأبحاث العلمية البيولوجية والفيزيولوجية، على أن دماغ الإنسان يتألف من ثلاثة أقسام: القشرة الدماغية والقسم الحوفي والدماغ الزواحفي. أما المظاهر العاطفية والدينية فهي من اختصاص القسم الحوفي، في حين أن القشرة الدماغية تعنى بفعل الإدراك، ومعلوم أن القشرة الدماغية تؤلف ـ حسب كارل ساغان ـ حوالي ٩٠ % من دماغ الكائنات الحية. [٥]

لهذا فحين نرصد ظاهرة وعي الموت عند مجتمع النياندرتال، فإننا

لابد واقعون على حقيقة أن ثمة تطوراً حصل في القسم الحوفي والقشرة الدماغية. ويؤكد ساغان على أن حياة الصيد والالتقاط لدى الإنسان القديم والحضارة التكنولوجية لدى الإنسان المعاصر هما من نتاج القشرة الدماغية[٦]. وقد دلت الأبحاث العلمية أيضاً لدى دراسة الجانب الداخلي لجمجمة إنسان النياندرتال، إلى أن التناسب القائم بين مختلف أجزاء المخ يجعل الإمكانات العقلية عنده قريبة من مثيلتها عند الإنسان العاقل، الذي تطور في المشرق العربي حوالي ٤٠.٠٠٠ سنة عن سلفه النياندرتال[٧]. والمعلوم أن الإنسان العاقل السوري هو جدنا المباشر أما الجد البعيد فهو إنسان النياندرتال. وعلى هذا يمكننا القول مع ساغان أن سلوكنا نحن الآن لا يزال واقعاً إلى حد كبير تحت سيطرة ماورثناه عن أسلافنا.[٨]

لا بل أن كارل غوستاف يونغ رائد علم النفس التحليلي يركز في طروحاته على «أن لاشيء يدل على أن ذلك الإنسان يفكر أو يشعر أو يدرك بطريقة تختلف اختلافاً أساسياً عن طريقتنا في التفكير أو الشعور أو الإدراك،[٩] فأداؤه النفسي هو جوهرياً أداؤنا نفسه ولا يختلف عنا إلا في مسلّماته الأولية».

ويؤكد أيضاً أن ذلك الإنسان /النياندرتال ثم العاقل/ ليس وحده الذي يمتلك سياقات نفسية قديمة، وإنما إنسان عالم اليوم المتمدن الذي بدوره يكشف عن هذه السياقات النفسية القديمة، دون أن تكون هذه السياقات مجرد ارتدادات متفرقة أتت على الإنسان الحديث من صعيد الحياة الاجتماعية.

ويصل يونغ للقول: كل إنسان متمدن مهما بلغت درجة نمو وعيه، لم يزل إنساناً قديماً في الطبقات السفلى من كيانه النفسي. فكما أن الجسم البشري يوصلنا بالثدييات ويكشف لنا عن بقايا كثيرة من تطور مراحل أولية ترجع إلى عصر الزواحف، فكذلك النفس البشرية نتاج تطور إن تابعنا أصوله تكشّف لنا عن عدد لا حصر له من السمات القديمة.

مجتمعات النياندرتال في المشرق العربي القديم ١٠٠٠٠٠ سنة خلت

عاش النياندرتاليون في المشرق العربي في الكهوف والمغائر واستطاعوا أن يكيفوها حسب احتياجاتهم وحوائجهم، كما استخدموا النار وصنعوا الأسلحة الصوانية ومارسوا الصيد عبر رجالهم، أما نساؤهم فكن يلتقطن لبذور والثمار والجذور الصالحة للطعام، كما كن يصنعن الملابس من جلود الحيوانات.

وقد أدى تطور البنية الدماغية لديهم إلى وعي لظاهرة الموت، لا بل أضحى مشهد موت إنسان يدهشهم عبر انتقاله المفاجئ من كائن مدرك وواعٍ، دافئ وممتلئ بالحيوية، إلى جثة ساكنة وباردة وشاحبة وقابلة للتعفن، مما أصابهم بالصدمة الأولى، وهذا ما دفعهم إلى مواراة الجثة في التراب، وإجراء الدفن المتعمد والإرادي، لأول مرة في تاريخ الوجود البشري. وقد بدا أن التطور الروحي الذي بلغه إنسان النياندرتال تجاوز ما بلغه في الحياة الاقتصادية[١٠]. وأدت التنقيبات الأثرية إلى العثور على مواقع نياندرتالية عدة في المشرق العربي ولعل أهمها:



موقع مغارة الديدرية قرب حلب

يؤرخ هذا الموقع بحدود ١٠٠.٠٠٠ سنة حيث عثر فيه على حوالي ٧٠ قطعة عظمية بشرية تعود لهياكل نياندرتالية مختلفة.

وفي مطلع التسعينيات، تم العثور على هيكل عظمي لطفل عمره سنتان وطوله ٨٢ سم حيث دفن في حفرة مستلقياً على ظهره، أما يداه فممدودتان وقدماه مثنيتان وعثر تحت رأسه على بلاطة حجرية كما على صدره فوق قلبه ويعود تأريخه إلى حوالي ١٠٠٠٠٠ سنة. وفي عام ١٩٩٧ عثر على هيكل عظمي لطفل ثانٍ بالعمر نفسه، وقد دلت طرق الدفن على أسلوب منظم ومدروس ويرقى إلى حوالي ٨٠٠٠٠ سنة، وهذا الكشف المهم يمثل حتى الآن أقدم عملية دفن للموتى في التاريخ البشري. وفي فلسطين عثر في مغارة قفزة على مقبرة بشرية تحوي ١٢ جثة نياندرتالية أرّخت بحدود ٥٠.٠٠٠ سنة وكانت الجثث لـ ٦ أموات كبار و٧ أطفال. وأهم ما عثر عليه فيها، والذي يعني دلالة لها معناها الاجتماعي والروحي، هو قبر امرأة شابة مستلقية على جنبها الأيسر ومثنية الرجلين والى جانبها طفلها الواضع رأسه على صدرها في حين كان بين يديه غزال /رمز الخصب/.

ويبدو أن هذا يدل على وجود مفهوم للأسرة عند النياندرتاليين وهذا ما سيتوضح أكثر في موقع سبق هذا الموقع بحوالي عشرة آلاف سنة، أقصد موقع شانيدار في العراق والذي يؤرخ بحدود ٦٠٠٠٠ سنة فقد عثر في الكهف على هيكل عظمي لرجل نياندرتالي في الأربعين من عمره، وبدا من الفحص العلمي أنه يعاني منذ طفولته من شلل نصفي كما أنه أعور ويعاني من التهاب في المفاصل، ويبدو أنه مات في شهر حزيران. والطريف في الأمر أن أمراضه لم تمته، ولكن الذي قتله سقوط صخرة من سقف الكهف عليه.



إن الدلالة الروحية ـ الاجتماعية لدى هذا الإنسان تشير إلى مبلغ العناية التي أحيط بها وهو المشلول والأعور. ويتبدى ذلك أكثر في أن أهله فرشوا قبره بالورود، دلّ على ذلك تحليل حبات الطلع.

وفي كهف السخول في فلسطين عثر على هياكل عظمية في مقبرة جماعية تراوحت أعمار موتاها بين ٣ ـ ٥٠ سنة. ولوحظ أنه لم يوجد مرفقات جنائزية مع الموتى إلا مع أكبرهم سناً، حيث كان يقبض بيده على عظم فك علوي لخنزير بري. /وربما يدل هذا على وجود أو تبلور بداية مفهوم للسلطة أو القيادة عند النياندرتاليين/. ولوحظ أن مدافن الرجال والأطفال عندهم تفوق مدافن النساء.

ويعج المشرق العربي بمواقع نياندرتالية مثل موقع الكبارا، وعدلون ويبرود وكهف الدوارة وجرف العجلة وأم التلال ومغارة العصفورية شمال بيروت.

ويبدو أن بنية الدماغ كانت آخذة بالتطور، ما دفع الإنسان النياندرتالي في أواخر عهده يتجه في المشرق العربي نحو التطور إلى الإنسان العاقل /لا سيما في فلسطين/، جدنا المباشر، وذلك في حدود ٤٠.٠٠٠ سنة.[١١]

الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم

٤٠.٠٠٠ سنة خلت

نحن الآن أمام جدّنا المباشر وجهاً لوجه، فهو يمتلك تقريباً كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يملكها إنساننا الحالي. فطرداً مع تطور بنيته الدماغيه، وحجم دماغه، تطورت أساليب عيشه، وتطورت حياته الروحية والاجتماعية والاقتصادية. ويبدو أنه صار يفهم الطبيعة أكثر، فهو جزء منها ويحاول الانفكاك عنها عبر السيطرة عليها. كل هذا أدى إلى تطور في مناحيه الروحية وبالتالي المعتقدية والفنية، وبقي صياداً ولاقطاً مع تبلور إحساس اجتماعي أقوى من سلفه.

أما شعائر الموت لديه فقد استمرت على ما كانت عليه عند سابقه، مع ميل للعناية بشكل واضح بالموتى، دلّ على ذلك أن المرفقات الجنائزية ازدادت وطرق الدفن أصبحت أكثر تعقيداً، فقد بقي يدفن موتاه داخل الكهوف، في وضعية القرفصاء، ويبدو أنه اتجه لدفن الأموات قرب المواقد «كما كان يفعل النياندرتال»، /ربما لأن برودة الجثة دفعته لتدفئتها عسى أن تعود إلى الحياة/. كما أن طريقة الدفن كما /وضعية الجنين/، ذكرّت بعض الباحثين أن لدى الإنسان العاقل ميل روحي، لاعتبار أن الدفن الجنيني هذا ربما يعيد الميت إلى الحياة كون أن الأرض رحم!!.

لكننا نستبعد مثل هذا الاعتقاد لدى الإنسان العاقل.. ونميل للأخذ باعتبارات أن مساحة الكهف هي التي حددت وضعية الدفن الجنيني، أو أخذ جثة الميت هذه الوضعية بشكل طبيعي، ربما نتيجة لموت طبيعي وما إلى ذلك.

ولوحظ أيضاً أن الجثث بدأت تطلى بالمغرة الحمراء، ونعتقد أن هذا يدخل في مجال التعويض عن الشحوب الذي يعتري الجثة. وهذا ما أثبتته الأبحاث العلمية على قبائل بدائية تعيش في أفريقيا حتى الآن حيث ظهر أنهم مازالوا يصبغون الجثث بهذه المغرة لاعتقادهم أنها علامة الحياة.[١٢]

ولوحظ أيضاً أن لدى الإنسان العاقل بدأ يتشكل إحساس الرهبة من الموت، وقد دل على ذلك أنهم كانوا يضعون أحجاراً ضخمة على أيدي الميت وأقدامه وصدره، ربما كي لا يستطيع القيام والعودة إلى الحياة وبالتالي إيذاء الأحياء. وهذا ما أكدته الأبحاث الأنثربولوجية التي جرت على قبائل بوبواس في غينيا الجديدة، حيث لوحظ أنهم كانوا يضعون الحجارة الكبيرة على رأس الميت وصدره وأقدامه.

ومن مواقع الإنسان العاقل في المشرق العربي هناك كهف الواد - قفزة - عرق الحمر - الكبارا - مصطبة الخيام - كهف الأميرة - كسار عقيل - انطلياس - يبرود - الكوم - وتدمر.

وفي حوالي ١٢٠٠٠ تعتدل البيئة والمناخ بشكل يتماشى مع تطور مجتمعات الإنسان العاقل، ويزداد مردود الثروات الطبيعية، وتبدأ تلك المجتمعات تبني قراها نصف المستقرة ومع هذا فلم تغادرالكهوف نهائياً. وبقيت أساليب الدفن متواصلة على ما كانت عليه، مع ميل نحو ظهور مظاهر دفنية، معمارية تمثلت بصفّين من الحجارة للمدافن. وتغيرت أدوات المرفقات الجنائزية مع الحفاظ على ماسبق حيث، عثر في أحد القبور في موقع الكبارا على ثلاثة حجارة طحن، إحداها مدقة موضوعة فوق الرأس. كما عثر على زبدية بازلتية بجانب الرقبة وجزء من حجر الطحن أيضاً. فهل هذا يدل على مهنة صاحب القبر وبالتالي الإيحاء بأن بعض الرجال في هذه الفترة مارسوا الحرف والمهن بديلاً عن الصيد؟. لأن هذه المرفقات «المهنية» سوف نجدها بغزارة في قبور العصور التاريخية مع أصحابها. وفي العراق في كهف شانيدار عثر على قبر لطفل في هذه الفترة حوت مرفقاته على مئات القطع من الخرز والأحجار المنوعة كما عثر على قبر امرأة حوى سكيناً بقبضة عظمية ونصلة صوانية.

ومع حلول الألف العاشر ونتيجة للتطور الآخذ صعداً في مجاري الحياة الاقتصادية الاجتماعية والروحية، بدأنا نلاحظ أننا أصبحنا أمام مجتمعات متجانسة تميزت بالسكن في البيوت وتحولت الجماعة إلى مرحلة القبيلة وبقيت تمارس الصيد والالتقاط ولم تغادر الكهوف نهائياً.



أما طرق وشعائر الدفن، فقد بنيت المقابر الكبيرة ومورست عملية الدفن الفردي والجماعي ويبدو أن المقابر انفصلت عن المساكن وبقيت إلى جوارها. وطليت الجثث بالمغرة الحمراء. وهذا لا يعني أن الدفن لم يجر في المساكن، فقد عثر على عمليات دفن تحت أرضيات البيوت. وهنا يبدو أنه قد حصل انعطاف في البنية الذهنية للإنسان، حيث تبدأ بواكير فصل الجمجمة عن الجسد، ودفنها منفردة. بما يوحي ببوادر نشوء اعتقاد «عبادة الأجداد»، والذي سوف يتوضح أكثر في العصور اللاحقة.

مواقع هذه الفترة: عين الملاحة - المريبط - الجرف الأحمر - أبو هريرة - نهر الحمر - الطيبة - جيرود - شقبة.

والملاحظ في هذا المجال أن الدفن كان يتم في قبور منتظمة، أما المرفقات الجنائزية فكانت عبارة عن أسلحة حجرية وأسنان ولؤلؤ وقرون غزال بالإضافة إلى سن حصان وأجزاء حيوانية أخرى.[١٣]

وفي الفترة بين ٨٣٠٠ - ٦٠٠٠ ق. م: تم ولوج البشرية منعطف جديد عبر الثورة الزراعية التي خرجت من المشرق العربي القديم إلى العالم.

ويبدو أن هذه الثورة العلمية ما كانت تتحقق، لولا تراكم مجمل المعطيات على مجرى العصور السابقة ما أدى إلى حصول هذا الابتكار المشرقي العربي، والذي سيعكس من الآن فصاعداً جملة من المعايير والاعتقادات، ويخلق بالتالي تحولات اقتصادية واجتماعية وروحية مهمة، إن كان على صعيد دورة الحياة أو على الصعيد الذهني البشري. فقد أدى هذا التحول إلى نشوء القرى الزراعية الثابتة والمستقرة. ويبدو أن الإنسان بدأ يهجر الكهوف والمغاور نهائياً، ولكن هذا لا يعني أنه لم يستمر في حياة الصيد والرعي، لا بل إن حياة المجتمعات آنذاك شملت عالم الزراعة، بالإضافة إلى عالم الصيد والرعي واللذين تعايشا

جنباً إلى جنب في دورة اقتصادية اجتماعية واحدة سوف توثقه أساطير العصور التاريخية، ولاسيما أسطورة المزارع والمراعي، ووثائق المشرق العربي في الألفين الثالثة والثانية ق.م.

ومع ابتكار الزراعة، انتقل الإنسان بوصفه جزءاً من الطبيعة إلى الانفصال عنها، والسيطرة عليها. وهذا سوف يؤثر في بنيته الذهنية وفي تفاعله مع الطبيعة ونواميسها، والتي ترتكز في ظاهرة الموت /الموت الدوري للنبات ومن ثم انبعاثه في مواجهة الموت الخطي قبل الانفصال عن الطبيعة/. ولاسيما في نشوء ظواهر الاعتقادات الدفينة الخصبية التي تجلت في ميل اعتباري للثور /الظاهرة الأقدم/ وعبادة الأم الكبرى، وصولاً إلى الأرواحية أو عبادة الأجداد، التي يعبرّ عنها بعبادة الجماجم عبر فصلها عن الأجساد.

ففي حوالي منتصف الألف الثامن قبل الميلاد سوف تغدو الجماجم موضع اهتمام كبير وهذا ما توضح في مواقع هذه الفترة، ففي المريبط، عثر على هياكل دفنت بلا رؤوس تحت أرضيات بيوت السكن. أما الجماجم فبعد فصلها عن الأجساد، كانت توضع على امتداد جدران المنازل لاعتبارات اعتقاديه. كذلك عثر على نفس هذه الظاهرة في أريحا في فلسطين. ولم تكن الجماجم لتترك بل أنهم كانوا يعالجونها كنوع من التعويض في المستوى النفسي الجمعي، ويحاولون إعادة تشكيلها من الجص، وصبغها بما يماثل لون البشر، ثم تنزل العيون بالصدف أو القواقع ويرسم على الجمجمة خيوط بنية كدلالة عل شعر الرأس. وقد عثر على هذه الجماجم المقبولة في مواقع عدة في أريحا وبيسامون ووادي حمار وفي تل الرماد.

مقاربة نفسية ـ أنثربولوجية

لظاهرة الأرواحية «عبادة الأجداد»

تدل الأبحاث العلمية، والميدانية الأنثربولوجية، إلى وجود جماعات بدئية إلى الآن تعيش منعزلة في أماكن عدة من المعمورة، ولاسيما في أفريقيا وأستراليا والأسكيمو، مازالت تمارس الأرواحية التي مرت بها المجتمعات الإنسانية في أطوارها السالفة. وقد بينت هذه الدراسات الميدانية أن سكان هذه الأماكن يعتقدون أن الأجداد يستمرون بالتدخل في حياة الجماعة لا بل ويظهرون موافقتهم أو عدمها عبر مدلولات طبيعية /كون أنهم مازالوا جزءاً من الطبيعة وخاصية من خواصها/ ولعل الأحلام عند هؤلاء تلعب دوراً مهماً في ربط عالم الأموات مع عالم الأحياء[١٤]. ويبدو أن عبادة الأجداد تنزع فيما تنزع إليه، إلى تمتين أواصر اللحمة بين الجماعة واستمرارية تقاليدها وأخلاقها التي صاغها الأجداد وبذا تتوضح ظاهرة المعتقد هنا بأنها ظاهرة اجتماعية بحتة أوجبتها ظروف الصراع في الحياة من أجل البقاء.

فحسب تلك الجماعات إن الجد المدفون يجعل الأرض خصبة إذا عرفوا كيف يكسبون عطفه. لهذا فإذا أرادت جماعة ما أن تهاجر فينبغي أن تحمل جماجم أجدادها معها. فالأجداد إذاً هم جزء من المجتمع الإنساني الحي وعلى حد قول فرويليش فإن عبادة الأجداد هي عقدة من سلسلة طويلة اسمها الزمن.[١٥] لهذا فإن معرفة الأنساب والحفاظ عليها لها فائدة كبرى في المجال الاجتماعي، حيث تمتّن الأواصر الاجتماعية بقيادة الأجداد، إذاً هي ظاهرة قبلية بامتياز. فالأجداد هم ضامنو النسب للقبيلة وعبادتهم تضمن استمرارية التقاليد والأخلاق الاجتماعية بين أفراد الجماعة، كما أن هذه العادة تؤدي إلى توازن في المستوى النفسي الجمعي بين عالم الأحياء وعالم الأموات بما يضمن استمرارية دورة الحياة للأجداد واستمرارية حياة الأموات في وجود الجماعة. وهذا ما يطلق عليه تعبير الأخلاق النفعية. ويختصر أحد شيوخ القبائل التي درست عبادة الأجداد بقوله: «إن الأموات يعيشون بقدر ما نفكر بهم وعلينا أن نطيعهم».[١٦]

ويشار أيضاً في هذا المجال إلى وجود ظاهرة أخرى هي ظاهرة الأقنعة والتي عثر عليها في موقع وادي حمار حيث أن هذه الأقنعة توحي بتظاهرات ذات طابع جمعي شعبي حيث كان القناع يصمم لكي يضعه أحد الأشخاص /كرمز إرواحي/، وتقام طقوس وشعائر ربما في عيد الأموات. ويشير جاك كوفان أنه ربما يحمل دلائل خصبية[١٧].

كانت الأقنعة تثقب بثقوب دائرية، أما الأنف فعبارة عن نتوء قليل البروز والفم نصف مفتوح، وثمة تلاوين بالأحمر والأخضر تشكل خطوطاً مشعّة من المركز باتجاه محيط الوجه، وتحمل هذه الأقنعة على طرفها صفاً من الثقوب من أجل تثبيتها مع وجود آثار حمر تدل على استخدام مادة لاصقة لشعر مستعار. ويشير كوفان إلى أن هذا الطقس إنما يعبر عن أصل المسرح المقدس في المشرق العربي ويعتقد أنه ربما يعود لعصور أقدم بكثير من زمنه.[١٨]

الفترة بين ٦٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م

استمر تطور المجتمعات الزراعية مع تعايشها مع مجتمعات الصيد والرعي، وقد بقيت طقوس الدفن تتم تحت أرضيات المساكن أو بقربها، وشملت المرفقات الجنائزية، أواني فخارية وحجرية ودمى نسائية وحيوانية مع ملاحظة أن هذه الفترة، لم يعثر في مواقعها على دلائل تشير إلى استمرار عقيدة عبادة الأجداد، كما لم يعثر /حتى الآن/ على جماجم مقولبة، مع اعتقادنا أنها استمرت لأنها ستظهر في العصور اللاحقة.

أهم مواقعها: رأس شمرا والعمق والكوم وبقرص في سورية، ووادي اليرموك والحولة وأريحا ووادي رباح في فلسطين، أما في لبنان فأرض قليلة وجبيل، وفي العراق أم الدباغية وتل حسونة وسامراء.



الفترة بين ٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق. م:

تطورت التقنية في مجال الزراعة إلى الري الصناعي والأقنية ، وأصبحت الزراعة أكثر انتاجية. ومن المدافن يستنتج أنه ثمة تمايز اجتماعي يبدأ بالظهور بين الكهنة ، ورجال الدين والسلطة والتجار من جهة ، وبين بقية الناس من جهة أخرى. فقد حفلت قبور الأغنياء بالمعادن الثمينة ، ولاسيما الذهب والفضة [١٩].

مجتمعات هذه الفترة مارسوا الدفن ، ويبدو أنهم دفنوا الجماجم بمعزل عن الأجساد ما يشي بعبادة الأجداد ، التي سوف تستمر حتى العصور التاريخية. حيث عثر على عبادة الأجداد في إيبلا عبر اكتشاف المقبرة الأمورية هناك والتي تعود للألف الثاني قبل الميلاد [٢٠].

والجدير ذكره هنا ، هو ظهور ظاهرة دفنية جديدة ، تجلت في حرق الجثث ووضعها في جرار. وكان هذا يتم للكبار فقط أما الصغار فكانوا يدفنون بشكل اعتيادي. [٢١]

وأكثر الدفن داخل البيوت كان يتم للمواليد الجدد المتوفين ، أما الكبار فقد دفنوا خارج البيوت. وقد عثر في بعض القبور على مرفقات جنائزية مثل التماثيل والأواني مع وجود سفن من طين. وهذه دلالة على نشوء مفاهيم جديدة في هذه الفترة لعالم ما وراء الموت ، سوف يتوضح في العصور الكتابية حيث ثمة في العالم الآخر ، نهر يعبره الإنسان بسفينة كي يصل إلى العالم السفلي. [٢٢]

والذي يبدو كما هو واضح ، في سياق البحث ، أن وقفة الإنسان القديم تجاه ظاهرة الموت هي سلسلة واحدة تبدأ من إنسان النياندرتال ، وصولاً /كما سنرى/ إلى الإنسان الحديث والمعاصر. مع فارق بسيط يوضحه عالم النفس يونغ بقوله: «إن الإنسان القديم يفعل ما يفعل ، لكن الإنسان المتمدن يعرف ماذا يفعل» [٢٣]. وفي هذه النقطة تكمن وظيفة الدماغ ومدى الوعي الإنساني الذي لا حدود له.

استنتاجات تختص بالفترة التي امتدت

من حوالي ١٠٠٠٠٠ سنة وحتى ٣٥٠٠ ق. م

إن أقدم دليل أثري على وجود بشري في سورية يرقى إلى حوالي مليون سنة وبعضهم يعيد ذلك إلى مليون ونصف مليون سنة.إن إنسان النياندرتال في المشرق العربي القديم ، هو أول من وعى مسألة الموت متزامناً هذا مع تطور بنية الدماغ لديه ولاسيما القشرة الدماغية والقسم الحوفي من الدماغ.

إن عبادة الأجداد = الأرواحية تجلت منذ بواكيرها ، في حوالي الألف العاشر قبل الميلاد. وهذا يشكّل انعكاساً لحالة النظام الاجتماعي القبلي نصف المستقر ، والذي مارس الصيد والتقاط البذور. وهنا بدأت بواكير فصل الجمجمة عن الجسد لتتكرس وتتبلور مع الثورة الزراعية التي شهدها العالم آنذاك ، انطلاقاً من سورية وذلك في حوالي منتصف الألف التاسع قبل الميلاد. كان الدفن يتم تحت أرضيات الكهوف والمساكن. كما شهدت المنطقة بناء مقابر منتظمة ومعزولة عن المساكن في مواقع عديدة.



ظاهرة الموت ومعتقداته

في العصور التاريخية ٣٢٠٠ ق. م

نحن هنا مع استمرار لتقاليد وشعائر الدفن التي كانت سائدة سابقاً ، مع ازدياد في التطور لجهة مناحي الحياة الدفينة ، ولاسيما مع بداءات نشوء المدن ، ومع فجر الكتابة والذي انطلق من المشرق العربي القديم ، ولعلنا وفي مجال متابعة البحث ، ولاسيما في العصور التاريخية /الكتابية/ نجد أنه ينبغي الإشارة إلى عدة مرتكزات:

أولها: أن العصور التاريخية في المشرق العربي تعد نقطة اتصال أو حلقة بين العصور ما قبل التاريخية والعصر الحديث لجهة شعائر الموت ومعتقداته ، بمعنى أن ثمة استمرارية حضارية متواصلة مع الأخذ بعين الاعتبار ما قدمته الثورة المدينية = العمرانية من جهة ، وما قدمه اختراع الكتابة من معايير وقيم جديدة على حياة المجتمع آنذاك والشعائر التي مارسها في مجال الموت من جهة أخرى. بالإضافة إلى بدء اعتمادنا ، على ما خطه أجدادنا على الرقم الطينية ، بما أدى إلى توسيع دائرة الرؤية ، لجهة معرفة شعائرهم ومعتقداتهم ، بشكل يبتعد عن الاعتقاد ، إلى الجزم.

وسوف نجد أن ثمة شعائر ومعتقدات وحياة رمزية ، مازالت موجودة إلى الآن في حياتنا تستمد جذورها من العصور القديمة.

ثانيها: كنا في مجال العصور ما قبل التاريخية نعتمد على اللقى وبقايا المباني والمقابر والمرفقات الجنائزية لتفسير موقف المجتمع من الموت ، أما مع اختراع الكتابة فنحن الآن مع مسار يأخذ منحيين:

الأول: إرجاعي بما يفسر الرموز والبنى ماقبل التاريخية عبر الوثائق الكتابية المكتشفة.

الثاني: واقعي بما تقدمه الوثائق ، وتدعم ذلك البنى الاثرية واللقى في حيز العصور التاريخية بهذا شكلت الوثائق الكتابية ، حالة توثيق لمناحي المجتمع كلها ومنها مسألة الموت.

ثالثها: قدر الامكان ابتعدنا عن الاستعانة بالنصوص الأسطورية والأدبية ، ليس لعدم أهميتها ، بل لأننا شئنا البحث في موضوع الموت وشعائره وفق ما كان يجري ، لا ما كان يتم تصوره [٢٤]. فالأسطورة على أنواعها المختلفة تستند إلى ركائز رمزية وكون أن الرمز مشحون بانفعال ، فلا نعتقد أن البحث العلمي يقوم على الانفعال ، بل على الوقائع الحياتية /لجهة هذا البحث/. وسأعطي مثالاً عن الانفعال الذي ذكرت ، فقد ورد في ملحمة جلجامش أنه بنى أسوار أوروك ، تلك التي لم يشهد مثلها إنسان [٢٥]، لكن الكشف الأثري في مدينة «موقع حبوبة» في سورية أثبت أن سور حبوبة الكبيرة يفوق ضخامة سور أوروك المعاصر له. [٢٦]

وأيضاً ، فمسألة الموت في الأسطورة المشرقية ، صحيح أنه كان يعبرّ عن موقف المجتمع من الموت لكنه يتضمن في الوقت نفسه خلفية للثقافة الزراعية ، وصراعاً للرموز فيما بينها ، على قاعدة ثنائية الموت ـ الانبعاث. ومجالنا نحن هو ليس في التصور والتخيلات بقدر ما هو رصد الممارسات ومجمل السلوك الإنساني المجتمعي الواقعي والذي وثّقته كتابات ونصوص المشرق العربي ، بعيداً عن التصورات والانفعالات. /هذا مع احتفاظنا بمقولة إن الفكر الفلسفي انبثق من الأسطورة/.

ومع عصر فجر التاريخ /حوالي ٣٥٠٠ ق. م/، نلاحظ أن شعائر الدفن في المشرق العربي القديم بقيت على حالها، واستمر الدفن تحت أرضيات المساكن /الظاهرة الأقدم/، مع ملاحظة هنا، أننا أصبحنا أمام ظاهرة دفن تتم في الجرار الفخارية، للأطفال أولاً ثم شملت الكبار أيضاً.

وفي هذه الفترة، وباطراد مع الزمن، لم يعثر على ظاهرة فصل الجماجم عن الأجساد. ما يعني أن عبادة الأجداد أو حتى ظاهرة الجماجم المقولبة لم تظهرها المواقع الأثرية حتى الآن. وربما الذي حصل ونتيجة للاتجاه الاجتماعي ـ الاقتصادي ومع بداءة تأسيس المدن ونشوء الزعامة بشكل نظام سياسي، أن تحولت عبادة الأجداد /القبلية/ إلى عبادة للملوك وتأليههم بعد الموت، تبعاً للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي الحاصل في المجتمعات. دون أن ننسى دور الكهنة في عامل الربط بين السماء والأرض.

ومن ناحية المرفقات الجنائزية /وهذه التسمية نعتقد أنها أفضل من الأثاث الجنائزي/، نلاحظ استمرارية لما كان سائداً من قبل.

مواقع هذه الفترة:

عثر في بيبلوس «جبيل» في لبنان على مقبرة تؤرخ بحدود ٤٠٠٠ ـ ٣١٠٠ قبل الميلاد حيث دفن الموتى داخل جرار كبيرة بعد أن تم قص أحد جوانب الجرة لادخال الجثة وتم الاستفادة من القسم المقصوص بأن أصبح غطاءاً للجرة.[٢٧]

المرفقات الجنائزية كانت عبارة عن أوانٍ فخارية كانت تحوي طعاماً وشراباً، وزود الموتى بالأسلحة الحجرية والنحاسية، وشملت قبور النساء على أدوات زينة وتبرج.

وفي جرة كبيرة عثر على هيكل عظمي لرجل، والى جانب هذه الجرة ثمة جرة صغيرة حوت هيكلاً عظمياً لكلب، /ما يشي باعتقاد أن الميت كان صياداً/. وفي أريحا في فلسطين عثر على قبور محفورة في المنحدرات الصخرية ويعتقد أن الدفن فيها استمر لأجيال متعاقبة ولمئات السنين.

وفي العراق عثر في موقع تل قاليج آغا على دفن تحت أرضيات البيوت بالإضافة إلى العثور على جرار تحوي هياكل أطفال. كانت جرار الأطفال ذات شكل كروي ولها فوهات واسعة حيث يدفن الطفل فيها بوضع جنيني. ويتم دفن الجرة في باطن الأرض بعمق يتراوح بين متر وأربعة أمتار.

وفي مواقع أخرى عثر في بعض القبور على نماذج فخارية لزوارق شراعية وهذا ما سنناقشه لاحقاً مستندين على النصوص المسمارية.

وفي موقع أور في العراق عثر على مقبرة تضم ١٦ قبراً ملكياً وتعود لحوالي ٢٩٠٠ ـ ٢٧٥٠ ق. م، والشيء اللافت هنا هو احتواء المقبرة على ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر وكأنه اعتقاد بأن الميت يحيا في القبر بانتظار انتقاله إلى العالم السفلي عبر نهر، فلا بد من وجود حاشيته معه للعناية به. ففي قبر عائد لملك أور (آ ـ كلام ـ دك) عثر على ٤٠ مرافقاً من الحاشية وفي قبر عائد للملك (آ ـ بار ـ كي) عثر على ثلاث ضحايا بشرية في جزء منه وفي جزء آخر عثر في حفرة كبيرة على ٦٢ جثة بينها ٦ جثث لجنود وتسع لنساء.

والملاحظ أن أصحاب هذه الجثث دفنوا بكامل ملابسهم وزينتهم أما الحرس فكانوا يحملون أسلحتهم والموسيقيون قيثاراتهم وصنوجهم. وقد تقدم هذه الضحايا عربتان ربط إلى كل منهما ثلاثة ثيران وقد جلس في داخلها الحوذيون.

أما قبر الملكة «بور ـ آبي» فقد عثر على عدة جثث لنساء رتبت في صفين، وفي آخر الصفين توجد قيثارة بالقرب منها هيكل امرأة امتدت عظام يديها عبر حطام القيثارة. وبلغ عدد الضحايا البشرية مع الملكة حوالي ٢٥ ضحية.

كما عثر في قبر آخر على حوالي ٧٤ ضحية بشرية منها ٦٨ لنساء والبقية لرجال.. يبدو أنهم جنود حيث اتكأوا على الجدار مع أسلحتهم، في حين كانت أربع نساء يقفن أمام قيثاراتهن[٢٨]. ولتفسير هذه الظاهرة الاستعبادية عبر وجود ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر. والتي تعتبر في رأينا ظاهرة مستوردة، لا تعبر عن ذهنية المشرق العربي بدليل عدم تواجدها سابقاً وعدم استمراريتها، رغم العثور على ما يدل أن مواقع مدينة كيش الرافدية قد شهد هذه الظاهرة (٨٠ ضحية دفنت مع حكام). فنحن نعتقد أن هذه الظاهرة مستمدة من الطقوس المصرية فقد عثر حول قبر الفرعون (جير) خليفة (غور آخا) في أبيدوس على حوالي ٣٨٨ قبراً معظمهم لنساء والذي يبدو أنه جرى تقديمهن كقرابين كي ترافق الفرعون إلى العالم الآخر.

وفي موقع آخر جرى دفن ٢٦٩ ضحية بشرية إلى جانب الفرعون كما رافقت زوجة الفرعون «ميرنيت» (٤١) ضحية، في حين أن الفرعون (أوداجي) رافقه ١٧٤ ضحية.

والذي يلاحظ أن الضحايا يكونون من أصحاب الحرف كالخزافين والنجارين والحجارين والرسامين وصانعي السفن وكل مع أدواته وتعود هذه القبور لحوالي ٣١٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م.[٢٩] وفي موقع أبو صَنّة في سورية، والذي يعود لمطلع الألف الثالث ق. م، عثر على عمليات دفن تحت أرضية البيوت تمت في جرار فخارية.[٣٠]

أما في ماري في سورية، فقد لوحظ انه في الألف الثالث قبل الميلاد كان السكان يدفنون موتاهم تحت التراب دون أي تابوت. وكانت الجثة تحاط بطبقة من الجرار الصغيرة. أما المرفقات الجنائزية فكانت عبارة عن أوانٍ فخارية تحوي الأطعمة والشراب بما يؤمن للميت قوت يومه في العالم الآخر. أما قبور الملوك فكانت ومنذ مطلع الألف الثالث عبارة عن قبور ضخمة حجرية.[٣١]



الطقوس الجنائزية في العصور التاريخية

كانت الطقوس الجنائزية تعتبر ذات أهمية لدى الناس في المشرق العربي، فقد ساد الاعتقاد أنه إذا لم تقدم القرابين للموتى سواء الطعام أو الماء أو إقامة الشعائر على الأموات في يوم الندب، فسوف تخرج أرواح هؤلاء الموتى المحرومين بهيئة أشباح، تعكر صفو حياة الأحياء وتعيث فساداً وشراً. فإحدى التعاويذ المقروءة على نص مسماري تقول على لسان إنسان يبدو إنه ضحية مرض أو شأن سلبي فهم منه أنه يعاني من شبح تقول:

«سواء كنت شبح شخص غير مدفون، أو كنت شبحاً لم يلق عناية لائقة، أو شبح الميت الذي لم تقدم له القرابين الجنائزية أو الذي لم يسكب له الماء..» (٣٢).

كما أن أحد النصوص يتحدث عن «أن الأشباح الشريرة تخرج من القبر من أجل الحصول على الطعام والماء» (٣٣).

ولقناعتنا الآن /في العصر الذي سوف تسود فيه الروح العلمية/، بأن حالة المرض أو الحمى أو كل ما كان يصيب الإنسان، كانت تفسر تبعاً لحالة البنية الدماغية لديه ومدى تطورها، لذا فان تعليله المعتمد على اعتقادات طقوسية، جعلته في حالة مرضه سواء العضوي أو النفسي، يلجأ إلى الإشارة بإصبع الاتهام إلى الأرواح الشريرة. وهذا ما استمر ولو بشكل أقل حتى حياتنا المعاصرة وعند بعض شرائح المجتمع ولاسيما التي لا تملك المعرفة العلمية. وتتحدث النصوص أيضاً عن شخص ابتلي بمرض ما /وحسب اعتقاده بروح شريرة/ حيث يتضرع إلى أرواح الموتى من عائلته لينقذوه فيقول بحس وجداني عالٍ:

«يا أرواح عائلتي، يا أرواح أبي وأمي وأجدادي وأخي وأختي وكل أهلي وأقربائي.. كنت أقدم إليك القرابين الجنائزية وأسكب الماء لك وأبذل العناية لك وأبجلك.. ففي الآن أمام شمش وجلجامش واعرضي قضيتي واحصلي على قرار رأفة بحقي.. ليتسلم نمتار الروح الشريرة التي في جسدي وأعصابي وليمنعها نيدو من العودة ثانية، خذي هذه الروح إلى أرض اللاعودة ودعيني أنا خادمك، حياً.. سأقدم الماء البارد لشربك فامنحيني الحياة لأغني بمديحك» (٣٤).

وثمة رسالة من حاكم ترقا «التابعة لماري» إلى ملك ماري زمري ليم، يشير فيها الأول إلى أن الإله دجن طلب بوساطة الكاهن /ماخو/ إقامة الشعائر الجنائزية لروح يخدون ليم والد زمري ليم، حيث يبدو أن زمري ليم انقطع عن إقامة الشعائر لوالده المتوفى (٣٥). وهاهو آشور بانيبال يذكر في أحد نصوصه: «لقد قمت بإعادة الشعائر التي تشمل الطعام والشراب المقدم لأرواح الموتى الملوك، والتي كانت مهملة، وأنجزت كل ما هو حسن للإله والإنسان، للميت والحي» (٣٦).

وكان موعد إقامة الشعائر والطقوس يختلف بين المدن، ففي بابل مثلاً، كان يتم في التاسع والعشرين من كل شهر، حيث يعتقد أن أرواح الموتى تتجمع في ذلك اليوم والقمر محاقاً. وكان هذا اليوم يوصف /بيوم سكب الماء. يوم القرابين الجنائزية، يوم الكآبة، يوم الندب/، وفي إيبلا كان يتم في الشهر الحادي عشر من السنة وهو شهر عشتار، أما العيد السنوي لإقامة الطقوس فكان يتم في شهر آب في بابل وفي آشور كان يتم تقديم الطقوس في شهر شباط. وينبغي الإشارة أيضاً إلى أن الطقوس الجنائزية كانت تقام أيضاً لإرضاء الآلهة ولاسيما آلهة العالم السفلي.

فقد جاء في أحد النصوص: «انك تقدم القرابين الجنائزية من أجل الحقل الذي لاينتج.. ومن أجل الأقنية التي لاتجلب الماء.. إنك تقدم القرابين لآلهة العالم السفلي» (٣٧).

ومن طرائف الأمور أن إحدى الوثائق الأكادية التي تعود للألف الثالث ق. م تذكر أن من يُتبنى، عليه أن يلتزم بتقديم القرابين إلى روح متبنيه بعد موته حيث جاء في النص:

«في حياتي تقومين بإطعامي وحين أموت تقدمين لي القرابين الجنائزية» (٣٨).

الحرمان من الدفن كعقاب

مجتمعي ضد الأفراد في الحروب

شكل الحرمان من الدفن عقاباً لمن لا يمتثل للقانون في مدن الدول آنذاك، إضافة إلى أن الانتقام خلال الحروب، كان يركز على نبش أضرحة ملوك الأعداء. ففي الأدعية كان يقال: «عسى أن يتهاوى جسده ولا يدفنه أحد» (٣٩).

«وعسى ألا يدفن جسده في التراب» (٤٠). لا بل أن أحد القوانين الآشورية يذكر: «إذا أجهضت امرأة حامل نفسها فيجب أن يحاكموها وإن أدينت توضع على الخازوق ولا تدفن، وإذا ماتت أثناء الإجهاض فيجب أن توضع على الخازوق لا تدفن جثتها» (٤١).

وعلى مسلة تعود إلى أمير لجش آي ـ أناتم، وتؤرخ حوالي ٢٦٠٠ ق. م، ثمة صور منقوشة تصور انتصاراته على أهل مدينة «أوما»، حيث يظهر القتلى مكدسين على الأرض، وجنود أمير لجش يسيرون فوقها، وقد نقشت رسوم النسور على المسلة وهي تطير من ميدان المعركة، حاملة بمناقيرها ومخالبها رؤوس وأيدي القتلى من الأعداء (٤٢). ويؤكد ذلك نص يصف فيه الأمير حربه وانتقامه فيقول: «بتصرف»:

«ذبحت جيش أوما في مدينتهم.. وتركت أجسادهم في السهل للطيور والوحوش، لتلتهمها ومن ثم كومت هياكلهم خمسة أكوام في خمسة مواضع منفصلة» (٤٣).

وتذكر حوليات آشور بانيبال، أنه في حربه ضد العيلاميين، خرّب أضرحة ملوكهم، وأخرج عظامهم ونقلها معه إلى آشور كأسلوب انتقام: «لقد نبشت قبور ملوكهم السابقين والمتأخرين الذين لم يخافوا من هيبة آشور، والذين أقلقوا أسلافي من الملوك، لقد نبشتها وعرّضت هياكلهم للشمس وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور، لقد فرضت الإزعاج على أرواحهم وقطعت عنهم قرابين الطعام وسكب الماء» (٤٤).

ومن الطريف في هذا المجال، ما فعله «مردوك ـ بلادان» حين تمرد على الملك سنحاريب، فعقب فشل تمرده، أخرج هياكل أسلافه وفر بها بعيداً، لخشيته من أن يلحق سنحاريب الأذى بها (٤٥).



التوابيت

مع بداية العصور التاريخية، كانت الجثث تدفن بعد لفها بحصر من القصب. أو تدفن الجثة في قبر مبطن بالحصر، وهذا ما أكدته مواقع أور ـ تل صوان ـ كيش.

كما استعملت التوابيت الخشبية في كيش. وعثر على توابيت طينية في موقع خفاجة.

وشاع الدفن في الجرار الفخارية في المشرق العربي، كما استعملت السلال في دفن الأطفال. وعثر على توابيت فخارية تشبه «طشت الغسيل»، حيث كانت تغطى بجذوع النخيل أو أغطية فخارية أو طينية. ففي موقع الأنصاري قرب حلب «٢٤٠٠ ـ ١٦٠٠ ق. م» عثر على مقبرة تشبه مقابر بلاد الشام من الناحية المعمارية، ومن ناحية المرفقات الجنائزية، ولاسيما مقابر قطنة والسلنكحية وتل برسيب وإيبلا.. وحوى أحد القبور، على هيكل عظمي لامرأة داخل جرة كبيرة لها فوهتان.[٤٦]

وفي ماري شاع الدفن داخل الجرار الفخارية خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وقد عثر على جرتين كبيرتين كانت فوهة كل منهما مقابلة للأخرى. وكان ممن أهم المرفقات الجنائزية، ثلاثة أقنعة لرجال مرد، مع زوائد متطاولة تمثل الأذنين وقد ثبّت القناع على صدر الميت[٤٧]. والجدير ذكره أن الأقنعة هذه عثر عليها في مواقع عديدة في الجناح الشرقي للمشرق العربي وفي أوغاريت.

شعائر الموت في إيبلا

تقول مرغريت يون: «من البحر المتوسط وحتى الفرات يلاحظ استمرار العديد من مظاهر الأثاث الجنائزي للمدافن».[٤٨]

فإيبلا لا تشذ عن هذا الأمر. ويبدو بشكل عام أن شعائر الموت ومعتقداته وبدءاً من السيادة العمورية على مدن المشرق العربي القديم قد تجانست ضمن معايير معينة وضمن نظام واحد مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف البيئة الخاصة بين مدينة وأخرى.

فقد عثر في إيبلا على مقبرة ملكية أمورية تعود للألف الثاني قبل الميلاد، وحول هذا يقول باولو ماتييه: «إن هذا التقليد الإيبلائي يعود إلى فجر التاريخ وقد شاع هذا التقليد /ويقصد المقبرة الملكية تحت القصر الملكي وفي قلب المدينة/ في جنوب الرافدين منذ منتصف الألف الثالث ق. م، كما في أور». فقد ظهرت تحت أرضيات القصر الغربي مقبرة ملكية هي عبارة عن أربعة مدافن[٤٩]، أهمها مدفن الأميرة ومدفن سيد الماعز ومدفن الخزانات.

مدفن الأميرة يعود لحوالي ١٨٠٠ ق. م، أما مدفن سيد الماعز فيؤرخ ١٧٥٠ ق. م، وفي هذا المدفن عثر على تميمتين من العاج إحداهما، تشي بطقس جنائزي، حيث أنها تتألف من سلسلتين من الصفائح العاجية الرقيقة، وقد حوى المشهد الأول منها على وليمة جنائزية مؤلفة من رجل عاري الرأس، يمسك بعصا، ويجلس رواء منضدة مليئة بأرغفة الخبز، ويقف أمامه عدد من الخدم ورجل وامرأة عاريين، أما المشهد الثاني فيتألف من قردين في حالة ابتهال أمام ثور، ومن شكل ثانوي لرجل يحمل فأساً. وقد فسر ماتييه هذا المشهد مستنداً على أبيات من شعر أوغاريتي تتعلق بالإله «كيريت»، حيث يتولى الابن الأكبر والإبنة الكبرى مهمة مراسم دفن والدهما الملك المتوفى. ففي المشهد الأول يكون الملك هو صاحب الوليمة الجنائزية، ومن ثم تنسخ روحه بعد الوفاة في شكل ثور يبتهل له القردان. ويشير ماتييه إلى تفسير هذه المشاهد وفق أسطورة تموز.[٥٠]

الجدير ذكره أن مدافن تلك الفترة تتشابه مع مثيلاتها في أريحا في فلسطين وجبيل في لبنان.

وقد دلت المقبرة الأمورية في إيبلا على ظاهرة عبادة الأجداد أو عبادة الملوك /ماتييه/[٥١]، ونحن نعتقد أن الظاهرة هنا، لا تعبر عن عبادة الأجداد بالمعنى القبلي، لأن نظام إيبلا السياسي شهد ملوكاً مختلفين ولا يشكلون علاقة أسرية متوارثة، وبالتالي فنحن أميل للأخذ بتقديس الملوك بعد موتهم.

شعائر الموت في أوغاريت

تم اكتشاف الكثير من المدافن في أوغاريت، حيث توضعت تحت أرضيات المساكن. فالبيت الأوغاريتي بشكل عام، يحتوي طابقه الأرضي على مركز للأعمال الحرفية أو المنزلية والمستودعات ويكون مفتوحاً على الشارع. وثمة طابق ثانٍ، مخصص لسكن العائلة، وربما يوجد طابق ثالث ثم السطح. أما تحت الطابق الأرضي فيتوضع مدفن العائلة ويكون لها باب إلى الشارع مباشرة إضافة إلى ارتباطها ببقية أجزاء المنزل.[٥٢]

عثر في أحد المدافن ضمن المنازل، على مرفقات جنائزية تضم بيوض النعام، كانت تستورد من مدن المشرق العربي الأخرى. كما كانت القبور تحوي على الأسلحة والحلي. وعثر في القصر الملكي على مدافن ملكية كبيرة تعود لحوالي ١٤٠٠ ق. م، وحوى أحد القبور على منحوتة لموسيقي يعزف على صنجين.[٥٣]

وقد تم قراءة أحد النصوص الأوغاريتية التي تتحدث عن أرواح الموتى «الابوم»، ويبدو أنها مرتبطة بعبادة أو تأليه الموتى /ربما الملوك/، أو إقامة شعائر جنائزية في ما يسمى بالمرزح.

ويبدو أن المرزح كان على شكل مؤسسة اجتماعية، تعنى بالطقوس الجنائزية التي تقام في دار مرزح لبكاء الأموات، وربما استذكارهم. حيث يقتسم الخبز ويشرب النبيذ للتعازي بالأموات. وفعل رزح، يفيد بمعنى السقوط إلى الأرض. وقد افترض جوناس جرينفلد أن ثمة توافقاً بين المرزح وبين طقس كيسبو الرافدي، فالمدعوون إلى الوليمة يكونون الأجداد وأرواح الموتى[٥٤]. ويبدو أن المرزح كان يشمل وليمة جنائزية، يتم عبرها دعوة أرواح الأجداد لذكراهم والتبرك بهم. وفيما يعاصر أوغاريت نميل نحو أريحا في فلسطين، حيث أدت المكتشفات الآثارية، إلى العثور على مدافن شبيهة ببقية مدافن بلاد الشام، ولكن الشيء الجديد هنا، هو أن المرفقات الجنائزية جديرة بأن نطلق عليها اسم أثاث جنائزي، فقد حوى أحد المدافن على أثاث «مناضد وطولات وكراسي خشبية» حيث استلقى الميت وسط الغرفة، على سرير بالقرب من طاولة، محملة بقطع من أدوات مهنية، استخدمها الميت في حياته /حيث كانت مستعملة/. ويبدو أن الأثاث الجنائزي هذا كان تشبهاً بالمدافن المصرية.[٥٥]



العالم السفلي عند المشرقيين القدماء

يتألف العالم السفلي حسب أحد النصوص الآشورية، خلال فترة السيادة الأمورية على المشرق العربي ٢٠٠٠ ق. م، إلى أن الأرض تقسم إلى ثلاث طبقات:

الأرض العليا = أرصيتو إليتو «بالأكادية»، الأرض الوسطى = أرصيتو قبليتو، الأرض السفلى، /العالم السفلي/ = أرصيتو سبليتو. أما مداخل العالم السفلي، فهي القبر وأيضاً مدخل يقع عند مغيب الشمس.

وفوق العالم السفلي /الذي يتوضع في الطبقة الأخيرة تحت الأرض/ كانت تمتد مياه العمق، وثمة نهر يؤدي إلى العالم الأسفل يطلق عليه بالأكادية نهر /عبر/، وهو يحيط بالمدن. وباعتقاد أجدادنا آنذاك، أنه لا يمكن العبور للموتى بهذا النهر والوصول إلى أسوار مدينة الموتى، إلا بعد إقامة الشعائر الجنائزية وتقديم القرابين لآلهة العالم السفلي، عبر نهر عبر. لهذا كانت المرفقات الجنائزية ترفق بسفن ونماذج منها، إضافة إلى قطع نقود سوف يأخذها المسؤول عن عبور الموتى للعالم السفلي.

كان الاعتقاد بشكل عام في المشرق العربي، أن شهر شباط هو شهر لأخذ الأموات، حيث يكثر الموت /وهذا الاعتقاد مازال مستمراً في عصرنا الحديث/ وكان يسمى /بشهر نهر عبر/، حسب الوثائق الآشورية.

وورد في أحد النصوص المشرقية العائدة للألف الثاني ق. م: «دعهم يعبرون نهر العالم السفلي ولا يعودون» [٥٦].

ومن أسماء العالم السفلي وصفاته، فإننا نلاحظ مدى تشابه الكلمات الأكادية مع الكلمات العربية، فالقبر في الأكادية: قبرو، وأرض الموتى = أرصيتو ميتوتي. وأناس سفليون «في العالم الأسفل» نجدها في الأكادية: نسي سبلاتي. وخربة أي مقبرة نجدها في الأكادية: خربو. [٥٧]

شعائر الموت عند الآراميين

دفن الآراميون موتاهم بطرق الدفن العادي، حيث دفنت الجثث داخل قبور مبنية على شكل غرف. كما كانوا يحرقون الجثث، والذي يبدو أنه تقليد لطقوس أناضولية لا تمت بصلة لذهنية الموت في المشرق العربي القديم. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن شواهد القبور هي ابتكار آرامي بامتياز، استمر إلى عصرنا الحاضر. ففي شمأل، عثر على شاهدة قبر ارتفاعها متر ونصف، وتمثل مشهد مائدة تجلس اليها سيدة ترتدي ثياب الاحتفالات، وأمامها طاولة تحوي أصنافاً من المأكولات، وخلف المرأة وقفت الوصيفة وبيدها الأولى مذبة، وبيدها الأخرى سكين. [٥٨]



ويعتقد الدكتور علي أبو عساف بأن هذا المشهد يصف تصويراً لعقيدة الحياة في العالم السفلي. [٥٩] بالإضافة إلى شواهد القبور ظهر لدى الآراميين ابتكار التماثيل الجنائزية، حيث عثر عليها في عدة مدافن آرامية، ففي جوزن تم اكتشاف تمثالين لامرأتين جالستين وتمثال لرجل وامرأة يجلسان على مقعد واحد. وقد اتسمت هذه التماثيل بالتعبير الواقعي لحالة الموت، حيث العيون مغمضة وتوحي الشخوص بالجمود، دلالة على أنهم أموات.

وفي تل حلف عثر على تماثيل للموتى توضع كشاهدة قبر، وانتشرت الكتابة تحت قوس شاهدة القبر وعلى أسفل ثوب الميت. فمثلاً عثر على شاهدة قبر لكاهن /سن/ المتوفى، حيث نقرأ أسفل الثوب على الشاهدة:

«سن - أرز - ابني» كاهن سن هو متوفي وهذه صورته وقبره. وينتهي النص بلعن كل من يسيء إليه. [٦٠]

وبشكل عام لم يظهر عند السوريين القدماء تفكير ما بوجود حياة بعد الموت، ولعل المرفقات الجنائزية من طعام وشراب وسفن ونقود إلخ، بالإضافة إلى الشعائر والطقوس الجنائزية، كانت تتم لتهدئة روح الميت، وجعله مطمئناً أولاً، وثانياً، من أجل ابتغاء مرضاة آلهة العالم الأسفل كي تعتني بالميت في العالم الآخر / السفلي.

وهذا ما جعل السوريين القدماء يعملون للحياة ومن اجل الحياة والمجتمع أكثر ما كانوا يشغلون تفكيرهم بالموت وعالمه. وهذا ما تبدى معنا منذ ما قبل التاريخ مروراً بالعصور التاريخية وحتى مملكة تدمر في القرون الميلادية الأولى والتي سمت المدافن ببيت الأبدية.

ولعلنا نختم بحثنا هذا بمقولة العالمة الايطالية غابرييلا ماتييه:

«لم يكن السوريون غير مهتمين بمسائل ما بعد الحياة أو الوجود وإنما كانوا أقل استعداداً ليوم الموت، وهذا ما عرفناه من بقاياقبور مدمرة في سورية مثل إيبلا.

السوريون يصورون مكان الموت والقبر وحياة العالم الأسفل كمكان حزين، مكان حداد، مكان دخاني رمادي.. الموت عند السوريين بشكل عام نهاية مفتوحة للحياة» [٦١].

الهوامش

(١) د. سلطان محيسن. الصيادون الأوائل. دار الأبجدية. دمشق. ١٩٩١

(٢) الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم. مجموعة باحثين. وزارة الثقافة. دمشق. ٢٠٠٠

(٣) محيسن. مرجع سابق.

(٤) فرنسيس أور. حضارات العصر الحجري القديم. ت: سلطان محيسن. دمشق. ١٩٨٩

(٥) كارل ساغان. تنانين عدن. ت: نافع لبس. اتحاد الكتاب العرب. ١٩٩٦

(٦) المرجع السابق.

(٧) تظهر بعض المعطيات الأثرية الحديثة، أن الإنسان العاقل ربما لم يتطور عن سلفه النيادرتال. رغم أن المؤشرات تؤكد تطور الإنسان العاقل الفلسطيني عن سلفه النياندرتال. ولكن ظهور دلائل عن وجود الإنسان العاقل، في جبل قفزة في فلسطين، بما يعود لحوالي ١٠٠٠٠٠ سنه، ربما يعيد النظر في الكثير من المفاهيم السابقة. /راجع. محيسن. الصيادون الأوائل.

(٨) ساغان. مرجع سابق.

(٩) كارل غوستاف يونغ. علم النفس التحليلي. ت: نهاد خياطة. دار الحوار. سورية. ١٩٨٥

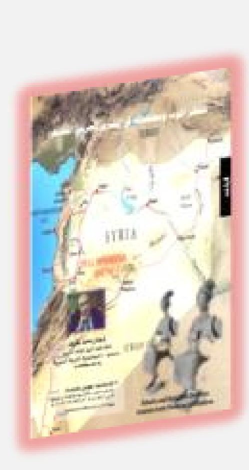
(١٠) محيسن. مرجع سابق.
(١١) يمكن العودة للهامش رقم ٧
(١٢) هـ. فرويليش. ديانات الأرواح الوثنية. ت يوسف شلب الشام. دار المنارة. دمشق. ١٩٨٨
(١٣) بورهارد برينتيس. نشوء الحضارات القديمة. ت: جبرائيل كباس. دار الأبجدية. دمشق. ١٩٨٩
(١٤) فرويليش. مرجع سابق.
(١٥) المرجع السابق.
(١٦) المرجع السابق.
(١٧) جاك كوفان. الألوهية والزراعة. ت: موسى خوري. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٩٩
(١٨) المرجع السابق.
(١٩) برينتيس. مرجع سابق.
(٢٠) ابلا. مجموعة باحثين. ت: قاسم طوير. دار يعرب. دمشق. ١٩٨٤
(٢١) برينتيس. مرجع سابق.
(٢٢) د. نائل حنون. عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة. وزارة الثقافة. بغداد. ١٩٨٥
(٢٣) يونغ. مرجع سابق.
(٢٤) باعتقادنا، أن عقائد الموت وشعائره تتطلب حين دراستها، عدم الخلط بين الحقيقه التاريخية الموثقة، في الكتابات المسمارية وغيرها. وبين الأساطير والتي يناقشها البعض، وكأنها أحداث حقيقية. فالمعلوم أن الأساطير على أنواعها، هي ضرب من التصورات والتخيلات، لرموز وآلهة، والرمز بشكل عام، هو تصور مشحون بالانفعال، وبذا فلا يمكن تحقيق الغرض العلمي في بحثنا، اذا خلطنا الوقائع التاريخية المعاشة، مع التصورات والتخيلات الأسطورية. وربما يحتاج هذا، لبحث في الموت في الأسطورة لوحده، أو محاولة اجراء مقاربة للموت بين الوقائع التاريخية المعاشة، في مقابل الموت في الأساطير.
(٢٥) طه باقر. ملحمة جلجامش. بغداد. ١٩٦٢ وزارة الارشاد.
(٢٦) ايفا شترومينغر. حبوبة. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٤
(٢٧) د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة. ١٩٨٨ ـ دمشق
(٢٨) حنون. مرجع سابق.
(٢٩) برينتيس. مرجع سابق.
(٣٠) الحوليات الأثرية السورية. ٣٤ـ١٩٨٣
(٣١) أندريه بارو. ماري. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٧٩. ت: رباح نفاخ.
(٣٢) حنون. مرجع سابق.
(٣٣) المرجع السابق نفسه.
(٣٤) المرجع السابق نفسه.
(٣٥) المرجع السابق نفسه.
(٣٦) المرجع السابق نفسه.
(٣٧) المرجع السابق نفسه.
(٣٨) المرجع السابق نفسه.
(٣٩) المرجع السابق نفسه.
(٤٠) المرجع السابق نفسه.
(٤١) المرجع السابق نفسه.
(٤٢) أندريه بارو. سومر. ت: سليم التكريتي ـ عيسى سلمان. بغداد. وزارة الثقافة. ١٩٧٨.
(٤٣) حنون. مرجع سابق.
(٤٤) المرجع السابق.
(٤٥) المرجع السابق.
(٤٦) الحوليات الأثرية السورية. مجلد ٣٣ ـ ١٩٨٣
(٤٧) بارو. مرجع سابق.
(٤٨) الحوليات الأثرية السورية. مجلد. ٢٩ ـ ١٩٧٩/٣٠ ـ ١٩٨٠
(٤٩) ابلا. مرجع سابق.
(٥٠) المرجع السابق.
(٥١) المرجع السابق.
(٥٢) الحوليات. ٩٢ ـ ٣٠. مرجع سابق.
(٥٣) المرجع السابق.
(٥٤) المرجع السابق.
(٥٥) برينتيس. مرجع سالق.
(٥٦) حنون. مرجع سابق.
(٥٧) المرجع السابق.
(٥٨) د. علي أبو عساف. الآراميون. دار الأماني. ١٩٨٨
(٥٩) المرجع السابق.
(٦٠) المرجع السابق.
(٦١) مجلة البناء اللبنانية. حوار مع غابرييلا ماتييه. ١٩٨٩/١٠/٢١.

مراجع البحث الأخرى

- د. سلطان محيسن. المزارعون الأوائل. دار الأبجدية. ١٩٩٤
- سيغموند فرويد. الطوطم والتابو. ت: بوعلي ياسين. دار الحوار. سورية. ١٩٨٥
- بيتر فارب. بنو الإنسان. ت: زهير الكرمي. عالم المعرفة. ١٩٨٣/٦٧. الكويت.
- أشلي مونتاغيو. البدائية. ت: جابر عصفور. عالم المعرفة. ١٩٨٢/٥٣. الكويت.
- جاك كوفان. ديانات العصر الحجري الحديث. ت: سلطان محيسن. دار دمشق. ١٩٨٩
- ايف كوبنز. افريقيا وقصة الإنسان. ت: سلطان محيسن. دار شمأل. دمشق. ١٩٩٦
- الميثولوجيا ونشوء المعتقدات القديمة. مجموعة باحثين. ت: حسان اسحق. الأبجدية. ١٩٩٣.
- د. خالد ـ أبو غنيمة. أساليب الدفن في العصور الحجرية. دراسة. جامعة اليرموك.
- Exposition syro - éuropeenne d'archéologie - Paris 1996.
- Syrie terre de civilisations .1999 .quebec.
- انطون مورتكات. تموز. ت: توفيق سليمان. دار المجد. سورية ١٩٨٥.

الدكتور بشار خليف في سطور:

كاتب وباحث سوري من مواليد دمشق عام ١٩٥٧. له كتابات في القصة القصيرة والشعر، ودراسات أثرية وتاريخية. عضو إتحاد الكتاب العرب (دمشق) وعضو اتحاد الآثاريين العرب (دمشق). كتب في عدد وافر من الصحف والمجلات العربية المطبوعة والإلكترونية مثل: الحياة اللندنية - مجلة ديوان العرب- مجلة البناء - صباح الخير اللبنانية. صحيفة تشرين السورية - الأبجدية الجديدة- الديار اللبنانية.



حتى نلتقي

عاوزين المصل



بقلم

أحمد عـــادل

عضو هيئة التحرير

كاتب وباحث – جمهورية مصر العربية

ahmed1292005@hotmail.com

أنف... لو... نزا ، يبدو لي أن تقسيم الاسم هكذا هو وصف دقيق لأكثر الأسباب المؤدية إلى الإصابة بالفيروس الأشهر في تاريخ البشرية (الأنفلونزا) ، فالأنف هو العضو البشري المسئول عن حاسة التنفس والشم ، و"لو" هي لو الشرطية وهي من عمل الشيطان والعياذ بالله ، و"نزا" هو الفعل من نزوة ويعني تعجل أو تهور أو تسرع ؛ أي أن أنفك الجميل هذا لو قام مرة وغلط واستنشق رذاذ سيئ السمعة من هنا أو من هناك شرقي أو غربي ويحمل هذا الفيروس اللعين ، كانت النتيجة وبالاً على الجسد البشري بأكمله تكسير عظام وهزال وضعف عام وعدم القدرة على بذل مجهود ...إلخ.

وتاريخياً يقال أن فيروس "الأنفلونزا" سُميَ بهذا الإسم لأنه يشبه المرض الذي تُصاب به الأغنام فيسبب سيولة في أنفها ، وقد أطلق عليها العرب "أنف العنزة" عند ظهور أعراضها على الإنسان.

ورغم أن الناس قد اعتادوا الإصابة بأدوار البرد والزكام بصورة موسمية ، إلا أن الأمر كان مختلفاً هذا العام ونحن نستقبل شهر الربيع بأزهاره البديعة ونسيمه العليل ، فالخنازير فجأة اكتشفت أنها مظلومة في هذه الدنيا ، ولا تحظى بالقدر الكافي من الاحترام من جانب الإنسان فقررت أن تلعب معه لعبة الموت ؛ تحورات جينية لفيروس الأنفلونزا ، وتركيبة ثلاثية من فيروسات الأنفلونزا المختلفة (العادية والطيور والخنازير) ، وتفاعلات تمت داخل هذا الحيوان الأليف والذي يصفه العلماء والأطباء بأنه مخزن فيروسات متحرك فكانت النتيجة التي استيقظ عليها العالم ؛ فيروس جديد حقق نوعاً من الشهرة التي يحلم بها هذا الحيوان... أنفلونزا الخنازير.

وما أن انتشر هذا الفيروس من هنا إلا وانقلبت حياة البشر ؛ وخاصةً أن الفيروس القاتل أغلب ضحاياه من الشباب والفئة العمرية المتوسطة وهو مازاد الأمر توتراً.



فالمكسيك مثلاً- وهي أول دولة ظهر بها الفيروس وبها العدد الأكبر من ضحاياه حتى الآن – توقفت فيها الحياة لمدة خمسة أيام كاملة بقرار رئاسي ، وأغلقت المدارس والجامعات والمطاعم والمسارح ودور السينما ، والتزم الناس منازلهم إجبارياً لتضييق الخناق على الفيروس الرهيب.

وهكذا وبمرور الوقت بدا طبيعياً أن تتجه شكوك الناس نحو أي شخص يعطس أو يكح ، فهو مشتبه به حتى يثبت عكس ذلك ، وظهر شعاراً جديداً من نوعه... "أنا أعطس إذن أنا مشبوه" ، وهو الأمر الذي ظلم المصابين بالأنفلونزا العادية وأدوار البرد والزكام العارضة ؛ حيث ثبُتَ علمياً أن أعراض هذه الأمراض تتشابه مع أعراض الإصابة بأنفلونزا الخنازير ، فأصبحت نظرات الناس إليهم غير لطيفة بالمرة بل إنهم يظنون الآن أن المجرمين المشتبه بهم من قبل الشرطة أفضل حالاً منهم بسبب نظرات الاحتقار والريبة التي تلاحقهم ، ويا ويله ويا سواد ليله اللي يغلط ويعطس من غير قصد.... خلاص اللي عطس عطس من زمان والعطسة دلوقتي ثمنها غالي جداً ، وهو الأمر الذي اضطر أغلبهم إلى الذهاب إلى عيادات الأطباء للاطمئنان على صحتهم واثبات براءتهم من الاصابة بالفيروس ، وصار المريض منهم يدخل على الطبيب ودموعه في عينيه ويسأله دون مقدمات: "طَّمني يا دكتور أرجوك... خنازيري ولاَّ مش خنازيري".

ورغم أن الفيروس الجديد قد سبب رعباً داخل القلوب ، إلاَّ أن أغلب الناس لا يدركون أن الأنفلونزا العادية مثلاً تودي

بحياة الآلاف سنوياً خاصةً من كبار السن والأطفال بالإضافة إلى أمراض أخرى ضحاياها يُقدَرون بالآلاف سنوياً ، ولكن لا أحد يعرف أو يتابع ، وهو ما ذهب بالأطباء إلى طمأنة الناس وتهدئتهم ، وأن كل المطلوب منهم فقط هو الحذر ، وأن العملية كلها من أولها لآخرها هي خنازير تبحث عن الشهرة.

وكالعادة في عالمنا العربي وقت الأزمات والشدائد تكثُر الأقاويل والشائعات والأخبار المفبركة والتي تفتقد حتى إلى الحبكة والمتعة وتجعل التاريخ يضحك من سذاجتنا ، فهذا العاطل الجالس على القهوة ليل نهار يقول لك في هدوء وهو واضعاً قدم على قدم: "كلام في سرك... ده شغل أمريكان" ، في الوقت الذي كانت فيه نسبة الإصابات بالفيروس في أمريكا تتزايد بصورة مرعبة ، أما هذا الواقف هناك فيقسم لك بأغلظ الأيمان أن كل ما يحدث هو انتقام آلهي حل على الدول الغربية الكافرة وفي نفس اللحظة التي قال فيها هذا الكلام بدأت نشرات الأخبار تعلن أن الفيروس قد وصل إلى دول عربية وإسلامية مؤمنة وموحدة بالله لا شريك له. ولكن ما أضحكني بالفعل هو ذلك الشخص الذي رأيته يقول – في حالة من اللاوعي وعدم الإدراك – وبصوت صاخب: "يا جماعة العقل زينة ، ما حدش هيجيبلكوا خبر الموضوع ده غير المفتش (كرومبو) ، وابقوا قابلوني في الحلقة الجايه" ، ووصلت حالة الرعب مداها أن أحد أصدقائي كان قد أخبرني أنه قرر تأجيل زفافه على عروسه إلى أن يتم حل مشكلة هذا الفيروس اللعين ، فالأطباء كانوا قد نصحوا – بعد بدء انتشار الفيروس بصورة مقلقة- بضرورة الابتعاد عن القبلات والأحضان والتخفيف منها إلى أن تهدأ الأمور وتنتهي هذه الأزمة ، وبيني وبينكم وجدت أن قرار هذا الصديق صائباً تماماً واقتنعت به تمام الاقتناع ؛ اتنين متجوزين هيعملوا إيه يعني في بداية جوازهم ، هيستخدموا لغة العيون بتاعة (عبد الوهاب) مثلاً ؛ إذن ما دام المسألة وصلت إلى حد تأجيل الزواج يُبقى لازم نقلق.

ولم يكن غريباً على الإطلاق – وبعد الفزع الذي أثاره هذا الفيروس - أن يطلب الرئيس الأمريكي (أوباما) من الكونجرس تخصيص مبلغ ١.٥ مليار دولار لدعم الأبحاث العلمية بهدف التوصل إلى لقاح أو مصل مضاد للفيروس القاتل ، يأتي هذا في الوقت الذي كانت فيه نسبة كبيرة من سكان الوطن العربي الحبيب يتابعون بنهم شديد تفاصيل حفل زفاف المغنية الشهيرة (هيفاء وهبي) ، وفُتِحَ باب المراهنات حول معرفة سعر فستان الزفاف وتكلفة الورود والزهور الموجودة بالحفل ، والبوفيه مفتوح ولاَّ مش مفتوح ، وأسماء المدعوين للفرح السعيد ، وأسم المأذون وأسم خالته وأسم عمته ، والجائزة الكبرى تُمنح لمن يعرف لون الـ... كفاية لحد كده وخلينا في الأنفلونزا أحسن.

١.٥ مليار دولار تُرصد لدعم هذه الأبحاث ، لكي يتفرغ العلماء ولا ينامون ولا يأكلون ولا يشربون حتى يتوصلوا لمصل مضاد يقي الإنسان من هذا الفيروس القاتل ويحافظ على حياته ؛ لأن حياة الإنسان هناك غالية وغير مقبول المساس بها على الإطلاق ، ولأنهم هناك يدركون جيداً أن تفشي وباء بهذا الحجم من الشراسة له تداعيات خطيرة أهمها مثلاً تعطل نسبة كبيرة من طاقة العمل ، وتوقف الدراسة في المدارس والجامعات ، وتوقف الإنتاج في الشركات والمصانع ؛ أي أن حياة الإنسان ستختل سترتبك ولن تسير على ما يرام. إذن وجب عليهم التحرك الفوري ، ووجب علينا نحن هنا في الوطن العربي الانتظار وليس شيئاً غيره.

١.٥ مليار دولار تُرصد هناك لحل المشكلة ، ونحن هنا لم نسمع مسئول عربي واحد يقول لنا ويكشف عن إستراتيجية علمية لمقاومة الفيروس ، أو أن هناك أبحاث تُجرى في جامعة عربية هنا أو هناك للتوصل إلى لقاح أو مصل مضاد للفيروس ، ولكنني الآن والآن فقط اكتشفت السر الخفي وراء المراكز المتدنية التي تحتلها الجامعات العربية دائماً في الترتيب العالمي للجامعات ، والغريب والمضحك أيضاً أن كل ما تم اتخاذه عربياً من إجراءات هو توفير مخزون ضخم من الكمامات الواقية ، بالإضافة إلى تشديد الرقابة على المطارات والمنافذ البرية والبحرية ، واللي يظهر عليه أعراض برد حتى ولو برد مكتوم ، يتم اعتقاله فوراً ووضعه في الحجر الصحي حتى يظهر له صاحب وتثبُت براءته من التهمة المنسوبة إليه ، وهو ما لم تفعله بهذه الصورة الدول الموبوءة بالفيروس.

كل ما علينا إذن هو انتظار فرج الله على العالم الأمريكي أو البريطاني أو الفرنسي أو الياباني الذي سيتوصل إلى المصل ، والذي ستنتجه الشركات هناك ، وتعبئه الشركات هناك ، وتوزعه الشركات هناك ، ثم بعد ذلك يصل إلينا من الشركات هناك.

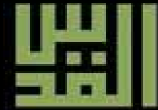
رسالة إلى العالم الجليل اللي هيكتشف المصل المضاد لأنفلونزا الخنازير والذي لا أعرفه ولا يعرفني ، من فضلك... عشان خاطري... شد حيلك... وبسرعة شويه... الناس هنا عايزه تتجوز... الناس هنا عايزة تنام في العسل... الناس هنا عايزه تعرف لون الـ... ولاَّ بلاش ، يا بروفيسور يااللي عندك أصل... والنبي عاوزين المصل.



من مقالات الكاتب أحمد عادل:

- المدفع في الموبايل
- أين الشجرة يا ناس؟
- لا تبتسم أيها العربي إلا إذا





عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture

al-QUDS
2 0 0 9